روبرت زارِتسكي

حياة تستحق أن تعاش

ألبير كامو والبحث عن المعنى

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

مراجعة: سامر حميد البغدادي

مكتبة 1648

سطور للنشر والتوزيع

حَياة تستحقّ أن تُعاش

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

روبرت زارِتسكي

مكتبة 1648

حَياة تستحقّ أن تُعاش

ألبير كامو والبحث عن المعنى

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

مراجعة: سامر حميد البغدادي

المدار
للنشر والتوزيع

مكتبة
t.me/soramnqraa

22 1 2024

- حَياة تستحقُّ أن تُعاش
- تأليف: روبرت زارِتسكي
- ترجمة: إبراهيم قيس جركس
- مراجعة عامة: سامر حميد البغدادي

- الطبعة الأولى 2023

ISBN: 978-9922-628-86-8

- هام: إن الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، أو محررها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

سطور
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com

SUMER
Printing, Publishing&distribution

- تصميم الغلاف: ماهر عدنان
الأخراج الفني: آية نبيل

فهرس المحتويات

أفضل ما قيل عن الكتاب ٧

مُقدِّمة ١٣

الفصل الأول: العَبَث ٢٥

الفصل الثاني: الصَّمْت ٨١

الفصل الثالث: القِيَاس ١١٩

الفصل الرابع: الإخْلاص ١٤٧

الفصل الخامس: التَّمرُّد ١٨٣

خَاتمة ٢٢٥

مصادر المقدمة ٢٣٩

أفضل ما قيل عن الكتاب

«كتـابٌ تنويـريٌّ ... يستكشـف زارِتسـكي حِـسَّ كامـو مُتعـدِّدَ الأوجـه».

~ جون تايلور، ملحق التايمز الأدبي

«يميـلُ كتـاب [حيـاةٌ تسـتحقُّ أن تُعـاش] عـن المقـاربة الزمنيَّـة، وبـدلاً مـن ذلـك، يـسرد زارِتسـكي قصـة [كامـو] وفقًـا للمواضيـع الخمسـة التـي شـغلت حياتـه وعملـه: العَبَـث، الصَّمْـت، الْقِيَـاس، الإِخْـلَاص، والتَّمَـرُّد. والنتيجـة هـي صـورة أكثـر إنسـانيَّة لرجـل غالبًـا مـا تختـزل حياتـه بتأمـل كآبـة العبثيَّـة. فيكشـف زارِتسـكي أنَّ كامـو كان إنسـانًا مُفرِطـاً في إنسـانيَّته: وهـي نقطـة واضحـة تذكِّرنـا بـأنَّ حاجتنـا الماسَّـة إلى الأبطـال، وبخاصَّـةٍ الآن، غالبـاً مـا تُحجَـب».

~ ليندا كينستلر، صحيفة New Republic

«مُقدِّمة رائعة عن أفكار ألبير كامو، ونظرة عامة لقرَّائه. يُوضِّح زارِتسكي بسهولة المفاهيم الصعبة التي قد تبدو عسيرة في دراسة يسيرة، ويكشف عن محادثة تمزج بين جوانب مهمة من حياة كامو - خلفيته الجزائريَّة، الحياة في فرنسا، وأهميَّة الحرب والمقاومة والسُّلِّ الذي ابتلي به طوال حياته، لتتوضح الصورة أمامنا لمفكر مفرط بالأخلاق والحب الدائم لجمال الحياة».

~ ستيفن كارول، صحيفة **Sydney Morning Herald**

«في العنوان الجميل والمكتوب بشكل جميل[حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى]، يوضح المؤرخ روبرت زارِتسكي سعي كامو طوال حياته في تسليط الضوء على محاولته البائسة لإيجاد الوحدة والمعنى، وإرثها الخالد، بأسلوب رائعٍ ومجملٍ».

~ ماريا بوبوفا، **Brain Pickings**

«بعضُ الكتاب محظوظون بما يكفي لتذكُّرِهم بعد ٥٠ عامًا من وفاتهم، وقليل منهم محبوبون. ولكنَّ ما هو نادر، هو بقاء كاتب مات منذ زمن طويل مثيرا للجدل. ألبير كامو هو أحد هذه النوادر، إذ لا يزال لديه القدرة على إشعال التوجهات السياسيَّة من خلال دمجه العميق لتاريخ القرن العشرين بعمق في كتاباته. سيجد القرَّاء الجدد لكامو في كتاب زارِتسكي مصدرًا مطَّلعا ومثيرا للإعجاب بحرارة».

~ آدم كيرش، موقع **Daily Beast**

«من المحدود للغاية التفكير في ألبير كامو على أنه فيلسوفٌ عبثيٌّ. فبينما لم يتدرب كامو أبدًا على أن يكون فيلسوفًا، يوضح زارِتسكي أن كامو كان إنسانًا ذا مبادئ عالية، ومدافعًا قويًّا عن العدالة، ولا يزال صداه يدوِّي في أرجاء الفكر».

~ مجلة **Christian Century**

«بعد أكثر من نصف قرن من وفاته المفاجئة في عام ١٩٦٠ عن عمر ناهز ٤٦ عامًا، لايزال كامو يثيرنا فكريًّا. وفي كتاب [حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش] يقدم زارِتسكي اختبارات شاملة وصارمة لحياته وعمله، ويساعدنا أيضًا في فهم قلقه المستمر ونصائحه في الفنِّ والأدب».

~ كيفين رابالي، صحيفة **The Australian**

«للحصول على دراسة قصيرة جيدة عن حياة [كامو] وعمله وفلسفته، طالع كتاب روبرت زارِتسكي [حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى]» .

~ ستيفن روموني، صحيفة **The Australian**

«أثارت الذكرى المائويَّة [لميلاد كامو] الكتَّاب والمؤلفين لإعادة النظر في مساهماته في الأدب وعصره. وروبرت زارِتسكي كان

واحدًا من الأفضل. كتب الحائز على جائزة نوبل ذو الأصول الجزائريَّة-الفرنسيَّة، والمعروف بروايات مثل الغريب، الطاعون، أسطورة سيزيف، تأمُّلات المقصلة، كتب بشكل ثاقب عن مواجهة الظلم، والحاجة للتمرُّد، ومواجهة العبثيَّة، والبحث عن المعنى. يؤكد زارِتسكي أهميَّة أفكار كامو، الذي توفي في حادث سيارة عام ١٩٦٠، حتى يومنا».

~ بيتر إم. جيانوتي، صحيفة **Newsday**

«قدم لنا زارِتسكي في كتابه هذا، معالجات موجزة وبالغة لحياة وعمل الأخلاقي الفرنسي-الجزائري ألبير كامو بأسلوب أقل ما يقال عنه إنه كان ساحرًا».

~ باري لينسر، مجلة **PopMatters**

«يعرِّف زارِتسكي كامو كأخلاقيٍّ طارحٍ للأسئلة بدلاً من الإجابات. مثل هؤلاء الأخلاقيِّين الشجعان مثل مونتين، وفولتير، وهوجو، وزولا. وسَّع كامو بحثه الخاص عن الحقيقة إلى الساحة العامة، وفي كتابة نثريَّة بالغة وجديرة بموضوعها، يذكرنا زارِتسكي أنه في زمن التفجيرات الانتحاريَّة والقتل المقنَّن، بأهمية قراءة كامو بتدبر أكثر».

~ ستيفن جي كيلمان، موقع **Texas Observer**

«كتاب [حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى] استكشاف رائع وموجز لأفكار كامو، وقدرته المستمرة على إثارة قلقنا وإلهامنا حتى يومنا هذا».

~ سارة باكويل، مؤلفة كتاب «كيف تعيش: الحياة»

مُقدِّمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

«حتى موتي سيُطعَنُ فيه. ولكنَّ كلَّ ما أرغب فيه اليوم موتٌ هادئٌ، يجلب السلام والطمأنينة لجميع من أحبُّهم». [١]

تحقَّقت نبوءة كامو، وللأسف الشديد، التي كتبها خلال العقد الأخير من حياته، وربما لم يكن يأمل ذلك. وخلال السنوات الماضية، ثارت الكثير من الجدالات والنقاشات حيال ميراث هذا الكاتب الفرنسي-الجزائري الرائع.

بعد فترة قصيرة من تولِّيه الرئاسة، قام الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بزيارة الجزائر. جذبت زيارته هذه الكثير من الاهتمام، فمن ناحية لأنَّ ساركوزي قد وصل لمنصبه الرئاسي على أساس سمعته وخلفيته كمحافظ وناطق فظٍّ ومتشدِّد محسوب على المحافظين الجدد، وكونه - من ناحية أخرى - لم يكن يرى سبباً يدفع فرنسا أن تعتذر للجزائر عن تاريخها الاستعماري. وإحدى

المحطَّات المدروسة التي خطَّط للوقوف عندها كانت بلدة تيبازة، وهي بلدة جبليَّة تطلُّ على البحر الأبيض المتوسِّط. لكن ما يميِّز تيبازة فعليًّا ليست فقط مجموعة الآثار الرومانيَّة التي تنتشر في أرجائها - وهي دليل آخر على وجود مشروع استعماري قديم - بل المكان الذي تردَّد إليه كامو مرَّات عدَّة خلال حياته القصيرة.

تعبِّر اثنتان من أكثر مقالاته شعريَّة وغنائيَّة، «**أعراس في تيبازة**»، و«**العودة إلى تيبازة**»، عن ارتباطه العميق بهذه القرية. يصف المقال الأوَّل، الذي كتبه عام ١٩٣٦ عندما كان لا يزال شابًّا عاطلًا عن العمل صاحِبَ طموحات كبيرة، تجربته في تيبازة بطريقة إيروتيكيَّة صريحة:

> «كلُّ شيء يبدو لنا باطلاً ما عدا الشَّمس، والقُبَل، والعطور الوحشيَّة..... إنَّني أترك هنا لغيري النِّظام والاعتدال. إنَّه فُجور الطَّبيعة والبحر اللامحدود الذي يأسر خَلاياي كلَّها».[٢]

بعد ما يقرب من عشرين عاماً، عاد كامو إلى تيبازة، وقد غَدا كاتباً كبيراً ذا شهرة عالميَّة واسعة، ولكنَّ نفسه لا تَخلو من شكوك. عندما يقترب من القرية، يتذكَّر الزِّيارة التي قام بها قبل نهاية الحَرب العالميَّة الثَّانية. كانت الأحداث الأخيرة قد غيَّرَت المكان الأصيل: جنود وأسلاك شائكة تحيط بالأعمدة والأقواس حيث وقفَ في يومٍ من الأيَّام عاري الصَّدر مُبتسماً، مُحاطاً بصديقاته الجميلات. خلال تلك الرِّحلة، التي تَلَت الحَرب، بَدَت روح كامو سجينَةً أيضاً، كان

العالَمَ يبدو هناك وكأنَّه انهارَ أو أصيبَ بالجنون:

«كانت الإمبراطوريات تتداعى، والأمم والرِّجال يأخذ بعضها بخناق بعضٍ بوحشيَّة، لقد كانت أفواهنا ملَوَّثة، ولكن كان هناك شبابٌ ضائعٌ الآن، وعلى الممشى الذي كنتُ أحبُّه فيما مضى، بين أعمدة المَعبد المُتَهَدِّم المُبتَلَّة، كان يُخَيَّل لي أنَّني أقتفي أثَرَ أحدهم، وأنَّني ما أزال أسمع وَقعَ خُطاه على بقايا زخارف الآثار، ولكنَّني كنتُ كَمَن يَتبعه دون أن يصل إليه أبداً».[٣]

لكنَّ هذه الذِّكريات القاتمة تُفسِحُ المجال لشيءٍ أقدم بكثير، ولكنَّه في الوقت نفسه «**أصغَر من أحواضنا الجافَّة وآثارنا**». يكشف كامو عن العَظَمَة الدَّائمة لتيبازة التي تقاوم بعنادٍ جنونَ العالَمَ الحديث:

«وقد اكتشفتُ هنا أيضاً الجمال القديم، والسَّماء الفَتيَّة، وامتَحَنتُ نصيبي بوعي بعد ذلك، فعَرَفتُ أنَّ ذكرى تلك السَّماء لَم تتخَلَّ عنِّي خلال سنوات جنوننا العصيبة. ولا بدَّ من القول أخيراً بأنَّها هي التي خَلَّصَتني من الشعور باليأس».

كانت الجزائر في ذلك الوقت تتَّجه نحو حَربٍ أهليَّة، وعلى الرَّغم من أنَّ كامو لَم يَذكُر صَراحَةً الأحداث التي كانت قد اندَلَعَت بالفعل، لكنَّه كان يبدو كأنَّه يتجهَّز للمستقبل:

«إنَّني لم أستطع إنكار الضِّياء حيث وُلِدتُ، وفي الوقت نفسه لم أرِد التنكُّرَ لُمنجَزات هذا العصر».[٤]

وأمامَ حَشدٍ مُتناثِرٍ يُلوِّح بأعلام البَلَديين، حَدَّقَ الرَّئيس الفرنسي ساركوزي في البحر بينما كان يستمع إلى أحد مُضيِّفيه وهو يتلو مَقطَعاً من مقالة «**أعراس في تيبازة**».[٥] ربَّما كانت مقالة «**العودة إلى تيبازة**» مهمَّة إلى حَدٍّ كبير، أو سياسيَّة للغاية. وبطبيعة الحال، عندما انتهى العَرض، عادت الوفود والجماهير إلى سياراتهم، وتابَعَ المَوكب الرِّئاسي إلى محطَّته التَّالية، تاركاً خلفه المَعبَدَ المُدَمَّر، والسَّماء الفتيَّة، التي لطالما كانت مُحَصَّنَة ضدَّ التَّسييس، كما كان المعنى المُراوغ، والجمال العميق لمقالات كامو.

بعد ثلاث سنوات، في عام ٢٠١٠، مع اقتراب الذِّكرى الخمسين لوفاة كامو، كان الكاتب من جديد في قلب السِّياسة الفرنسيَّة عندما اقترح ساركوزي نقل رُفاة كامو إلى مَجمَع البانثيون. واجه اقتراح ساركوزي أصواتَ معارَضَة شديدة من اليَسار بحجَّة أنَّه يحاول «**استعادة**» إرثِ كامو خِدمَةً لأجندته السياسيَّة. وأصَرُّوا على إبقاء رُفاته في لورمارين، المقاطعة البروفانسيَّة التي اكتشفها بعد الحرب بفترة قصيرة، وحيث انتقل بمساعدة صديقه المُقَرَّب والشَّاعر رينيه شار، قبل سنوات قليلة من وفاته. وأعلَنَت أصوات من اليمين، مِنَ الذين يعتبرون كامو من المُحافظين الطَّليعيِّين الجُدُد، صَدْمَتَها من هذه الاتهامات. أدَّى هذا الجَدَل القائم بين الجناحين إلى حدوث شَرخٍ بين توأمَي كامو أيضاً: فبينما استَنكرَ ابنه جان جهود ساركوزي لتحويل والده إلى أيقونة يمينيَّة مُحافظة، اعتَبَرَت ابنته كاثرين، المُنَفِّذة الشَّرعيَّة والمَسؤولة الرَّسميَّة عن

مُلكيَّـة والدهـا الأدبيَّـة، أنَّ نقـلَ رُفاتـه إلى البانثيـون تتويـج لحُلُـم حياتـه بالتَّحـدُّث باسـم أولئـك الذيـن لا صـوت لهـم.[٦]

وفي حـين أنَّ رُفـاة كامـو لا يَـزال يَرقـد بسَـلام في لورماريـن، لكـنَّ معنـى عملـه وأهميتـه لـن يكونـا كذلـك أبـداً،[٧] ويرجـع ذلـك جزئيًّـا إلى تُراثـه الجزائـري. في روايـة أليكـس دي سـان أندريـه «بابـا في البانثيـون»، تسـعى الحكومـة للتقـرُّب مـن ابنـة كاتـب مشـهور متـوفًّى يُدعـى بيرغـر -وهـو صـورة كاريكاتوريَّـة مقنَّعـة للكاتـب أندريـه مالـرو -حيـث يقـرِّر الرَّئيـس الفرنسي إدخالـه في البانثيـون. كان الدَّافـع سياسـيًّا بحتـاً. وكـما قـال مديـر البانثيـون للابنـة، «**بعـض الأشـياء أقـلُّ تكلفـةً مـن الدَّفـن في البانثيـون. نحـن نُحـضِرُ الطَّـلاب، وننشُـرُ الحَـرَس الجمهـوري، ونُصـدِر طابَعـاً بريديًّـا جديـداً، وكلُّ ذلـك لا يكلِّـف الحكومـة شـيئاً**». الدِّعايـة الحكوميَّـة مجَّانيَّـة وتلقائيَّـة وشـاملة. ومـع ذلـك، هنـاك تحذيـر: «**نحـن بحاجـةٍ إلى عَميـلٍ جيِّـد**». بعـض «الكُتَّـاب» كاثوليكيُّـون إلى أبعَـد حَـدٍّ مثـل (تشـارلز بيغـي، وفرانسـوا موريـاك)، وبعضهـم شـيوعيُّون مُتَشَـدِّدون مثـل (لويـس أراغـون، وبـول إلـوار)، وأحدهـم لَم يَكُـن كفـؤاً كمقاتـلٍ ومُقـاوِم (مثـل أندريـه جيـد)، في حـين هنـاك آخـر عديـم الجـدوى تمامـاً مثـل (مارسـيل بروسـت). وماذا عـن سـارتر؟ انسَ الأمـر، يَضحـك المُخـرج: «**مـا زالَ مُخطئـاً كـما كان**». ثـمَّ يذكـر كامـو، ليكتشـف أنَّ الأخيـر قـد فَشِـلَ أيضـاً في الاختبـار، لأنَّ الجزائـر فشـلت فيـه.[٨]

قلَّـةٌ مـن الكُتَّـاب فاقـوا كامـو تقديـراً واحترامـاً للهُويَّـة الشَّـخصيَّة والوطنيَّـة. كان هـو مـن ذوي «الأقـدام السـوداء»، اللقـب الـذي أطلِـق

على المهاجرين الذين قَدِموا خلال القرنين التَّاسع عشر والعشرين إلى الجزائر الفرنسيَّة من أصقاع مختلفة من أوروبا، وأصبحوا مواطنين في الأمَّة الفرنسيَّة، التي لا يتكلَّمون لغتها، ولَا يعرفون شيئاً عن تاريخها، وقد لا يَطؤون أرضها أبداً. ولكن ذلك لَمْ يَكُن مهمًّا في تلك الفترة: لقد اعتُبِرَت الجزائر جزءاً من فرنسا، وليست دولة أجنبيَّة تضمُّ ملايين عدَّة مِنَ العَرَب والأمازيغ المحرومين أصلاً من حقوق المواطَنَة. وبحلول خمسينيات القرن الماضي، كان كامو يُشبه بطله الأسطوري سيزيف، الذي لَمْ يَكُن يُدَحرج صخرة، بل يحمل على عاتقه المأزق المأساوي للمقاومة الجزائريَّة للاحتلال الفرنسي. فقد جاهَدَ كامو لسنوات عديدة لإيجاد حَلٍ يُلَبِّي مُقتضيات العدالة لكلٍّ منَ العَرَب والمُستعمرين على حدٍّ سواء، مُجازفاً بحياته في السَّعي إلى سلامٍ مُستحيل. فشل كامو والتَزَم الصَّمْت -ثمَّ ظلَّ صامتاً حتى وفاته عام ١٩٦٠.

بينما يواصل كامو الجزائري تقسيم الرَّأي العام في فرنسا، إلا أنَّ هناك إجماعاً في الجزائر حول كامو؛ حيث يعدُّه عددٌ متزايدٌ من الكتَّاب الجزائريين أنَّه واحد منهم. وكان ذلك صحيحاً إلى حَدٍّ ما منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين وخلال ما يسمَّى بالحرب الجزائريَّة الثانية التي خاضتها الحكومة الجزائريَّة ضدَّ جماعات متطرِّفة إسلاميَّة. قامت الروائيَّة الجزائريَّة ــ وعضوة الأكاديميَّة الجزائريَّة ــ آسيا جِبار بتسجيل كامو ضمن مجموعتها الخاصَّة بالشهداء السياسيِّين الجزائريِّين. فهو، كما تقول آسيا، كان أحد «**دُعاة الأدب الجزائري**» - روحٌ أخويَّة تدعوها إلى جانبها

من أجل النَّظر والتأمُّل والتَّفكير معاً في الفوضى الدّمويّة لماضي الجزائر.[٩]

وبالمثل، خلال نقاشٍ أخير في فرنسا حول العَدد غير الكافي للمساجد، يتذكَّر عبد القادر جامي، مؤلِّف كتاب «**كامو في وهران**» أنَّ كامو أبدى إعجابه بالبساطة الجميلة للمَدافن العربيَّة. وخلال زيارة قام بها جامي إلى لورمارين، اكتشف أنَّ «**شاهد قبره يشبه شواهد أسرَتي المُتوَفِّين**».[١٠]

ما يجذب هؤلاء الكُتَّابَ الجزائريين إلى كامو ليست خصوصيته بوصفه كاتباً جزائريًّا بقَدر عالميَّة اهتماماته. وهذا سببٌ آخر يَدفعنا للاستمرار في القلق. وسواء نظرنا إليه من تيبازة أو من باريس، يظلُّ كامو الرَّجل الذي وقفَت حياته شاهداً على نوعٍ منَ البطولة اليائسة. إنَّ إدانته الشديدة للمعاملة التي تتعامل بها الحكومة الفرنسيَّة مع العرب والأمازيغ، وإدانته للتَّشريعات المُعادية للسَّاميَّة في حكومة فيشي الفرنسيَّة، ومعارضته المستمرَّة لعقوبة الإعدام، وجهوده الشُّجاعة للتَّفاوض على هدنة والتَّوصُّل إلى حَلٍّ وسطٍ في الجزائر التي مَزَّقتها الحَرب، كلها تعكس أفعال رَجلٍ سعى لرَبط حياته بفكره وفلسفته. لقد فشل أحياناً في تحقيق ذلك. فعلى سبيل المثال، خلال الفترة التي امتدَّت بين الأشهر الأخيرة من الاحتلال الفرنسي والأشهر الأولى من التَّحرير، نجح كامو في قمع كراهيته العميقة لعقوبة الإعدام، ليس فقط مُبَرِّراً، بل مُطالباً بإعدام أولئك الذين أدَّى تعاونهم مع المُحتَلِّ في زمن الحرب إلى مَقتل الفرنسيِّين. يعكس موقفه هذا مرونة كامو

الأخلاقيَّة حتى أنَّه تخلَّى في النهاية عن هذا الموقف، معترفاً على العَلَن بأنَّه كان مُخطئاً، ومع ذلك، فإنَّ إعادة قراءة متأنِّية لمقالاته في زمن الحرب التي دعا فيها إلى تطبيق عدالة سريعة لا تَرحم، يمكن أن تَقشَعِرَّ لها الأبدان.[١١]

تُذَكِّرنا هذه التناقضات، بالطبع، بأنَّ كامو كان إنسانيًّا، مُفرِطاً في إنسانيَّته: وهي نقطة واضحة تذكِّرنا بأنَّ حاجتنا الماسَّة إلى الأبطال، وبخاصَّةٍ الآن، غالباً ما تُحجَب. والأهمُّ من ذلك هو أنَّها تذكِّرنا بأنَّ كامو نفسه كان على دراية تامَّةٍ بهذه التَّناقضات، وسعى من خلال أفعاله وكتاباته إلى شرحها. في حالة موقفه في زمن الحرب من عقوبة الإعدام، ألقى كامو محاضرة رائعة عام ١٩٤٨، عندما اعترف بأنَّه كان على خطأ (سنناقش الأمر لاحقاً). وليس من الصَّعب قراءة روايته القصيرة «**السقطة**» جزئيًّا بوصفها اعترافا ضمنيًّا وصريحًا في آنٍ واحدٍ بخياناته المُتَعَدِّدَة في أثناء زواجه من فرانسين كامو (هذا ما فهمته زوجة الكاتب). وهذا ما قالته له عقب الانطلاقة النَّاجحة لكتابه: «**أنتَ مَدينٌ لي بذلك**».[١٢]

هذا القلق المستمرُّ، هذا العَجز التَّعيس عن التَّهدئة من خلال التَّبريرات لتصرُّفاتنا أو تصرُّفات الآخرين، هذه الموهبة اللعينة في إجبار من حولنا ليس فقط على إعادة النَّظر في المعتقدات التي لطالما اعتَقَدَ بها المَرء، واعتبرها أمراً مَفروغاً منه، هي التي تَجعل من كامو كاتباً في غاية الأهميَّة. كانت لديه عادة، كما كتب توني جوت، أن يَنظر «**في المرآة بسبب قلقه الأخلاقي**».[١٣] إنَّ عمله

وحياته، بدورهما، حَمَلَا المرآة نفسها ووضعاها أمام بقيّتنا. اقترح جوت في وقتٍ ما أنَّ هناك أخلاقيًّا حقيقيًّا لم يجعل الآخرين يشعرون بالقلق وعدم الارتياح فحسب، بل تسبَّب لنفسه على الأقل قلقاً مماثلاً أيضاً.[١٤]

الأخلاقي ليس شخصاً واضعاً للأخلاق، فالأخير لديه جوابٌ حتى قبل أن يُطرَحَ السُّؤال، بينما الأول -الأخلاقي- يطرح الأسئلة بعد أن يسمع الإجابات المُتاحَة، وهذه الأسئلة -كما يقول الفرنسيُّون- تؤدِّي إلى حالة «انزعاج، أو عدم راحة» **déranger** -تُزعِج، أو بتعبيرٍ أدَقَّ، تُفَكِّكُ ما تَمَّ ترتيبه بالفعل. كان كامو، في هذا الصَّدَد، رجلاً أخلاقيًّا **moralist**. لَم تَقد هذه الأسئلة كامو إلى الانعزال والعَدَميَّة، إنَّما دَفَعَتْهُ نحو قِيَم التَّضامن والتَّعاضُد، وشكل من أشكال الضَّرورة الأخلاقيَّة. لقد كان أخلاقيًّا أصَرَّ على أنَّه في حين أنَّ العالَمَ عبثيٌّ وغير مَعقول، ولا مجال فيه لبارقة من الأمل، إلا أنَّنا ليس مَحكوما علينا باليأس. كان أخلاقيًّا ذكَّرنا بأنَّ كلَّ ما لدينا في النهاية هو بعضنا البعض في عالمٍ صامتٍ وغير مُبالٍ:

«وفي أكثر الفترات العَدَميَّة سَواداً بَحَثتُ فقط عن الأسباب التي تساعد على تجاوز هذه العَدَميَّة. ولم يَكُن ذلك منِّي بدافع الفضيلة، وليس للتَّربية الفُضلى التي تلقيتها، ولكنَّ الإِخْلَاص الفطري لذلك النُّور الذي رأيته حيث وُلِدت، وحيث منذ ألف سنة دَرَجَ ناس تلك البلاد على احترام الحياة حتَّى في الفترات التي تسودها الآلام... وذات الشيء نراه عند أبناء اليونان ممَّن هم أقلُّ اعتباراً

على الرغم من إِخْلَاصهم البَيِّن، والذين لا نَعدم وجودهم في عصرنا الأعجف، إنَّ شُبوبَ النَّار في تاريخنا يبدو صعب التَّحقيق، ولكنَّ هؤلاء لا بدَّ فاعِلون لأنَّهم يريدون فهمه. إنَّ في قلب نتاجنا المُفعَم بالسَّواد شَمساً تشعُّ وليس لضيائها من خُمود، وتلك الشَّمس التي يفيض بهاؤها في هذه الأيام على السَّهل والتِّلال».[١٥]

تعتبر تجربة المُعاناة أساسيَّة وجوهريَّة في حياة الأخلاقي وعمله. لا شكَّ أنَّ هذه القناعة تَدعم الافتتاحية العميقة لمقال كامو المبكِّر «أسطورة سيزيف»:

«[إنَّ] الحكم بأنَّ الحياة تستحقُّ أن تُعاش، يَسمو إلى مَرتبة الجواب على السؤال الأساسي في الفلسفة».[١٦]

بالنِّسبة للكثيرين منَّا - بمن فيهم ممن لَم يُدرِكوا بعد بأنَّهم ينتمون إليهم-يبقى هذا هو السُّؤالَ الفلسفيَّ الأساسيَّ. هل حياتنا، المليئة حتماً بالخسارة والألم والمُعاناة - تستحقُّ منَّا وقتنا؟ لَم يَكُن لدى الإغريق، الذين كانوا مصدر الإلهام الأساسي لكامو، أيُّ شكٍّ: للمُعاناة مَزاياها. وكما أعلَنَ أسخيليوس المحبوب عند كامو عبر جوقته في أوريستيا، «**يجب أن نُعاني، أن نُعاني حقيقةً**».[١٧] تنطبق ملاحظة مارثا نوسباوم على الدَّور التَّربوي للمُعاناة في التِّراجيديا اليونانيَّة أيضاً على كامو:

«هذا نوعٌ من المعرفة يعمل عَمَلَه من خلال المُعاناة، لأنَّ المُعاناة هي الإقرار المناسب بطريقة حياة الإنسان في هذه الحالات».[١٨]

تَكمُنُ عبقريَّة المأساة اليونانيَّة في أنَّها تَرفض الإجابات أو الحلول. وتكمن قيمتها في:

«وصف الصِّراع ورؤيته بوضوح، والاعتراف بعدم وجود مَخرَجٍ واضح. أفضل ما يمكن أن يَفعله الإنسان هو أن يكون لديه معاناته، والتَّعبير الطَّبيعي عن صَلاح شخصيَّته، وألَّا يكبح هذه الاستجابات بدافع التَّفاؤل المُضَلِّل».[١٩]

تنطبق هذه الملاحظة بالطبع على أعمال كامو وحياته، لكنَّنا يجب أن نتوخَّى الحَذَرَ هنا. لَم يَكُن جواب كامو على الشَّرط الإنساني هو المُعاناة بقَدرِ ما كانت الحالة العبثيَّة للعالم. فكما جاء في مقالات مبكِّرَة مثل «**أعراس في تيبازة**»، وكذلك عَمله الأخير «**الرَّجل الأوَّل**»، بوجود قوَّة ساحرة، كان كامو يحبُّ العالَم. لكنَّه لَم يَكُن مُرتاحاً مع أولئك الذين لا يُبالون بجماله، ويشيحون بأنظارهم عن الجاذبيَّة الحسِّيَّة للمناظر الطَّبيعيَّة لموطنه المتوسِّطي، وغير المُخلصين لإخوانهم من البشر. أن تكون أخلاقيًّا، كما فهم الأبيقوريُّون، يعني أنَّك يجب أن تكون حسِّيًّا. لَم يَكن واقع معاناته فقط، بل جذوره الضَّاربة في عالَمنا، ما سَمَحَ لكامو أن يُعلِنَ دون أيِّ تلميحٍ عاطفيٍّ أنَّه على الرَّغم «**من أنَّ في صميم الشِّتاء، يَظَلُّ في نفسي صيفٌ خَفيٌّ**».[٢٠]

عندما أَلَّفتُ كتابي الأوَّل عن كامو «**ألبير كامو: عناصر حياة**» حاولتُ أن أضَعَ أفكاره وكتاباته ضمن سياق أربع لحظاتٍ محوريَّة في حياته، ساعياً إلى شَرح معانيها من خلال السِّياقات التي

تَكَشَّفَت عبرها. اعتقدتُ آنَذاك، وما زلتُ حتى الآن بصفتي مؤرِّخاً، أنَّ هناك الكثير ممَّا يمكننا قوله لصالح هذا النَّهج. ولكن في الوقت الذي أكمَلتُ فيه الكتاب، لَم يُبارِحني شعوري بعَدَم الرِّضا: فبالنَّظر إلى السِّياق التّاريخي، شعرتُ أنَّني قد أهمَلتُ بعض الموضوعات الفكريَّة أو الأخلاقيَّة التي ارتبطنا بها منذ فترةٍ طويلةٍ مع عملٍ كامو. كما هو الحال مع مسألة العَبَث، بعضها عناصر من الحالة الإنسانيَّة، كما هو الحال تماماً مع عناصر مثل الإِخْلَاص أو الْقِيَاس، فهي من الفَضائل التي يجب على البشريَّة أن تسعى من أجلها، أو كما هو الحال مع الصَّمْت أو التَّمَرُّد، وهما وَجهان أساسيَّان وأخلاقيَّان جدًّا في حياتنا. إنَّها، باختصارٍ شديد، ما أعتقد أنَّها عناصر ضروريَّة من جهودنا لعيش حياةٍ تستحقُّ أن تُعاش.

الفصل الأول

العَبَث

«هنالك مشكلة فلسفيَّة مهمة وحيدة، هي الانتحار. فالحكم بأنَّ الحياة تستحقُّ أن تُعاش، يسمو إلى منزلة الجواب عن السؤال الأساسي في الفلسفة. وكل المسائل الباقية ـ هل أنَّ للعالم ثلاثةَ أبعاد أم لا ـ هل أنَّ للذهن تسعةَ أصناف أم اثني عشر صنفاً ـ تأتي بعد ذلك. فهذه هي لعب، وعلى المرء أن يجيب أولاً». [1]

تركت هذه السُّطور الافتتاحيَّة لكتاب ألبير كامو «أسطورة سيزيف» - التي كانت من بين أكثر التَّحدِّيات شهرةً في القرن العشرين -الكاتب المرموق والرَّائد، أندريه مالرو، غير راضٍ تماماً. وبصفته كان مُحَرِّراً في دار غاليمار، دار النشر الأكثر شهرةً في فرنسا، وَجَدَ مالرو، الذي أُعجِبَ أشدَّ الإعجاب بمخطوطة كامو

الأخرى ـ الغريب ـ هذا العمل الجديد مُجهِداً ومُلتوياً. فكتب إلى المؤلِّف ناصحاً:

«قد تكون البداية متعثِّرة بعض الشَّيء، وبما أنَّك قد أوضحت أنَّ المقال سيتناول موضوع الانتحار، فلا حاجة لتكرار ذلك كثيراً». [٢]

لكنَّ مالرو كان مُخطئاً: فالمقال لا يتبنَّى مفهوم الانتحار، بل يتناول وضعنا العبثي. فإذا وجدنا أنفسنا ذات يوم «**في عالم جُرِّدَ فجأةً من الأوهام والنُّور**»، إذا كنَّا مصرِّين على إيجاد معنى، لكنَّنا بدلاً من ذلك لا نسمع «**إلَّا صمْت العالم المُطبِق واللامعقول**»، وإذا استوعَبنا تماماً عواقب هذا الصَّمْت الرَّهيب، يقول كامو مؤكِّداً، يفرض الانتحار فجأةً نفسه باعتباره الجواب الوحيد لحالتنا. [٣] وعلى الرغم من تضييق مالرو الصَّارم، إلا أنَّ ذلك هو بالضبط السَّبب في أنَّ هذا السَّطر الافتتاحي في المقال يستحقُّ انتباهنا الكامل. فإذا بقيَ السُّؤال مُعَلَّقاً، فذلك لأنَّه أكثر من مجرَّد مسألة تاريخيَّة أو مصلحة شخصيَّة. إنَّ سعينا الدَّؤوب للعثور على معنى، والعواقب التي يجب أن نتوصَّل إليها خاليي الوِفاض، هي مسائل ذات طبيعة أبديَّة ومُلِحَّة.

لكن عندما نواجه السُّؤال، نكتشف أنَّ الفلسفة التَّقليديَّة لا تساعدنا كثيراً، أو ترشدنا إلى الطَّريق القويم. لم يكن لدى الفلاسفة أيُّ اهتمام بهذا الموضوع، كما كتب كامو، وهو سؤالٌ «بسيطٌ ومتواضِعٌ للغاية، ومَشحونٌ بالعاطفة في الوقت نفسه» [٤]. ولهذا السبب، أصَرَّ معظم الفلاسفة المحترفين، وما زال بعضهم

يُصِرُّون على أنَّ هذه مشكلة خاطئة، تلمع بخفوت كتيَّار يزداد مُلوحَةً بسبب وجود ارتباك بالفئات الصُّوريَّة أو سوء استخدام للُّغة. ومع ذلك، هناك فلاسفة آخرون ينتقدون الآن فشل جماعتهم في فهم طبيعة الوجود المُعَنَّد للعبث في حياتنا. وكما يُصِرُّ روبرت سولومون، فإنَّ العبث:

«يسمِّم حياتنا اليوميَّة ويُضفي على كل تجاربنا قدراً عظيماً من العبثيَّة واللاجدوى..... إنَّنا نجد أنفسنا في محاولة يائسة للتحرُّك بسرعة أكبر، إلى اللامكان؛ أو أنَّنا نحاول تسلية أنفسنا»[٥].

من ناحية أقلَّ دراماتيكيَّة، لكنَّها بالقدر نفسه من التَّوكيد، يقارن توماس ناجل العبث مع ما يسميه «**نظرة من العَدَم**». هذه النَّظرة تنتزعنا من تجاربنا الذَّاتيَّة اليوميَّة وتجبرنا على تبنِّي وجهة نظر خارجيَّة - نظرة تهزُّ الأفكار والافتراضات المُسبَقَة التي نحتفظ بها حول حياتنا. هذه النَّظرة تفرض علينا حقائق مخيفة وتُصيبنا بالشَّلل - إنَّنا لم نَعِش الحياة على الإطلاق، أو إنَّ العالم والحياة سيستمرَّان بدوننا بعد أن نموت. عندما ننظر إلى أنفسنا من الخارج، يلاحظ ناجل، «**نجد صعوبةً في أخذ حياتنا على محمل الجِدِّ**». في مثل هذه اللحظات، نواجه العبث «**مشكلة حقيقيَّة لا يمكننا تجاهلها**» [٦].

من هنا قرَّر كامو التَّخلِّي عن المفردات والتقنيات التقليديَّة للفلسفة. فبدلاً من خوضها في سلسلة من الحجج، فإنَّ أسطورة سيزيف عبارة عن انفجار من الانطباعات، بعضها حميميٌّ،

وبعضها الآخر أدبيٌّ، وجميعها عاجلة وواضحة. مقالة «**أسطورة سيزيف**»، شبيهة بتلك التي كان يكتبها أحد الفلاسفة الذين اقتدى بهم كامو: ميشيل دي مونتين. يطارد كامو عبر صفحات مقالته فريسة الفلسفة الدَّائمة ـ سؤال «**مَنْ نحن؟، أين يمكننا أن نجد المعنى؟، وما إذا كان ذلك مُمكِناً؟، وماذا يمكن أن نعرف عن أنفسنا وعن العالم من حولنا؟**» ـ بغية الإمساك بها بدلاً من السَّعي وراءها. لم يَعُد كامو قلقاً حيال بقاء «**شيء ما مؤقَّت**» لعمله كما فعل مونتين لدرجة أنَّ صورته الذاتيَّة استمرَّت في التغيُّر.[٧] وفي الحقيقة، تمكَّن كامو أن يحقِّق مع أسطورة سيزيف ما زعمه الفيلسوف موريس ميرلوبونتي لمقالات مونتين، فهي تخلُقُ:

«وعياً مندهشاً بذاته وتَضعه في صلب الوجود الإنساني».[٨]

بالنِّسبة لكامو، هذه الدَّهشة ناتجة عن مواجهتنا مع عالم يَرفُضُ التَّخلِّي عن المعنى. ويحدث ذلك عندما تنتفي حاجتنا للمعنى أمام اللامبالاة الرَّاسخة والمُطلقة للعالم. ونتيجة لذلك، فإنَّ العبث ليس حالة مستقلَّة؛ إنَّه حالة غير موجودة في العالم، إنَّما تنبثق من الهاوية التي تفصلنا عن عالمٍ صامت:

«هذا العالم بحَدِّ ذاته غير معقول، هذا كلُّ ما يمكن قوله. لكنَّ الأمر العبثيَّ يتمثَّل في مواجهة هذا التَّوق غير العقلاني والجارِف للوضوح الذي يتردَّد صداه في قلب الإنسان. فالعبث يعتمد على الإنسان بقدر ما يعتمد على العالم. وهذا، في الوقت الحالي، هو كل ما يربطهما ببعضهما».[٩]

يقول كامو، إنَّ الاستدلال العبثي يشتدُّ مع وجود حاجة مُلِحَّة غريبة تفرض نفسها على الفلسفة التَّقليديَّة: لم يسبق أن ماتَ أحدٌ من أجل الجدل الأنطولوجي. حتى أعظم مستكشفي العَبَث من المفكِّرين الذين أعملوا عقولهم للتوصُّل إلى استنتاجات راسخة، قد انحرفوا عن مسارهم، مع وجود استثناءات قليلة، في اللَّحظة الأخيرة من هذه الرِّحلة. يقول كامو إنَّ كيركغارد كان أوَّل من طَرَفَت عيناه عندما واجَهَ النَّظرة الباردة والخالية من المعنى للعَبَث. إنَّ مفهوم «قفزة الإيمان» عند هذا الفيلسوف الدانماركي، بعيداً عن كونها عملاً بطوليًّا يتميَّز بالوضوح والمنطقيَّة، يرقى إلى مفهوم الانتحار الفلسفي. فبدلاً من القَفز نحوَ عالمٍ محكومٍ بالعَبَث، يتقهقر كيركغارد إلى الإله، الذي يُضفي عليه صفات العبث: **غير عادل، غير مترابط، وغير مفهوم**[١٠]. ويقول كيركغارد معترفاً، إنَّ وجود إلهٍ عبثيٍّ أفضل من فراغ لا يمكن سَبرَ أغواره.

وكما كان الحال مع مفكِّر مسيحيٍّ سابق، بليز باسكال، الذي كان مشهوراً بخوفه من «**صمْت هذا الفراغ اللامتناهي**»، كان كيركغارد يشعر بالرُّعب من مجرَّد احتمال حياة تقوم على العبث. لكنَّ كامو يُصِرُّ على أنَّ، بالنسبة إلى الإنسان العبثي، «**فالبحث عن ما هو حقيقي، لا يعني البحث عن ما هو مرغوبٌ فيه**»[١١]. ولكنَّنا لا يجب أن نَكُفَّ عن الاستكشاف، كما يؤكِّد كامو، إلَّا للإصغاء إلى صمْت العالم بحدَّة أكبر. في الواقع، يصبح هذا الصَّمْت مسموعاً عندما يدخل البشر في المعادَلة. إذا كان «**يرغب الصَّمْت بإسماع صوته، فذلك لأنَّ هؤلاء الذين يمكنهم سماعه**

يطالبون بذلك حتماً» [١٢]. وإذا استمرَّ الصَّمْت، فأين نَجِد المعنى؟ ما الذي يجب أن نفعله إذا لم نعثر على المعنى؟ هل يمكننا أن نعيش حياتنا بدون طمأنينة - بمجرَّد أن يوفِّرها الدين - المُبَرِّرات المُتعالية للعالم وقاطنيه؟

ويخلُص كامو إلى أنَّ المسألة هي «**معرفة ما إذا كان من الممكن العيش بدون إمكانيَّة للاستئناف**» [١٣].

*****

يظهر مفهوم العبث لأول مرَّة، كطَريدة فلسفيَّة وأدبيَّة، في مجلَّة كامو في أيار/ مايو ١٩٣٦، أي في الشَّهر نفسه الذي دافع فيه عن أطروحته حول الأفلاطونيَّة الجديدة في جامعة الجزائر «**عَمَلٌ فلسفيٌّ: العَبَث**»، حيث كَرَّسَ نفسه كجزء من خطَّته للدراسة والكتابة[١٤]. وبعد ذلك بعامين، في حزيران/ يونيو ١٩٣٨، يظهر العبث مرةً أخرى في قائمة جدول مهماته، ثمَّ مرَّةً ثالثة في نهاية العام نفسه. وعلى الرَّغم من أنَّ كامو كان ما يزال في مرحلة البحث والتأمُّل، كان قد قرَّر بالفعل أن يقترب من هذا الموضوع من خلال ثلاثة جوانب مختلفة، وفي آنٍ واحد: **كروائيٍّ، وككاتبٍ مسرحيٍّ، وككاتبِ مقال**. كان قد بدأ العمل على مسرحيَّته «**كاليجولا**» عام ١٩٣٨، مع أنَّه لم يتمَّ عَرضها حتَّى عام ١٩٤٥. أمَّا بالنِّسبة لرواية «**الغريب**»، فقد أتمَّ كامو مُسَوَّدتها قبل أيام فقط من اختراق قوَّات الغَزو الألماني غابات الأردين في أيار/ مايو ١٩٤٠. وفي ذلك الوقت، عندما كانت فرنسا تبدو صامدة وآمنة

على الأقل، إن لم تكن منيعة، وَصَلَ كامو إلى ما وصفه لمعلِّمه السابق جان غرينييه على أنَّه: «**مقالةُ في العبث**».[١١٥١]

وخلال الفترة نفسها، اكتشف كامو كاتباً فرنسيًّا آخر كان لا يزال مغموراً، وكان يتصارع مع العَبَث. في عام ١٩٣٨، استأجر الصَّحفي المُخَضرَم باسكال بيا، الذي أسَّس صحيفة مستقلَّة، Alger républicain، كامو للعمل في صحيفته. وبالنَّظر إلى الوضع المالي غير المستقرِّ للصَّحيفة، وجد كامو نفسه بسرعة يقوم بمهمات عدَّة، بما في ذلك كمُراجعٍ للكتب. وسرعان ما لَفَتَ انتباهه كتابان صغيران من تأليف جان بول سارتر: «**الجدار**» و«**الغثيان**». وَصَفَ سارتر في هذين العملين الرائعين عالماً غارقاً في محيط الصُّدفة البحتة. عالمٌ عالقٌ داخل تيَّارٍ جارفٍ من الأحداث التي تفتقر لأيِّ مُبَرِّرٍ نهائيٍّ أو خارجيٍّ لها، لهذا يغالبنا شعورٌ غامرٌ بالغثيان. ما هي الاستجابة الأخرى التي يمكن أن نشعر بها إزاء اكتشافنا للأحداث؟، ما أن نُضفِيَ عليها المعنى، هي أنَّها، في الحقيقة، مجرَّد أحداثٍ تعسُّفيَّة واعتباطيَّة، وأنَّ أفعالنا، بمجرَّد تغليفها بالقَصديَّة، ما هي إلا أفعال ميكانيكيَّة فقط؛ وأنَّ العالم، الذي كان موطننا وملجَأنا منذ قليل، باتَ عالماً غريباً وموحِشاً بكلِّ بساطة.

ومع ذلك، على الرَّغم من أنَّ القصَّتين كانتا مُقنِعَتين، إلا أنَّ كامو خَلُصَ إلى أنَّهما لم تقدِّما لنا سوى نوع من الأنانوية الوجوديَّة. من المؤكَّد أنَّ «**العالم الكثيف والدرامي**» الذي يروي الأحداث في رواية «**الجدار**» كان مُدهِشاً وصادِماً، ولكن ماذا سنستفيد من

شخصيَّات غير قادرة على فعل أيِّ شيء له معنى مع حريتها؟ وبالمثل، في رواية «**الغثيان**»، تعجَّب كامو من تصوير سارتر للكثافة الثَّقيلة والغاشمة للعالَم، لكنَّه أصَرَّ على أنَّه من الخطأ الاستنتاج بأنَّ «**الحياة مأساويَّة لأنَّها بائسة**». وبدلاً من ذلك، يكمن شعورنا المأساوي بالحياة في الطَّبيعة «**الغامرة والجميلة**» للعالم ـ فبدون الجمال، بدون الحب، وبدون الخطر «**ستكون الحياة سَهلةً للغاية**». ومن عِزِّ صباه، أكَّد كامو:

«إنَّ ملاحظتنا بأنَّ الحياة عبثيَّة لا يمكن أن تكون النهاية، ولكنَّها مجرَّد بداية. ... ما يهمُّني هو ليس اكتشاف [السِّمَة العبثيَّة للحياة]، بل نتائج وقواعد العمل التي يجب أن نستخلصها منها». [١٦]

على الرغم من حَداثة سنِّه، كان كامو مُخَضرَماً في العبث. فعندما كان طفلاً صغيراً، فقد والده في خِضَمِّ الفوضى العبثيَّة في معركة المارن. وعندما كان مراهقاً رياضيًّا، سَعَلَ دماً في أحد الأيام، واكتشف أنَّه مصابٌ بالسُّلِّ. كما أنَّه اكتشف، عندما كان يعمل مراسِلاً لصحيفة Alger républicain، فيما وراء القيم العالميَّة للحرِّيَّة والمساواة في الجمهوريَّة الفرنسيَّة، الواقع القاتم للسُّكَّان العرب والأمازيغ الذين يعيشون تحت الإدارة الاستعماريَّة الفرنسيَّة. وكَمُحَرِّرٍ للصَّحيفة، قام بالوقوف ضدَّ عبثيَّة الحرب العالميَّة التي أصَرَّ ـ بوصفه رافضاً مُلتزماً للعنف ـ بطريقة غير واقعيَّة على أنَّه كان بالإمكان تجنُّبها. وباعتباره أحد المُسالمين المَعفوِّين من مذكَّرة التَّجنيد بسبب مَرَض السُّلِّ، حاول كامو جاهداً إدراج اسمه فيها:

«لم تتوقَّف هذه الحرب عن كونها عبثيَّة، لكن لا يمكن للمرء الانسحاب من اللُّعبة لأنَّها قد تكلِّفك حياتك».[١٧]

وبكلمة واحدة، نشأ كامو على الدَّروس التي يمكن استخلاصها من عالمٍ يحكمه العبث. ولم يتشارك قناعاته هذه مع قرَّائه فقط بل مع خطيبته أيضاً، فرانسين فاور. (كان الزَّوجان ينتظران وضع اللمسات الأخيرة على الطَّلاق بين كامو وزوجته سيمون هاي، وكانت امرأة ساحرة ومغرية، لكنَّ إدمانها على المخدِّرات هزم جهود كامو الحثيثة لعلاجها). أخبر كامو فرانسين أنَّ معظم الناس يرون الحرب عبثيَّة، لكنَّ هذا لا يدلُّ على أيِّ شيء على الإطلاق، حيث أنَّهم يمضون بعد ذلك إلى الحياة التي اعتادوا عليها دوماً. لكن ما أثار اهتمامه كان العواقب الأخلاقيَّة لرؤيته هذه:

«ما أريد الوصول إليه هو طريقة تفكير إنسانيَّة، رؤية واضحة ومتواضعة، نوعٌ محدَّدٌ من السُّلوك الشَّخصي الذي ستواجه فيه الحياة كما هي، وليس مع أحلام يقظة».[١٨]

وفي نهاية المطاف، كان إصرار كامو على العواقب هو ما أدَّى إلى إغلاق الصَّحيفة عام ١٩٤٠. فقد كان مَكروهاً من قبل السُّلطات المَحليَّة بسبب هجماته التي لا هوادة فيها على معاملتهم للسُّكَّان العرب والأمازيغ، وضاعف كامو من حِدَة انتقاداته بعد أن أعلنت فرنسا الحرب في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩. فلأنَّه لم تَكُن لديه أوهامٌ حول ألمانيا الهتلريَّة، «**الدَّولة البهيميَّة التي لا تساوي**

فيها حياة الإنسان أيَّ قيمة»، رفض كامو أيضاً تغذية الأوهام حول نزاهة قادة فرنسا وصدقهم.[١٩] فكانت لديه قناعة بأنَّ هؤلاء الذين لا حول لهم ولا قوَّة ـ العمَّال، والفلَّاحين، والتُّجَّار الصِّغار، والكَتَبَة ـ سيَدفعون ثمن هذا المَسير إلى الحرب مثلما فعل والده عام ١٩١٤. (فلم يكن قد فهم بعد أنَّ الضُّعفاء في فرنسا وفي باقي أنحاء العالم، كانوا سيدفعون الثَّمن حتى إن لم يُدفَع النَّازيُّون بالوسائل العسكريَّة). وكان جهاز الرِّقابة، مع عَزمه على الحفاظ على الروح المعنويَّة العامَّة، قد قام بقَمع الكثير من الأعمدة والزَّوايا النَّاشئة على الصَّفحة الأولى للصَّحيفة. أمَّا كامو، الذي كانت لديه النيَّة للالتفاف على الرِّقابة وخِداعها، فقد أعاد طبع مقاطع من الأعمال الأدبيَّة الكلاسيكيَّة، كمدخل فولتير عن «**الحرب**» من قاموسه الفلسفيِّ، لسَدِّ الثَّغرات. ومع ذلك، لَم تَنجُ حتَّى هذه المقاطع من مقصَّات الرِّقابة والمسؤولين.

وفي تشرين الثاني / نوفمبر، أعلن كامو في صحيفته:

«افْهَم هذا: يمكننا أن نَيأس من معنى الحياة بشكلٍ عام، لكن ليس من الأشكال الخاصَّة التي يمكن أن يتَّخذها المعنى؛ يمكننا أن نَيأس من الوجود، لأنَّنا لا نملك القوَّة حيال ذلك، ولكن ليس من التَّاريخ، إذ يمكن للفرد أن يفعل كل شيء. إنَّ الأفراد هم الذين يقتلوننا اليوم. لماذا لا ينجح الأفراد في منح السَّلام العالمي؟ كلُّ ما علينا فعله هو أن نبدأ ببساطة دون التَّفكير في أهداف عظمى كهذه.[٢٠]

والعقيدة نفسها ـ التي لم تعبِّر فقط عن نفاد صبر كامو من السَّلبيَّة التي تنطوي عليها النَّظرة الوجوديَّة للعالم، بل عَكَسَت أيضاً أخلاقه المهنيَّة الصَّارمة ـ ظهرت باللحظة نفسها في الصَّفحة الأولى من الصَّحيفة. تحت عنوان: «موقفنا». سعى باسكال بيا، رئيس التَّحرير، ومعه كامو ليشرحا لقرَّائهما سبب ازدياد المساحات البيضاء ضمن عدد من الصَّفحات التي قلَّت أعدادها في الصَّحيفة. لقد استنكرا في البداية وجود الرِّقابة ذاتها، ورفضا «**السَّفسطة القائلة إنَّه يجب قمع حرِّيَّة الأمَّة من أجل الحفاظ على معنويَّاتها**». ثم أكَّدا «**على الحَقِّ في الدِّفاع عن تلك الحَقائق الإنسانيَّة التي تتراجع يوماً بعد يوم أمام المُعاناة وتطمح إلى السَّعادة... فالصَّالحون يرفضون اليأس، ويرغبون بدلاً من ذلك في الحفاظ على تلك القِيَم التي تمنَعنا من الانتحار بشكلٍ جماعيٍّ**».[٢١]

*****

وقد اتَّضح فيما بعد أنَّ صَرخة المُحَرِّرَيْنِ لم تلقَ سوى آذان صَمَّاء. وخلال أقلَّ من شهرين بعد ذلك، أغلَقَت السُّلطات الصَّحيفة، وأضحى كامو عاطِلاً عن العمل.

وبفضل بيا، الذي كانت له علاقات وصِلات وثيقة في باريس، سرعان ما وجد كامو له مكاناً في أواخر شهر مارس/ آذار عام ١٩٤٠ في صحيفة «**باريس سوار**» اليوميَّة الضَّخمة، التي يملكها الزَّعيم الصِّناعي جان بروفوس. شعر كامو بالاستياء في هذه

العاصمة الرَّماديَّة والرَّديئة، وانتابَه الاشمئزاز من الأسلوب المقنَّن للصَّحيفة. وكتب كامو قائلاً:

«لقد كانت صحيفة باريس سوار متعفِّنة بالعاطفة، والجمال، والانغماس بالذَّات، وجميع المراجع اللاصقة التي يستخدمها المرء للدِّفاع عن نفسه في مدينة قاسية للغاية».

كما أصَرَّ على أنَّ من الأفضل بكثير مواجهة الواقع الكئيب الذي حَجَبَتْه هذه الاستراتيجيَّات الجبانة - وهي حقيقة ظهرت من خلال الحياة التي قضاها في الفندق الشَّنيع الذي استأجر فيه غرفة. وذات يوم، قامت إحدى الزَّميلات المُقيمات في الفندق بقتل نفسها بالقفز من نافذة الطَّابق الثَّالث إلى الفِناء. كان عمرها أكثر من ثلاثين سنة: «**كبيرة بما يكفي للعيش، وبما أنَّها عاشت لفترة قصيرة، فهي كبيرة لتموت**». وانتهى أمرها «**مع شَقٍّ بحجم ثلاث بوصات بجبينها. وقبل أن تموت، قالت: وأخيرًا**». [٢٢]

نعم، وأخيراً: كانت فرنسا، في حربٍ لكنَّها لم تَكُن تحارب، مستعدَّةً للتَّعبير عن هذه الكلمة نفسها في نهاية آذار/ مارس ١٩٤٠. كانت البلاد في حالة حربٍ مع ألمانيا لأكثر من نصف عام، لكنَّها كانت نوعاً غريباً من الحروب، حربٌ مضحكةٌ بالطبع، بالكاد أطلَقَت خلالها الدَّولتان النَّار على بعضهما. كان الأطفال يذهبون إلى مدارسهم وهم يحملون حقائب مدرسيَّة مُعَلَّقة في ظهورهم، وكانت الطاولات ممتلئة في المطاعم والمقاهي، وتحوَّلت النَّوادي الليليَّة والمَسارح إلى منازل مكتظَّة. وفي حين كانت أوبرا

باريس تتدَّرب على العرض الأول لفيلم Dereus Milhaud's Médée، كان الباريسيُّون يُدندنون الأغنية الشَّعبيَّة الشَّهيرة «On Ira pendre notre linge sur la ligne Siegfried» (سنعلِّق غسيلنا على خط سيغفريد). وفي هذه الأثناء، أصدر الممثِّل والمُغَنِّي موريس شوفالييه أغنية ناجحة بعنوان Paris Reste Paris (باريس لا تزال في باريس) مع أغنية أخرى (إنَّها تجعل الشَّعب الفرنسي ممتازاً) Ca fait d'excellents français. وبالطبع، كان هؤلاء الفرنسيُّون الممتازون الذين أشاد بهم شوفالييه ـ المصرفيُّون والخبَّازون والشِّيوعيُّون والمحافظون والفلَّاحون والباريسيُّون ـ الذين بدوا الآن متَّحدين ضدَّ ألمانيا، كانوا قبل أشهر فقط يمسكون بحناجر بعضهم بعضًا. انقسم الرَّأي العام حول ما إذا كان شوفالييه، بابتسامته التِّجاريَّة، يتكلَّم عنهم بإِخْلَاص أم بسخرية.[٢٣]

وظلَّ السُّؤال نفسه مُحَلِّقاً فوق الصُّحف. فخلال شتاء وبدايات ربيع عام ١٩٤٠، روَّجَت الصَّفحات الأولى عن ثبات الزُّعماء السَّياسيِّين الفرنسيِّين، وتألُّقِ قادَة فرنسا العسكريين وحِنكتهم القتاليَّة، وشجاعة الجنود، بينما عَكَسَ التَّواترُ المُتزايدُ للأعمدة الفارغة تصميم المُراقبين الحكوميين على دَفن وإقصاء أي تقارير تتعارض مع هذه التَّصريحات. تمَّ تصوير الانتصارات العسكريَّة الألمانيَّة، كاجتياح النَّرويج خلال فصل الشِّتاء الماضي، كجزء من خطَّة فرنسا الاستراتيجيَّة، في حين أنَّ انعدام الحركة على الجبهة الشَّرقيَّة كان يُعزى إلى وجود خَطِّ ماجينو المنيع. كانت العناوين

التي اقترحتها وزارة الإعلام المُعَيَّنَة حديثاً ـ عناوين مثل «**سَنَفوز لأنَّنا الأقوى**» ـ تُخفي افتقار الحكومة المُرَوِّع للخيال الاستراتيجي، وقمعها للمعلومات.[٢٤]

*****

تراجَعَت العبثيَّات الهَزليَّة للحَرب الزائفة فجأةً، وفَتَحَت المَجال بعنفٍ أمام عبثيَّات ذات حجمٍ مختلفٍ جذريًّا. ففي منتصف شهر أيَّار/ مايو، شَنَّت القيادة العسكريَّة الألمانيَّة هجوماً مُدَرَّعاً عبر محورين، أحدهما كان اجتياحاً من جهة الغرب عبر هولندا وبلجيكا، والثاني اختراق أدغال آردن، الغابة التي تحدُّ خطَّ ماجينو الذي أصَرَّ القادَة العسكريُّون الفرنسيُّون على منعَته وصموده وعَدَم إمكانيَّة اختراقه. وبعد ذلك بثلاثة أيَّام، دَخَلت فرقة من مُجَنزرات البانزر مدينة سيدان الشَّماليَّة، حيث دفعت نحو الجنوب أوَّل موجة نزوح جماعي لما باتَ يُعرَف بأكبر نزوح غير مَسبوق في تاريخ البشريَّة.

وهكذا بدأ «الخروج» كما أشار أحد الكُتَّاب المُعاصرين:

«لا يمكن سوى لتجربة من الكتاب المقدَّس أن تَصِفَ هذا النُّزوح البشريَّ؛ هذا الانتقال الكبير من جزءٍ من البلد إلى جزءٍ آخر. إنَّه يشير إلى عودة الفوضى التي سادت خلال الأزمنة الماضية، والبَراري التَّاريخيَّة التي جابَت بنات آوى أرجاءها».[٢٥]

بحلول أوائل شهر حزيران/ يونيو، تدَفَّقَ أكثر من نحو ستَّة ملايين رجل وامرأة وطفل من بلجيكا وشمال فرنسا وباريس نحو الجنوب الفرنسي. ومع أنَّ كلمة «تَدَفَّقَ» قد تبدو مُضَلِّلَة، إلى أنَّ كلمة «تَجَمَّدَ» تصف بدقَّةٍ أكبر الخطوط الكثيفة والمُتراصَّة للمدنيِّين، التي انضَمَّ إليها عددٌ مُتَزايدٌ من الجنود، الذين أخذوا يتزاحَمون ويتدافعون ضدَّ بعضهم في السَّيارات، والعَرَبات التي تجرُّها الخيل، والدَّرَّاجات الهوائيَّة. عندما كان الوقود يَنفَد منَ المُحَرِّكات أو الهواء من الإطارات، كان أصحابها يهجرونها على جانبي الطَّريق، وينضمُّون إلى قافلة الغالبيَّة من اللاجئين النَّازحين الذين حُكِمَ عليهم بالفَرار سيراً على الأقدام. هذا السَّيل العظيم من البشر لَم يَكُن ضحيَّة فقط لقصف قاذفات القنابل شتوكا، ولكن بسبب الانهيار التَّام للسُّلطة المدنيَّة أيضاً. بالطبع عندما قَرَّرت الحكومة الفرنسيَّة، بعد أسابيع مِنَ التَّرَدُّد، في ٩ حزيران / يونيو، إخلاء مدينة باريس، كان وجودها قد تَبَخَّرَ إلى حَدٍّ كبيرٍ في معظم أنحاء البلد. وبينما انتقلت الحكومة من بوردو إلى كليرمونت-فيران إلى فيتشي، انهارت خطوط الاتصال وبقيَ الممثِّلون المَحَلِّيُّون حَيارى دون أيَّة فكرة عن ما يجري. لقد انهارَ نَمَط الحياة اليوميَّة في فرنسا الجمهوريَّة فجأةً.

ومع ذلك، ظلَّت سلسلة القيادة في صحيفة باريس-سوار سليمة. وببصيرة أعلى وأكبر من بصيرة وتخطيط القيادة الفرنسيَّة العُليا، قام بروفوست قبل أسابيع بتمشيط البلاد طولاً وعرضاً عن مواقع، حيث يمكن لصحيفته متابعة النَّشر في حال تَعَرَّضت

باريس للتَّهديد أو الغَزو. وقد وَقَع اختياره على كليرمونت-فيران، عاصمة إقليم أوفرن وسط فرنسا. لم تَكُن هذه المدينة بعيدة عن الجبهة فحسب، بل كانت مَركزاً لصحيفة «**لومونيتور**»، التي وافق مُحَرِّرها بيير لافال على مشاركة مطبوعات أعداده مع بروفوست. وفي ١١ حزيران / يونيو، ظهرت «**باريس-سوار**» للمرَّة الأخيرة في باريس، وقام الموظَّفون المتبقُّون، ومن بينهم كامو، بحَزم حقائبهم بسرعة والانضمام للنُّزوح.

وبحلول ذلك الوقت، سمع الباريسيُّون صدى نيران المدفعيَّة في الشَّمال، واشتمُّوا روائح احتراق احتياطي البترول في الغرب، لكنَّهم لم يتمكَّنوا من العثور على أيِّ مسؤولين في أيِّ مكان للإشراف على عمليَّة الإخلاء. وقد ملأت بسرعة الشائعات والارتباك والخوف الفَراغ الذي خلَّفته الحكومة. توجَّه كامو جنوباً يقود إحدى سيَّارات صحيفة «**باريس-سوار**» إلى كليرمونت-فيران برفقة مُراجِع يجلس بجانبه، ومُحَرِّر في المقعد الخلفي. وعندما انعَطَفَت السيَّارة أخيراً إلى كليرمونت-فيران في الليلة التالية، كان خَزَّان الوقود فارغاً، والدُّخان ينبعث من تحت غطاء المحرِّك، قَفَز كامو من مقعده، وهَرَعَ إلى الصُّندوق، فَتَحَه عنوةً ثمَّ تَنَهَّدَ بارتياح: كانت حقيبته مليئة بمخطوطاته التي كانت لا تزال سليمة.

*****

لاحظ كامو أنَّ:

«العَبَث هو تجربة يجب أن نعيشها ونجرِّبها، نقطة انطلاق، يعادل، في وجوده، شكَّ ديكارت المنهَجيَّ.[٢٦]

إنَّ روايته «**الغريب**»، إحدى المخطوطات التي كانت داخل حقيبته، تعيد صياغة تلك التَّجربة ذاتها. ولكنَّ كامو لَم يتبع ديكارت، الذي انسَحَبَ إلى غرفة ساخنة في ألمانيا المُغَطَّاة بالثلوج لمواجَهَة شيطان الشَّكِّ. وبدلاً من ذلك، أرسل بطل روايته، ميرسو، إلى شواطئ الجزائر المُشمسَة لمواجهة صمْت العالَم. مع أنَّ العديد من القُرَّاء يعرفون القصَّة بالفعل ـ ففي النهاية، تظلُّ رواية «**الغريب**»، بعد مرور أكثر من سبعين عاماً على نشرها سنة ١٩٤٢، إحدى أكثر الكتب مبيعاً في غاليمار ـ لكنَّها لا تزال تُزَعزِعُ توقُّعاتنا.[٢٧]

وبلغةٍ بيِّنَةٍ كشارعٍ تحت شمس منتصف الظَّهيرة في الجزائر، يخلق كامو شخصيَّة تخلو حياتها من الطَّيف الذي تمنحه عمليَّة التَّأمُّل الذَّاتي للإنسان. عائقٌ غير قادرٍ على الحب، وابنٌ غير قادرٍ على الحِداد على والدته، وقاتلٌ يبحثُ عن أيِّ دافعٍ لجريمته، يعيش ميرسو بدون تفكيرٍ بالماضي أو المستقبل، لكنَّه بدلاً من ذلك ينزلق عبر تيَّارٍ لا نهاية له من لحظاتِ الحاضر. وفي نهاية عطلة الأسبوع التي قضاها مُسافراً إلى دار الرِّعاية حيث توفِّيت والدته، وبعد ممارسة الجنس مع امرأة كان قد التقى بها على الشاطئ، يجلس ميرسو في كرسيِّه على شُرفته المطلَّة على الشَّارع الرئيس في حيِّه. من الظُّهر حتى العشاء، كان يُدَخِّن وهو يُقَلِّب ناظريه بين المارَّة في الشَّارع والسَّماء. هذه اللوحة المتغيِّرة لا تثير لديه لا الذِّكريات

ولا الآمال، ولكنَّها بالكاد ترتقي فوق تجربة الوصف. مع حلول الليل وبرودة الهواء المُنعش، يغلق ميرسو النَّوافذ ويعود إلى غرفته:

«نظرتُ في المرآة ورأيتُ ركناً من طاولتي مع مصباح الكحول بجوار بعض فُتات الخبز. خَطَرَ لي أنَّ يوم أحدٍ آخر قد شارف على نهايته على أي حال، وأنَّ أمِّي مَدفونةٌ الآن، وأنَّني عائدٌ إلى عملي، وأنَّ شيئاً لم يتغيَّر في الواقع». [٢٨]

ومع ارتباط الحياة دائماً بالزَّمن الحاضر بحيث لا يبقى هناك مكانٌ لأفعال سابقة أو لاحقة، لا شيء يتغيَّر. أو، بشكلٍ أدَقَّ، لا نرى التغيير إلا مع الانعكاس. علاوة على ذلك، مع التغيير فقط نرى انعكاسنا الخاص. عندما ألقى ميرسو نَظرَةً على انعكاسه في المرآة، لم يَرَ نفسه ـ وهو مُحِقٌّ في ذلك، إذ لا يوجد حتى الآن ما يمكن رؤيته. هذه هي المفارقة التي يُكسيها ميرسو لَحماً: بالنِّسبة له، لا تُعاش الحياة إلا في هذه اللحظة ـ اللحظة التي تُسَجِّل فيها أجسامنا الأحاسيس التي تجتاحها ـ فهي الوحيدة ذات معنى. ومع أنَّه لا يُبالي بالماضي ولا بالمستقبل، فهو غير قادرٍ على استيعاب أي معنى لوجوده. فعندما تسأله الفتاة التي مارس الجنس معها، ماري، إن كان يحبُّها، يردُّ ميرسو بأنَّ السُّؤال «**لا يعني أي شيء، لكنَّني لا أعتقد ذلك**». [٢٩] ولا أهميَّة حتَّى بالنِّسبة لموت العربي، كلُّ ما يعرفه ميرسو هو أنَّه، عندما سحب زناد مسدَّسه في يوم مُشمِسٍ، فقد حَطَّمَ: «**الصَّمْت الاستثنائي للشاطئ، حيث كنتُ سعيداً**». [٣٠]

بالطبع، لا يمكن إلا لكائنٍ مفكِّرٍ يُدركُ انعكاسه أن يَدَّعي أنَّه كان سعيداً ذات مَرَّة. إنَّ محاكمة ميرسو وسَجنه ـ الأحداث القاتلة التي دفعته لوعي ذاته ـ تشبه تصوير جان جاك روسو لإنسانه الهمجي l'homme sauvage، أو الإنسان البدائي، الطَّبيعي، الذي يجد نفسه مُقَدَّراً عليه السُّقوط في المجتمع. مثل كامو، وهو متحدِّثٌ فرنسيٌّ لم يشعر قطُّ بأنَّه في موطنه بفرنسا، ورجلٌ كانت حياته مُمَزَّقة بالكامل بين التَّجاذبات المُتعارضة للعُزلَة والتَّضامن، لأكَّدَ روسو المولود في جنيف أنَّ الإنسان في حالته الطَّبيعيَّة كان أسعد الكائنات لأنَّه كان، ببساطة، أغبى الحيوانات. إنَّه كائنٌ:

«روحه، التي لا يُحَرِّكها شيء، يتنازل عن الشعور الوحيد بوجوده الحاضر بدون أيَّة فكرةٍ عن المستقبل، مهما كان قريباً، ومشاريعه، مَحدودةٌ كمحدوديَّة آرائه ووجهات نظره، بالكاد تمتدُّ حتَّى نهاية يومه». [٣١]

وفي حين أنَّ السِّجن، بالنِّسبة إلى روسو، يرمزُ إلى مجتمعٍ يقمعُ ويخنقُ طبيعتنا ويقيِّد احتياجاتنا، لأنَّ سجن ميرسو عبارةٌ عن حديدٍ وحجارة، وبعد حَبسه، يبدأ ميرسو في تحويل حياته إلى قصَّة، حيث يلعب هو الدَّور الرَّئيس فيها. وعندها فقط يتذكَّر **«وقتاً معيَّناً كنتُ فيه سعيداً»**، ويحاول الهرب من كلّ ما مَرَّ به من قبل، دون وعيٍ منه ولكن عن قصد، من تجربته ـ أي زمن الحاضر الذي لا ينتهي، مُدَّعياً أنَّ:

«كلمات مثل البارحة وغداً ما زالت لا تنطوي على أيِّ معنى بالنِّسبة لي».[٣٢]

*****

لَم تَكُن حياته السابقة عبثيَّة أكثر من حياة رجُلِ روسو الطَّبيعي. فالعَبَث يدخل حياتنا فقط عندما يُغلَقُ باب السجن علينا ـ أو عندما نقيس من مُرتَفَعات المجتمع المَدَى الذي وَصَلنا إليه من الهبوط.

وقبل أسابيع فقط من «**الخروج**»، كان كامو يتصارع مع المخطوطة التي ستصبح فيما بعد تحمل عنوان «**أسطورة سيزيف**». كتب كامو إلى فرانسين من باريس، مُعتَرِفاً بقلقه من محاولته تدوين أفكاره وملاحظاته ضمن مقال:

«أنا خائفٌ من كَم الجهد والاهتمام الذي يتطلَّبه ذلك. أنا غارقٌ بملاحظاتي ووجهات نظري».

وأصبحت الملاحظات أقلَّ أهمِّيَّة مع زيادة أهمِّيَّة وجهات النَّظر التي باتَ بريقها يُعمي الأبصار. ومع أنَّ كامو لا يقدِّم سوى إشارات تاريخيَّة أو سياسيَّة مُحَدَّدَة وصريحة، إلا أنَّ مقاله يُرَدِّدُ صدى دَوِيِّ الكارثة التي حَلَّت بأوروبا. ونتيجة لذلك، سرعان ما تَحَوَّلَ المقال الذي بدأه كامو أوَّلاً كَمَسارٍ عاطفيٍ فكريٍّ خاصٍ به إلى بَحثٍ مُعَمَّقٍ وعنيدٍ عن معنى في عالَمٍ انهارت فيه قِيَمُهُ وتوقُّعاتُه تماماً.

وتحوَّلت صحيفة كليرمونت-فيران السَّمِجة، وبشكلٍ غير متوقَّعٍ، إلى ساحَةٍ مُلائِمَةٍ للعَمَل على المقال. وقد صَرَّحَ كامو في رسالةٍ إلى أحد الأصدقاء:

«هذه المدينة لها مَظهَرٌ يَبعَثُ على الغثيان».[٣٣]

وقد غَمَر كامو أيضاً نوعٌ مختلفٌ مِنَ الغثيان، ليس ذلك النَّوع الذي تُثيره عَرَضيَّة الحياة وعبثيَّتها، بل بالأحرى سياسات الحكومة التي وَصَلَت إلى كليرمونت تحت رعاية المارشال فيليب بيتان. وفي رسالةٍ له إلى فرانسين، أفضى لها كامو بهجومه:

«الجبنُ والخَرَفُ والعَجزُ هو كلُّ ما يقدِّمونه. سياسات مؤيِّدَة لألمانيا، ودستورٌ على غرار دساتير الأنظمة الاستبداديَّة، وخوفٌ كبيرٌ مِن ثورةٍ لَن تَندَلِع: وكلُّ ذلك من أجل الخُنوع لعَدُوٍّ قد أخضَعَنَا وسَحَقنا فعلاً، والحفاظ على امتيازات تافِهَة وغير مُهَدِّدَة أصلاً».[٣٤]

وبالنَّظر إلى الزُّعماء السِّياسيِّين والمُتَشَبِّثين بالسُّلطة ومَن دار حولهم، شَعَرَ كامو كأنَّه يختنق. وعندما كَشَفَ النِّظام الجديد عن طابعه المُعادي للسَّاميَّة، طَرَدَت صحيفة باريس-سوار كلَّ موظَّفيها مِنَ اليَهود. أخبَرَ كامو، فرانسين، مُنزَعِجاً بأنَّ أيَّ وظيفة مهما كانت في الجزائر، حتَّى لو كانت في مَزرعة، ستكون أفضل بكثير من العمل بباريس-سوار. وبطبيعة الحال، بَدَت الجزائر الآن بالنِّسبة له المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه حُرًّا، ويقول عنه إنَّه «**فرنسيٌّ**» حقًّا.

وفي الوقت الحالي، مع ذلك، بقيَ كامو في كليرمونت-فيران. مُكَرِّساً جهده ووقته واهتمامه لكتاباته، وأعادَ تسمية ما أطلَقَ عليه سابقاً عنوان «**مقالٌ في العَبَث**». لقد وَضَعَ له عنواناً مناسباً: أسطورةُ سيزيف»، مع أنَّ الصَّفحات الأربع الأخيرة فقط من المقال هي التي تناولت الأسطورة.

يقول كامو إنَّ العَبَث ابن التَّفاوت. إنَّه يرتفع أمامنا عندما تَقفُ توقُّعاتنا قاصِرَةً أمام الواقع. من أبسَط حالَة إلى أكثر الحالات تعقيداً، يكتب قائلاً: «**إنَّ مقدارَ العَبَث سيتناسب مباشرةً مع المسافة بين مصطلحين في مقارنتي**». وكمثالٍ على المصطلحات التي يقارن بينها يقترح علينا بعضاً منها: الزَّواج والعَقَبات، الخصومَة والصَّمْت، الحروب ومُعاهدات السَّلام.[٣٥]

عند قراءة هذه السُّطور، قد يعتقد أصدقاءُ كامو المقرَّبون بأنَّه يتحدَّث عن زواجه البائِس بسيمون هاي، ورئتيه اللتين أضعَفَهما مَرَض السُّلِّ، والصِّراعات الطَّبقيَّة التي غَطَّاها في أثناء عمله مُراسلاً في الجزائر، وصمْت أمِّهِ الذي اضطرَّ لتحمُّله والتَّعامل معه طوال حياته. أو قد يتذكَّرون تجربة كامو في العمل بمتجرٍ للخردوات خلال عطلة الصَّيف، وقضاء أيَّامٍ طويلةٍ مُنخرِطاً «**في عَمَلٍ يأتي مِنَ العَدَم ولا يُفضي إلى أيِّ مكان... مُنتَظِراً الأمر الذي سيجعله يقوم ببعض الأعمال العبثيَّة المُتَسَرِّعَة والسخيفة: بروفا في العبثيَّة السيزيفيَّة**». وكانت أيضاً جهوده البائسة والفاشلة كصبيٍّ لترجمة الأفلام الصَّامتة بسرعة حتَّى يتسنَّى لجدَّته مواكبة الفيلم، ولكن بهدوءٍ وصوتٍ خَفيضٍ حتَّى لا يُزعِج المشاهدين الآخرين.[٣٦]

بالنِّسبة لهؤلاء الذين لَم يعرفوا كامو، لكنَّهم كانوا يعرفون الحرب ومُعاهداتها، كانوا يشعرون بالعبثيَّة تمُدُّ أذرعها الأخطبوطيَّة في قلوبهم. على الرَّغم من وجود فصلٍ واحدٍ فقط في دفتر ملاحظات كامو يتناول مسألة النُّزوح الجماعي، إلا أنَّ تجربة فرنسا عام ١٩٤٠ تَطغى على المقال. يعتقد كامو أنَّ هذه الحقيقة في غاية الأهمِّيَّة بما يكفي للتأكيد عليها عند نشر الطَّبعة الأمريكيَّة من كتابه «**أسطورة سيزيف**» سنة ١٩٥٥. في مقدِّمته، طَلَبَ من قرَّائِهِ التَّساهُلَ والفَهمَ. فالكتاب، يقول كامو مُذَكِّراً إيّاهُم، «كُتِبَ قبل خمسة عَشَرَ عاماً، سنة ١٩٤٠، في خِضَمِّ الكارثة الفرنسيَّة والأوروبيَّة».[٣٧]

كانت هزيمة فرنسا بمثابة انفصالٍ عنيفٍ بين أمَّةٍ ومؤسَّساتها. لَم تَكُن موارد فرنسا المادِّيَّة والعسكريَّة أدنى بكثيرٍ من موارد ألمانيا: في بعض الحالات كانت متفوِّقة عليها. وقد أدَّى التَّفاوت بين قوَّة فرنسا، نظراً لكميَّة ونوعيَّة مواردها، وسرعة انهيارها، إلى دفع المؤرِّخ والجندي والمُقاوِم مارك بلوك إلى تَعميد الحَدَث باعتباره «**هزيمة غريبة**». ولو أنَّه نجا مِنَ الحرب ـ فقد اغتاله جهاز الغستابو عام ١٩٤٤ ـ ربَّما اتَّفق بلوك أنَّها لَم تَكُن أقلَّ عبثيَّة من الغَرابة.

أمَّا بالنِّسبة للنِّزوح الجماعي، أيُّ تفاوُتٍ عظيمٍ ذلك الذي يمكن أن يَحدث بالنِّسبة لملايين النَّازحين الذين ـ قبل أيَّامٍ فقط من سقوطهم في الدَّوَّامة التي خلقها انقلاب الجمهوريَّة الفرنسيَّة ـ مازالوا يؤمنون وبغباء وعِنادٍ بديمومة مؤسَّساتهم المَدَنيَّة والقانونيَّة والسِّياسيَّة، بالإضافة إلى ثبات ودَوام حيواتهم اليوميَّة:

«ركوب التِّرام، أربع ساعاتٍ في المكتب أو المَصنَع، وجبة طعام، ترام، أربع ساعاتٍ مِنَ العَمَل، وجبة طعام، نوم، واثنين، وثلاثاء، وأربعاء، وخميس، وجمعة، وسبت، على المنوال نفسه». [٣٨]

هذا هو «ما قبل» حياتنا، فغياب لحظات التَّوقُّف في حياتنا يعكس السَّلاسَة الانسيابيَّة لأيَّامنا- أي حتَّى اللحظة التي تتفكَّك فيها هذه السَّلاسة فجأةً.

تلك اللحظة من التَّفكُّك يمكن أن تكون مُبتَذَلة كمحادثة عامَّة أو تفاعل، أو قد تكون استثنائيَّة وقويَّة كهَجمة من هجمات طائرات شتوكا عليك. إنَّها اللحظة التي يتمُّ فيها إيقاظنا من حياتنا الرُّوتينيَّة بهَمسَة أو بانفجار، وكلاهما يتطلَّب سؤالاً: «**لماذا؟**» بإصرارٍ متساوٍ وغير متوقَّع. وبتعبٍ تملؤه الدَّهشة، مُحَدِّقاً في السماء الفارغة للحصول على جوابٍ، أو غريبٍ في قمرة قيادة طائرة مُصَمِّم على قتلنا جميعاً، نرى الواجهات والمَظاهر الزَّائفة تنجلي «**ويصبح العالَم كما هو مَرَّةً أخرى**». [٣٩]

ومع أنَّنا قد نحاول العودة إلى ما عرفناه وألِفناه ذات مَرَّة، إلا أن غرابة وضعنا/ مأزقنا البشري قد طَغَت علينا. وفي خضمِّ كلِّ ذلك، يشبه ردُّ فعلنا إلى حَدٍّ كبيرٍ الموظَّف الذي شاهده كامو ينقل مصرفه إلى كليرمونت:

«إنَّه يحاول المحافظة على عاداته نفسها. ويكاد ينجح تقريباً. لكنَّه يشذُّ خارج السِّرب قليلاً». [٤٠]

*****

نقلت باريس- سوار مكاتبها مرَّةً أخرى في شهر أيلول/ سبتمبر كغيرها من العديد من المؤسَّسات الأخرى من كليرمونت-فيران إلى ليون، حيث سكن موظَّفوها في فندقٍ تزيِّن جدرانَهُ لوحاتٌ لنساءٍ عاريات، الأمر الذي ذكَّر كامو بأنَّ المبنى، الموجود في قلب منطقة الأضواء الحمراء، كان في الأصل مَركزاً للدَّعارة. حتى ذلك الوقت تحوَّلت الصَّحيفة، على نحوٍ ملائِم، إلى بوقٍ مُخزٍ للنِّظام الاستبدادي الموجود الآن في موقع السُّلطة، تُرَدِّدُ ببَّغائيَّة ادِّعاءات الرَّجعيَّة، والأبويَّة، ومُعاداة الأجانب التي تخلَّلَت خطابات بيتان. كما تمَّ تعزيز خطاباته ونصوصه ورَدفُها بصور أرتالٍ من الكبار في السِّنِّ والصِّبيان ـ كل ذكر تقريباً كان أسيرَ حَربٍ في ألمانيا ـ رافعين أيديهم فوق رؤوسهم المُغَطَّاة بالقبَّعات وهم يُحيُّون زعيم البلاد الجديد. وعندما زار بيتان ليون، كان قُدامى المُحاربين في الحرب العالميَّة الأولى يملؤون السَّاحة المركزيَّة في المدينة. حيث تمتمَ أحد الحاضرين من الوفد وهو ينظر إلى الأسفل باتجاه الحشود المُجتمعة أنَّ المشهد يذكِّره «**بمَدفَنٍ مَليءٍ بالعظام الحيَّة**».[٤١]

مع ازدياد سوء حالة الطَّقس، ازداد انزعاج كامو وقلقه حول صحيفة باريس-سوار. وعندما أغلقت الصحيفة في أوائل شهر تشرين الأول/ أكتوبر بعد أوَّل حزمة من تشريعات النِّظام المُناهضة للسَّاميَّة، كتب كامو إلى صديقة يهوديَّة، هي إيرين ديغان، مُعَبِّراً عن عارِهِ واشمئزازه. وقال لها مؤكِّداً:

«لا يمكن لهذه الرِّيح أن تستمرَّ، إذا أكَّدَ كلُّ واحدٍ منَّا، وكلُّ فردٍ حُرٍّ منَّا بهدوءٍ أنَّ هذه الريح تحمل معها رائحة كريهة».[٤٢]

وقد وَعَدَ بأنَّه سيقف إلى جانبها دوماً ـ وهو بحَدِّ ذاته موقفٌ رائعٌ لأيِّ شخص فرنسي سنة ١٩٤٠ عندما تبنَّت الغالبيَّة العظمى من مواطنيه القوانين الجديدة وخَضَعوا لها. وقد سَجَّلَ في دفتر ملاحظاته عَدَداً من الإشارات التَّاريخيَّة: «**فالقدِّيس توماس اعترف بحَقِّ الرَّعايا بالثَّورة**»، وفي حين أنَّه في عصر النَّهضة تمَّ قتل سيينا كوندوتييري على أيدي سكَّان المدينة التي أنقَذَها، ثمَّ طالبهم بالسُّلطة والطَّاعة المُطلَقَة مقابل ذلك.[٤٣]

انضمَّت فرانسين إلى كامو في أوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر: حيث جرى تثبيت الطَّلاق مع هاي أخيراً، وبات بإمكانها الزَّواج الآن. وبعد حفل زفافٍ مدنيٍّ في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر، قام الزَّوجان، بصحبة بيا ومنضِّدي الصَّحيفة، باقتراح نخب الزواج في حانة مجاورة. بالنَّظر إلى الأكاذيب التي تمَّ تمريرها حتَّى الآن كحقائق في باريس-سوار، وَجَدَ كامو عزاءه في العمل إلى جانب مُنَضِّدي الحروف المَطبعيَّة: فَهُم يمكنهم، على الأقل، أن يجدوا متعةً مُبَرَّرة في عملهم الماهِر. خلال بقيَّة الشَّهر، عندما لم يكن يعمل خلال النُّوبة الليليَّة في مكاتب الصَّحيفة، عمل كامو على كتابه «**الأسطورة**» مع فرانسين في شقَّته الباردة والخالية من أيِّ وسيلة تدفئة. وعندما عَجِزَ كامو عن إيجاد آلة كاتبة، كَتَبَ نَصَّهُ بأصابع مُتَصَلِّبَة ومُتَقَرِّحَة، بينما قامَت فرانسين ـ مُرتَدِية القفَّازات ـ بإعادة نَسخ النَّصِّ. في تلك الغرفة الجليديَّة والفارغة، كما هو الحال في «**هذا العالَم البائِس والمثير للغثيان حيث الخلد حتَّى يجد لنفسه سبباً للعيش**»، تمسَّكَ كامو بكتابه والعالَم الذي صوَّرَه، إذا لَم يَكُن من أجل الأمَل، فليس

من أجل اليأس على الأقل.[٤٤]

*****

ونحن نعرف كيف تنتهي قصَّة سيزيف: إنَّها لا تنتهي أبداً. إنَّها خُلاصَة لا تُستَخلَص أبداً، تُقاس بالمسافة بين قمَّة الجبل وآخر امتداد للمُنحدَر الذي يجب أن تغطِّيه الصَّخرة الضَّخمة. لكنَّ القليل فقط مَن يعرفون كيف بدأت حكاية سيزيف ومأساته. للحكاية عددٌ من البدايات المختلفة. لقد لَمَّح كامو إلى بعض الإصدارات، لكنَّه لَم يتوقَّف عنها كثيراً.

كان سيزيف، ابن أيولوس، إله الرِّيح، وكان محتالاً ومُخادعاً. يحتال على البشر والآلهة مِراراً وتكراراً. ولعلَّ أكبر خدعةٍ قام بها كانت مع الإله هادِس الذي، بأمرٍ من زيوس، قد جاء مزوَّداً بالأصفاد لجَرِّ سيزيف إلى العالَم السُّفلي. ولكن بدلاً من ذلك، قام سيزيف بتقييد هادِس عندما طلب من الإله أن يُريه كيف تَعمل الأصفاد. وتَفاقَمَت عبثيَّة تكبيل إلهٍ بالأصفاد أكثر من جَرَّاء العَواقب التي نَجَمَت عنها: في حين أنَّ هادِس كان مُصَفَّداً، لَم يَعُد يَموت أحد. وقد تمَّ حلُّ هذا المأزق غير المُرضي تماماً عندما أطلَقَ آريس، إله الحرب، هادِس من قيوده، وأمسَكَ بسيزيف، وسَلَّمَه لمصيره.

ومع ذلك، ظلَّ سيزيف يقاوم حتَّى ذلك الحين. فبينما كان آريس يستعدُّ لتَرحيله، همَسَ سيزيف لزوجته، ميروبه، ألا تَدفن جثَّته. وبعدَ تسليمه إلى برسيفونه، أخبَرَ الرَّجل المُخادع مَلِكَةَ

العالَمَ السُّفلي بأنَّ وجوده هناك غير لائقٍ: فعلى الرغم من أنَّه قد مات، إلا أنَّ جسده لَمْ يُدفَن. لذلك قال سيزيف مُستَنتجاً، بأنَّه على الجانب الخطأ من نَهر ستيكس. وحين حاوَلَت برسيفونه القاتمة استيعاب القصَّة، أضاف سيزيف طالباً منها أن تُمهِلَهُ ثلاثة أيام ليَعود إلى العالَمِ العلوي، ويُصَحِّحَ الخطأ ثمَّ يعود إلى هادِس. وبعد أن وافَقَت ملِكَة العالَمَ السُّفلي المَخدوعة، عاد سيزيف إلى عالَمِ الشَّمس والنُّور، وكما هو مُتَوَقَّعٌ، نَكَثَ بوَعده. تَعَقَّب رسول الآلهة، هرمس، سيزيف وألقى القبض عليه، صَفَّدَهُ ـ مَرَّةً ثانية ـ ثمَّ سَلَّمَهُ لهادِس، وعقاباً له على خداعه، كَلَّفَ سيزيف بدَحرَجَة صخرة كبيرة، يَدفعها إلى أعلى الجبل لتَعود وتتدحرَجَ إلى السَّفح، ثمَّ يعود مَرَّةً أخرى ويَدفعها إلى الأعلى لتتدحرج إلى الأسفل على الجانب الآخر، وهكذا إلى الأبد.[٤٥]

أيُّ صفاتٍ أفضل من ذلك بالنِّسبة للبطل العبثيِّ، «**سخريتُه من الآلهة، وكُرهُهُ للموت والفَناء، وشَغَفُه بالحياة، تلك العقوبة التي لا توصَف والتي يكرِّس فيها الكائن كلِّيَّتَهُ، ويبذل كلَّ ما عنده حتَّى لا يحقِّقَ شيئاً**».[٤٦] ولكنَّ كامو لا يذكر شيئاً عن ألاعيب سيزيف وحيَله وأكاذيبه الأخرى ـ التي كانت مَعروفةً جيداً كالشمس بالنِّسبة للإغريق القدماء. وبدلاً من ذلك، يكتب كامو أنَّ الشاعر هوميروس قال عن سيزيف أنَّه «**الأكثر حكمَةً بين الفانين**».[٤٧]

وفي الواقع لَمْ يَقُل هوميروس أيَّ شيءٍ من هذا القبيل. بل يصف سيزيف في إلياذته بأنَّه من دُهاة البشر. لم تكُن البصيرة نقطة قوَّته،

في حين أتته الحكمة في وقتٍ متأخِّرٍ جداً. كما أنّ كامو لا يذكر أية نسخة أخرى من الأسطورة: فقد أغوى سيزيف أنتيكليا زوجة لايرتس، ووالدة أدهى وأكبر مخادع في تاريخ البشريَّة والأساطير، أوديسيوس، وربَّما كان قد اغتصبها. ولعلَّ كامو لم يَكن على اطِّلاعٍ على هذه النسخة المُغايرة، أو لعلَّه كان يعرفها، لكنَّه خاف من أن يُسقِطَ جميع الصُّور والمفاهيم البطوليَّة عن سيزيف. أو، مرَّةً أخرى، ربَّما فعل كامو بكل بساطة ما كان سيفعله أيُّ مؤرِّخ يونانيٍّ أو مَسرحيٍّ أو تراجيدي يوناني قديم: **يخلق لنفسه بطلاً صادقاً وصالحاً لزمانه، وليس للماضي.**

إذا كان الجزء الشِّعري الذي تركه للأجيال القادمة يتضمَّن أيَّ مؤشِّرٍ، فيبدو أنَّ كريتياس قد استفاد من أسطورة سيزيف. لقد قال الفيلسوف والسياسي اليوناني القديم ـ وعَمُّ أفلاطون ـ إنَّ البشر الفانين قد خَلَقوا الآلهة لفرض القانون على المجتمع، خوفاً من العقاب الإلهي. وهناك شخصيَّة في مسرحيته «**سيزيف**» تُعلِنُ أنَّ رجلاً حكيماً «**اخترَعَ مشاعر الخوف من الآلهة من أجل البشر، حتَّى يكون هناك ما يخشاه الأشرار، حتَّى إن أخفوا أعمالهم أو كلماتهم أو أفكارهم**».[٤٨] فأمَّا ما إذا كان سيزيف إنساناً حكيماً، أو ما إذا كان يتفوَّه بهذه الكلمات قبل أن تعاقبه الآلهة التي كان يُنكِرُ وجودها، أو ما إذا كان ينطقها في عالَمٍ خالٍ من الآلهة، فهو أمرٌ غيرُ واضح تماماً.

هل تغيِّرُ هذه التَّفاصيل ـ هل يمكن لنظرة أكثر شموليَّة إلى شخصيَّة سيزيف أن تغيِّر ـ تصوُّرنا للعقاب الذي حَلَّ به؟

ففي النِّهاية، ومن وِجهة نظرنا، أنَّ الاغتصاب والقتل والسلوك الخارج عن القانون، جميعُها أنماطٌ سلوكيَّة تستحقُّ عقاباً أشدَّ بكثيرٍ من الخداع أو الاحتيال. ولكن من وجهة نظرنا أو، بالنِّسبة للإغريق فيما يتعلَّق بهذا الأمر - كانت العدالة أو الأخلاق من أقلِّ الأمور التي يمكن أن يشغلوا بالهم بها. ماذا يهُمُّ، بالنِّهاية، إذا فَعَلَ سيزيف ما فعله في عالَمٍ محكومٍ بآلهة عديدة، أو عالمٍ خالٍ منها أساساً؟ في كلتا الحالتين، لا يوجد أساسٌ مُتَعالٍ، ولا وجود لمعايير مُطلَقَة يمكننا من خلالها معاقبة مَن نعدُّهم خارجين عن القانون.

إنَّه عالَمٌ غيرُ مُبالٍ بأعمال البشر وأفعالهم على وجه التَّحديد، هكذا ينظرُ إليه أحد أحفاد سيزيف، وبطل هوميروس، غلاوكوس. كان غلاوكوس محاربا طَرواديًّا التقى بنظيره ديوميدس في ساحة المعركة تحت أسوار طروادة. وبينما يستعدُّ الرَّجلان للالتحام، يسأل ديوميدس غلاوكوس عن أصله. وفي أحد المقاطع الأكثر تأثيراً، والتي لا تُنسى في الإلياذة، يردُّ الطُّروادي:

مكتبة
t.me/soramnqraa

لماذا تسأل عن أصلي يا ديوميدس؟
كأوراق الشَّجر على هذه الأرض هي أجيال البشر

أوراقٌ قديمة، تكنسها الريح على الأرض

وأوراق جديدة شابَّة تملأ الغابَةَ الخضراء مع حلول الرَّبيع

وهكذا يمضي الفانون، جيلٌ من الزُّهور يُزهِر حتَّى لو ماتت أجيالٌ قبله.[٤٩]

وعندما يكتشف البطلان أنَّهما مُرتبطان وقريبان من بعضهما أكثر ممَّا يتصوَّران، يشبُكان أيديهما، ويُعلنان نفسيهما صديقين، ويبحثان عن أعداء آخرين. لأنَّهما وجدا، في الواقع، واحداً من أمرين مُؤَكَّدين في عالمٍ خالٍ من التَّعالي، أحدهما: الصَّداقة –وانفَصَلا سَعياً خلف الشيء المُؤَكَّد الآخر: المَجد. هل لنا أن نتصوَّر، حسب ما جاء في السَّطر الأخير من القصيدة، أنَّهما سعيدان؟

*****

وبعد فترة قصيرة من عيد الميلاد عام ١٩٤٠، وكانت واحدة من أبرد ليالي الميلاد التي عَرَفَتها فرنسا على الإطلاق، مَنَحَت الصَّحيفة كامو أوراق تسريحه من العمل: فقد عانت حتَّى صحف الدَّعاية والإعلانات المُبَوَّبَة أوقاتاً اقتصاديَّةً عصيبة. بمعنى آخر، حقَّقَت الأخبار ما لَم ينجح كامو نفسه في تحقيقه: اترُك الصَّحيفة التي كانت السَّبَب في مَرَضِكَ. لقد حَرَّرَهُ ذلك أيضاً وساعده على ترك المشهد الذي لطالما أثار اشمئزازه: فقد خَسِرَ، بدون أجرٍ، السَّبَبَ الأخير الذي يضطرُّه للبقاء في فرنسا الكبرى. وفي أوائل شهر كانون الثاني/ يناير استقلَّ القطار برفقة فرانسين إلى مرسيليا، ثمَّ أبحرا معاً في النِّهاية إلى الوطن؛ الجزائر. لم يكن لديه أيُّ أملٍ مباشر في الحصول على وظيفة في الجزائر العاصمة، لذلك انتقل الزَّوجان إلى وَهران، المدينة الثَّانية في الجزائر، وقَطَنا في شقَّة تملكها عائلة فاور.

كانت وَهران محطَّةً مناسبة لهذه الفترة الكئيبة من حياة كامو. لَم يَكُن للمدينة أيٌّ من الصِّفات التي تميِّز الجزائر العاصمة المُزدهِرَة:

الالتقاء السَّلِس بين المدينة والبحر، حيويَّة حياة النَّاس في الشَّوارع، ونبض النَّشاط الفكري والفَنِّي. وبخلافها، كانت مدينة وَهران مُصَمِّمَةً على تجاهل البحر. عَبَّر كامو اليائس: «**لا يوجد مكانٌ لَمْ يُشَوِّهْهُ سكَّان وَهران ببناءٍ إسمنتيٍّ شنيعٍ يخرِّبُ أيَّة مناظر طبيعيَّة جميلة**».[٥٠]

أمَّا عن المدينة نفسها، فإنَّ: «الشَّوارع موهوبةٌ للغبار والحصى والقَيظ، فإذا ما هطل المطر أحدَثَ طوفاناً، وتحوَّلَت الأرض إلى بحرٍ من الوحول، ولكنَّكَ تدور في شوارع مُلتَهِبَة وقاسية تشعرُ بالاختناق، وفي نهاية الأمر يفترس المينوتور أهلَ وهران، ذلك الوحش هو..... السَّأم».[٥١]

كان السَّأمُ أشَدَّ فَظاعَةً إذا لَمْ تَكُن تَمْلُكُ عَمَلاً. وكما قال كامو لأحد أصدقائه، فإنَّ العودة إلى وهران «**في ظلِّ هذه الظُّروف الخاصَّة، بالكاد تشكِّلُ خطوَةً إلى الأمام**».[٥٢] وبصَرف النَّظَر عن بعض أعمال التَّحرير الصَّحفيَّة، أمضى كامو عدَّةَ أسابيع بلا تغييرٍ في المدينة. وأخيراً، حصل على وظيفة ـ وظيفة أنشأتها تشريعات فيشي المُعادِية للسَّاميَّة. عندما تمَّ فَرض حصص تقييديَّة على عدد الأطفال اليهود المَسموح لهم بالالتحاق بالمَدارس العامَّة في فرنسا، نشأت فجأةً مجموعةٌ كبيرةٌ مِنَ الطُّلَّاب الذين كانوا بأمَسِّ الحاجة إلى التَّعليم. كانت وهران على وجه الخصوص، بجاليتها الكبيرة من اليهود، بحاجَةٍ إلى مُدَرِّسين، وبحلول شهر آذار/ مارس، كان كامو يُدَرِّسُ في مَدرستين خاصَّتين إلى جانب أصدقاء يهود طُرِدوا من وظائفهم في المَدارس العامَّة.

أصبح كامو رائداً في جميع الدُّروس مع حصصٍ تتراوح ما بين اللغة الفرنسيَّة والجغرافيا والفلسفة، ومع ذلك لَم يَستَطِع أيٌّ منَ الأشخاص تفسير عبثيَّة الموقف. في الوقت نفسه، كان كامو مُدركاً للحاجة إلى استجابة سريعة وتَجاوُز هذا الوضع... نَظَّمَ مع زوجته نشاطات لجمع الأموال، وَوَفَّرَ المأوى للأصدقاء اليهود الذين فقدوا مناصِبَهُم بسبب السياسات المُجحِفَة. دارت أحاديث حَذِرَة وخَجولَة عن مقاوَمَة. وطُرِحَت أسئلة كثيرة حول كيف ومتى وأين جَرَت مناقشتها، ولكن لَم يتغيَّر شيء على أرض الواقع. لقد ظَلَّ جَوُّ وهران مَشحوناً وغليظاً وظالماً. على الرَّغم من ترحيب كامو بالدخل الثَّابت، وبَذَلَ قُصارى جهده من أجل أصدقائه، إلا أنَّه شَعَر بالاشمئزاز من الوضع برمَّتِهِ. فأسَرَّ إلى أحد الأصدقاء في يومٍ من الأيام: «الأيام طويلةٌ ومُرهِقَة»[٥٣]، وكَتَبَ لصديقٍ آخر: «**أشعُرُ بالاختناق**». وبالنِّسبة لرجلٍ مُصابٍ بالسُّلِّ، فإنَّ مثل هذا التَّشبيه ما كان ليَصدُرَ عنه بسهولة.

في خِضَمِّ هذه الفترة المُضطربة والمُقلِقة أنهى كامو مخطوطة «**أسطورة سيزيف**». ومع مخطوطة روايته «**الغريب**» ومسرحيَّته «**كاليجولا**» وكانتا جاهزتين مُسبَقاً، اكتَمَلَت أعمال «**العَبَث**» الثلاثة. تَنَهَّدَ كامو في النِّهاية: «إنَّها بَشائِرُ الحرِّيَّة».[٥٤] وكما يكشف في إعادة صياغته لأسطورة سيزيف، يمكن العثور على الحرِّيَّة حتَّى في أغرب الأماكن ـ حتَّى في وَهران، أو هادِس.

*****

«لقد حَكَمَت الآلهة على سيزيف بأن يَرفَعَ صَخرَةً بلا انقطاعٍ إلى قمَّة الجبل حيث تسقط الصَّخرة بفعلِ ثقلها ثانية. لقد ظنُّوا لسَبَبٍ مَعقولٍ أنَّه ليس هناك عقابٌ أشنَعُ مِنَ العَمَل [العَبَثيِّ] التَّافه الذي لا أمَلَ منه».[٥٥] في حين أنَّ الصُّورة الأوَّليَّة التي رسمها كامو لسيزيف غير مَذكورةٍ هنا، إلا أنَّ كامو يوَضِّح الأسطورة لاحقاً، حيث يَصِفُ سيزيف بأنَّه «يَجهَدُ» لرَفع الصَّخرة، مُشيراً إلى حَجم التَّحَدِّي، ولكن على العموم، إنَّ الجهد الجسديَّ الهائل الذي ينطوي عليه عَمَلُ سيزيف يبدو كفكرة لاحقة لكامو. يبدو كأنَّ العذاب الذي أنزَلَته عليه الآلهة ليس له علاقة بجِسَدٍ مُجهَدٍ، بل بعَقلٍ يتحَدَّى العِقابَ العَبَثيَّ ذا الطَّابع المُتَكَرِّر الذي لا طائل منه. وبعد أن أدانوه بتكرار المَهَمَّة مِراراً وتكراراً إلى ما لا نهاية، إلى الأبد ودون توقُّف أو هَدَف تحت أنظارِ كونٍ أعمى ولا مُبالٍ، إلا أنَّ محيط صخرة سيزيف ووزنها غير مُهمَّين. بل يَكمُنُ العذاب في التِّكرار اللامُتَناهي لعَمَلٍ روتينيٍّ وعَبَثيٍّ لا معنى له.[٥٦]

وسيكون من غير المُجدي، إذن، تغيير مَهمَّة سيزيف أو تحسينها: سواءٌ كان ذلك من خلال دَفع جَزَّازة عُشب، أو إدخال خَيطٍ في سَمِّ إبرة، أو إغراق كُرَةٍ سَلَّةٍ تحت الماء، أو إخراج القُمامة، أو إزالة فاصلة ثمَّ استبدالها. يَكمُنُ العَذاب الحقيقيُّ في تكرار العمل العَبَثيِّ إلى ما لا نهاية. إنَّ وَزن العمل ليس نتيجةَ الثِّقل أو الجاذبيَّة، بل يكمُنُ في خطورة طبيعته غير المُجدِية. سيزيف مُرتَبِطٌ بالصَّخرة بالطبع، ولكنَّ الأهم من ذلك أنَّه مُلزَمٌ ومُرتَبِطٌ بعبثيَّة علاقته بالصَّخرة.

ولكن، يتساءل ريتشارد تايلور، ماذا لو أردنا تغيير منظور سيزيف، وليس الصَّخرَة بحَدِّ ذاتها؟ ماذا لو قرَّرَت الآلهة بتفكيرها المُنحَرِف تخفيف عقوبة سيزيف بمنحه عقلاً يجعله يحبُّ عمله؟ أن يُصبح دَفعُ الصَّخرة إلى الأبد بالنِّسبة له حُلُمَ حياته ومُنتهى رغباته؟ عندها سيتحرَّر السَّجين من عقوبته كما يستنتج تايلور: «**إذا كانت لدى سيزيف رغبةٌ شديدةٌ في أن يفعل ما وَجَدَ نفسه يَفعَلُه دوماً، مع أنَّ حياته لَن تتغيَّر قَيدَ أنْمُلَة، ولكن سيكون لها معنى ما بالنِّسبة له**».[٥٧] وسيكون عندئذٍ من السّهل تصوُّر سيزيف سعيداً، وذلك ردًّا على السَّطر الأخير من مقالة كامو: «**ويجب على المَرء أن يتصوَّرَ سيزيف سعيداً**». فهل يمكننا تخيُّل أن يكون كامو نفسه سعيداً بهذا السيناريو؟

*****

قرب نهاية شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٤٢، بدأ كامو بالسُّعال وهو في منزله مع زوجته فرانسين. وبينما كانت تشنُّجاته تزداد سوءاً وعنفاً، ويختلط البلغم بالدم، هَرَعَت فرانسين للبحث عن طبيبهما. هَدَأت نوبة السُّعال في اليوم التَّالي، لكنَّ كامو كان يعلم أنَّ هذا مجرَّد تأجيل وليس حَلًّا. وصَرَّح معترفاً لشقيقة كريستيان فاور: «**اعتقدتُ أنَّ الأمر قد انتهى بالنِّسبة لي هذه المَرَّة**».[٥٨] وأكَّدَ تشخيصُ الطَّبيب مخاوف كامو: حتَّى ذلك الحين كانت رئته اليُسرى مريضةً فقط، والآن، بأيَّة حال، تأثَّرت رئته اليُمنى بالقدر نفسه. بدا كامو الآن يشعر ـ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى ـ أنَّ الحياة يجب أن تُعاشَ بلا أيِّ شيءٍ نَصبو إليه.

كما تَسَلَّلَ مرض السُّلِّ إلى رئة كامو السَّليمة، كذلك تَسَلَّلَت سياسات فيشي العنصريَّة إلى الحياة اليوميَّة في وهران. ففي منتصف عام ١٩٤١، فَرَضَ النِّظام حصَّته، أو قانون مُحاصَصَة على المِهَن: سَمَح لليهود بشغل ٢٪ فقط من العَدَد الإجمالي لأطبَّاء الأسنان والأطبَّاء البشريِّين والمحامين في فرنسا. واضطرَّ هنري كوهين، طبيب كامو الشَّخصي، إلى التَّخلِّي عن ممارسته للطِّبِّ، معتمداً على كَرَم ولطف زُمَلائه الذين أعاروه عياداتهم.

ومن المناسب القول إنَّ كوهين هو الذي نَصَحَ كامو بتأدية نوعٍ مختلفٍ مِنَ المَنفى. خوفاً من أن يؤدِّي صَيفٌ رَطبٌ آخر في وَهران إلى إضعاف رِئتي كامو وأن يشتدَّ عليه مَرَضُه، لذا نَصَحَ الطَّبيب مريضه بقضاء بعض الوقت في مصَحَّة بفرنسا. وبما أنَّه لَم يَكُن قادراً على تحمُّل تكاليف المصَحَّة، استَقَرَّ كامو على الحلِّ الذي عَرَضَه عليه ذووه: مَزرعة يَملكونها بالقرب من شامبون سور لينيون، وهي قرية مَعزولة في جبال سيفين جنوب وسط فرنسا. وفي آب/ أغسطس، استقلَّ ألبير كامو وزوجته فرانسين الباخرة في الجزائر العاصمة.

ما أن وَصَلَ كامو إلى مارسيليا، استَقَلَّ هو وفرانسين سلسلةً من القطارات، أوَّلاً إلى ليون، ثمَّ إلى مدينة سان إيتان الأصغر، وأخيراً إلى شامبون سور لينيون. ومع ذلك، لم يَكُن كامو قد بَلَغَ وِجهَتَهُ بَعد، بعد أن بَدَأ يشعر بالإرهاق، وبضيق في التَّنفُّس. وفي محطَّة القطار الرِّيفيَّة في شامبون، استأجر هو وفرانسين عَرَبَةً تجرُّها الخيل لنقلهما إلى لو بانلير، وهي تجمُّع من بيوت المُزارعين

الحجريَّة المَحصورة داخل سورٍ حجريٍّ كبير، كانت مُلكيَّتُها تعود لعائلتها، وتبعد بضعة كيلومترات عن القرية.

أثبتت نهاية الصَّيف في سيفين أنَّ الإقامَة كانت ذات فائدة للزَّائر. كانت الوديان التي تجري في عروقها الينابيع والجداول، خضراء وذات تأثيرٍ مُهَدِّئ. ومع أنَّه أخبَرَ صديقاً له في الجزائر العاصمة أنَّ الأمر «**سيستغرق الكثير من الوقت والسَّير**» قبل أن يَشعُرَ أنَّه في بيته في محيطه الجديد، إلا أنَّه كان أقلَّ حماساً في مُذَكِّراته:

«صوتُ رَقرَقَة الينابيع المُتَدَفِّقَة يجري على طول أيَّامي. إنَّها تتدفَّق من حولي، عبر الحقول المُشمِسَة، ثمَّ تقترب منِّي، وسُرعان ما أجد هذا الصَّوت بداخلي، ذلك الرَّبيع في قلبي، وصوت الينبوع هذا ممزوجاً بكل فكرة: إنَّه النِّسيان». [٥٩]

وفي بعض الأحيان، يبدو أنَّ قوى الطَّبيعة نفسها، قد حَشَدَت كل قواها للمساعدة في مَهمَّة «النِّسيان» ـ الجهد المَبذول للتَّغلُّب على نوبة المَرَض الأخيرة التي ألَّمت بكامو. قارَنَ كامو تموُّجات أشجار التُّنوب الكثيفة «**بجَحفَلٍ بَربَريٍّ من ضوء النَّهار**» من شأنه أن يَطرُدَ «**الجيوش الهَشَّةَ من الأفكار الليليَّة القاتمة**». [٦٠]

وفي أوائل شهر تشرين الأوَّل/ أكتوبر، عادَت فرانسين إلى وهران. خَطَّطَ كامو لمتابعة عمله بمجرَّد أن تَجِدَ فرانسين وظيفة، كمدرِّسيْنِ، لكليهما في الجزائر. بدأ الطَّقس يتحوَّل إلى رَطبٍ وبارد، وكان معظم السُّيَّاح الآخرين في المَزرعة، الذين نادراً ما تحدَّث معهم كامو، قد غادروا، واستقلُّوا جميعهم القطار إلى سان إيتان من أجل

حقن الاسترواح الصَّدري الذي ظلَّت صلته الوحيدة التي تربطه بالعالم الخارجي ـ لقد وَفَّرَت لهم حرفيًّا نافذة تطلُّ على فرنسا. كان كامو، وهو جالسٌ خلفَ اللوح الزجاجي للمَقصورة، يتأمَّل وجوه القرويِّين الذين ينتظرون قطارات أخرى ويَدرسها، في تلك المحطَّات التي توقَّف فيها قطاره، شاهد زملاءه المسافرين وهم يتجوَّلون على المِنَصَّة. وفي محطَّة سان إيتان، لاحظ أنَّ المسافرين يأكلون بصمْت «طَعاماً رديئاً، ثمَّ يخرجون إلى المدينة المُظلمة [و] تحتَكُّ مرافقهم ببعضهم دون أن يختلطوا. إنَّها الحياة البائسة والصَّامتة التي تعيشها فرنسا بكاملها في أثناء انتظارها». [٦١]

تساءَل كامو كيف يمكن للمَرء أن يَفهم فرنسا بعد سنوات من الآن، دون الخوض في هذه المشاهد؟ لقد تأمَّلَ كثيراً في الوجوه التي رآها:

«مُحتَشدَةً أمام محطَّاتٍ صغيرة... صورة ظليلة لَن أنساها ما حَييت: زوجٌ من الفلاحين كبيرين في السِّنِّ ـ كان وجهاها مملَوحين، أمَّا وجهه فكان ناعماً مُضاءً بعينين شرقيَّتين وشاربٍ أبيض، صورة ظليلة لشتاءٍ كاملٍ مِنَ العَذاب والحرمان... لقد هَجَرَت الأناقة هؤلاء النَّاس، الذين يسكنهم الفقر الآن. تبدو حقائبهم في القطارات بالية ومُهتَرِئة، مَربوطة بخيوط وحِبال متآكلة، ومُغَطَّاة بالكرتون. جميع الفرنسيِّين يبدون كمُهاجرين». [٦٢]

وفي يوم الحادي عشر من شهر تشرين الثَّاني/ نوفمبر ١٩٤٢، بدا الانتظار فجأةً أقصر، وأكثر كآبَةً. رَدَّ الألمان على إنزال الحُلَفاء في

شمال أفريقيا بعبور خَطِّ التَّرسيم الذي وُضِعَ عام ١٩٤٠، والذي يفصل بين المناطق الحُرَّةَ والمُحتَلَّة، وطالبوا ببقيّة فرنسا كاملةً. في اليوم نفسه، كتب كامو في دفتر مذكِّراته: «**مَسجونون مثل فئران!**» ظَهَرَ فجأةً جدارٌ عازِلٌ بين كامو والجزائر: لَم يَعُد بإمكانه العودة إلى أسرَته وأصدقائه، والمناظر الطَّبيعيَّة المألوفة والغالية على قلبه. كانت حالُهُ لا تختلف عن حال الرَّجل العبثي: الرَّجل الذي لا يملكُ إلا «**وعيَهُ وإدراكه الواضح بالأسوار التي تحيط به من كلِّ جانب**». [٦٣]

*****

في الشَّهر نفسه الذي وجد فيه كامو نفسه مُحاصراً في فرنسا، عَلِمَ أنَّ مبيعات «الغريب»، التي نشرتها دار غاليمار في وقتٍ سابقٍ من ذلك العام، توجِبُ إصدار طبعة ثانية من ٤٤٠٠ نسخة». [٦٤] ولَقِيَت إقبالاً وترحيباً كبيرين. ومع ذلك، شَعَرَ كامو، الذي كان مسروراً بالنَّجاح التِّجاري النِّسبي للكتاب، بخَيبة أملٍ بسبب الاستجابة النَّقديَّة. وقد رفض في رسالةٍ إلى صديقه في المدرسة الثانويَّة كلود دي فرينفيل، كُلًّا من التَّقييمات الجيِّدة والمتوسِّطة، لأنَّها كانت جميعها «**مبنيَّة على سوء فهم**» للكتاب. واختتم رسالته قائلاً: «**من الأفضل أن أصُمَّ أذنيَّ، وأواصل العمل**». [٦٥]

غير أنَّ إحدى المراجعات للكتاب، التي نُشِرَت في مجلَّة Cahiers du Sud المرموقة في أوائل سنة ١٩٤٣، اخترقت مزيج كامو من الإحباط واللامبالاة. في مراجعة من عشرين

صفحة ـ مساحة أكبر بكثير ممَّا أعطِيَت لمراجعات سابقة لكُتَّاب مثل ويليام فولكنر أو جان جيرودو ـ عَلَّق جان بول سارتر الصَّاعد على الكتاب بوضوحٍ لافتٍ للنظر.[٦٦] وفي مراجعته بعنوان «شرح للغريب»، قام سارتر بتصفية رواية كامو من خلال رؤى المقال الفلسفي.

وبطبيعة الحال، يفعل سارتر هذا من منطلق موقف مفكِّر باريسي يتفحَّص قطعة أثريَّة غريبة من منطقة بعيدة. ولكنَّ ذلك لا يقلِّل من بصيرته. إلى جانب ذلك، **الغريب** هو كائنٌ فضوليٌّ جدًّا؛ بعيدٌ عن مقاهي الضِّفَّة اليُسرى. إنَّ قصَّة ميرسو، الرَّجل الذي كانت أيَّامه عبارة عن تعاقبٍ نادرٍ ومُتباينٍ للأصوات، والمشاهد، والأحاسيس؛ سلسلة من الأحداث المنفصلة التي يرويها بصوتٍ متصنِّعٍ وبتفسيرٍ ضحل، حتَّى عندما يقتل عربيًّا على أحد شواطئ الجزائر العاصمة، وهو بدوره على استعداد للموت إعداماً من قِبَل الدَّولة بسبب جريمته ـ وهما فعلان لا معنى لهما إطلاقاً ـ أمرٌ محَيِّرٌ. كيف لنا أن نفهم هذه القصَّة؟

يردُّ سارتر أنَّ ذلك يعتمد على ما نقصده بالفهم. ليس المطلوب مِنَّا أَنْ نستخلص مَعْنَى من هذِهِ الرِّوَاية؛ دعونا نفهم أنَّه لا يوجد شيء لنفهمه أساساً، وهنا تكمن الفضيحة في هذا الكتاب، وكذلك معنى عنوانه: **الغريب** الذي يريد تصويره هو بالضبط واحدٌ من هؤلاء «الحمقى» الفظيعين الذين يَصدِمُون المجتمع بعدم قبولهم لقواعد لعبته. إنَّه يعيش وسط غرباء، ولكنَّه بالنِّسبة لهم، هو غريبٌ أيضاً... ونحن أنفسنا، الذين لم نتعرَّف بعد، عند افتتاح

الكتاب، إلى شعور العَبَث، نحاول عَبَثاً الحكم عليه وفقاً لمعاييرنا المعتادة. إنَّه غريبٌ بالنِّسبة لنا أيضاً، هو غريب.[٦٧]

ولعلَّ أشهر صورة استخدمها كامو في **أسطورة سيزيف** لسَبر الأعماق العَبَثيَّة الكامنة مباشرةً تحت القشرة الهَشَّة لمعتقداتنا وتقاليدنا هي صورة رجل، خلف حاجزٍ زجاجيٍّ، يتحدَّث عبر الهاتف. «**لا يمكنك سماعه، ولكنَّك تشاهد حركاته الغبيَّة غير المفهومة: وتتساءل لماذا هو على قيد الحياة**».[٦٨] وبطريقةٍ ما، كثَّف كامو العَرض الأنطولوجي: هذا العَرض الغبيُّ والعَبَثيُّ سوف ينهار بكامله إذا سمعنا المحادثة، أو حتَّى جانبا واحدا منها. بمعنى أنَّه سيعيد تثبيت نفسه في عالمٍ بدا للحظةٍ أنَّه محرومٌ منه. ولهذا السَّبب، رفض الفيلسوف كولن ويلسون صورة كامو ووصفها بأنَّها مُضَلِّلَة: «**فقد جُرِّدَ الرَّجل على الهاتف من بعض الأدلَّة الأساسيَّة التي من شأنها أن تمكِّنكَ من إكمال الصُّورة**».[٦٩]

وجد سارتر، في مراجعته، هذه الصُّورة المُعيبة للسَّبب نفسه:

«إنَّ إيماءات الرَّجل وحركاته على الهاتف -الذي لا يمكنك سماعه- تبدو عبثيَّة نسبيًّا وخالية من أيِّ معنى، لأنَّها جزء من دائرة غير مُكتَمِلَة. ولكن إذا فتحت باب الكابينة ثمَّ وضعتَ أذنكَ على جهاز الاستقبال، فستكتمل الدَّائرة، وسيَغدو النَّشاط البشري مفهوماً مَرَّةً أخرى».[٧٠]

وبعَكس ويلسون، يدرك سارتر أنَّ كامو لا يقدِّم حجَّة، بل وسيلة - فنحن نتعامل مع مسألة لا تتعلَّق بالنَّزاهة والصِّدق،

بل بالفَنِّ – لجعل العالم شفَّافاً ومُعتماً في الوقت نفسه. وبالمقابل، تكشف هذه الخاصيَّة الجماليَّة عن حقيقة حول الحالة الإنسانيَّة لا يمكن للحجج الرَّسميَّة أن تكشفها ببساطة: نحن نعيش في عالم يَرفض الدَّلالة، وبالتَّالي يخاطر بتحويل أفعالنا وكلماتنا إلى مجرَّد تشنُّجات من الإيماءات التَّعسُّفيَّة الخَرقاء والعَبَثيَّة.

وطبقاً لتعبير سارتر فإنَّ هذه الأنشطة لا تَقلُّ هولاً وعَبَثاً عن الجولات المَحمومَة التي يضع فيها فولتير شخصيَّاته في قصصه القصيرة والموجَزَة. ربَّما. ذلك أنَّ الحاجز الزَّجاجي، بوسائل أخرى، يطلُّ على المَشهد من العَدَم. يخلص بطل رواية فولتير «ميكروميغاس» Micromégas، وهو زائرٌ من كوكبٍ بعيدٍ، يبلغ طوله ٢٠٠٠٠ قَدَم، ولا يمكنه سماع البشر أو رؤيتهم، إلى نتيجة مَفادها أنَّ الأرض هامدة وخالية من الحياة. حتَّى لو كان بإمكانه رؤيتنا، هل سيكون لحركاتنا أيُّ معنى بالنِّسبة له أساساً؟ لكنَّ العَبَث الذي يغمر عوالم «كانديد» Candide أو ميكروميغاس ساخرة وتهكُّميَّة: حيث تطيح ضحكاتنا بالبُنية المُتهالكة للقيَم السِّياسيَّة والدِّينيَّة الرَّجعيَّة التي أفسَدَت عصر فولتير التَّنويري. ومع ذلك، مع **الغريب**، ليس هناك أي دليلٍ على أنَّ التَّنوير سيؤدِّي إلى الفهم –أو على الأقل إلى شكل من أشكال الفهم التي يمكن أن يتعرَّف إليها فولتير.

بالطبع، قليلةٌ هي الأشياء التي تساعد بشكلٍ أفضل على تركيز العقل، من احتمال شَنق المَرء لنفسه في اليوم التَّالي. وَلكِنْ فِي حَالِ ميرسو، يَلْزَمُ أَوَّلًا أَنْ نتحدَّث عن تكوين رأي. نلاحظ تنامي الوعي الذَّاتي لدى ميرسو بعد سَجنه ومحاكمته بتهمة قتل العربيِّ.

أصبح يميل أكثر نحو التَّأمُّل، لكنَّ هذا التأمّل يقدّمه مجتمعٌ ينبذه أساساً: إنَّه غريبٌ فَقَدَ حَقَّه في العيش بين الرّجال والنِّساء. فقد أعلَنَ قاضي الادِّعاء، الذي أطَلَّ على روح ميرسو، أمام هيأة المُحَلَّفين مذهولاً أنَّه «لَم يَجِد شيئاً بشريًّا فيه». [٧١] وفي الواقع، كان الأمر كما لو أنَّ حاجزاً زجاجيًّا وُضِعَ بين القاضي وميرسو.

يرجع ميرسو في زنزانته المُنعَزِلَة إلى نفسه. ينامُ على سريره بعد مشاجرة عنيفة مع كاهِنٍ زائِر، ثمَّ يستيقظ ويتحوَّل وجهه إلى نافذة تطلُّ على سماء الليل. «**لأوَّل مَرَّةٍ، في تلك الليلة التي أحيا فيها مع الأبراج والنُّجوم، انفَتَحتُ على اللامبالاة اللَّطيفة للعالم**». [٧٢] ويُعيد هذا المشهد الأيَّام الأخيرة لجوليان سوريل، بطل ستيندال في رائعته «**الأحمر والأسود**». وتكثر الإشارات إلى الرِّوائي من القرن التَّاسع عشر في دفتر كامو، ويعبِّر في الكثير منها عن دهشته من أسلوب ستيندال الإبداعي، وأفكاره الثَّاقبة في الطَّبيعة البشريَّة. لكنَّ كامو تأثَّر بالقدر نفسه بصراع سوريل ضدَّ مستنقع النِّفاق والمظاهِر الذي نسمِّيه «**المجتمع**». وكما أدرَكَ ميرسو المحبوس في زنزانته عشيَّة إعدامه، يُدرِك جوليان أنَّه لم يكن يعرف السَّعادة الحقيقيَّة إلا كشابٍ شجاع؛ وأنَّه هو أيضاً، بعد أن طَرَد كاهناً مُلِحًّا من زَنزانته، يسلِّم نفسه لتأمُّلاته النهائيَّة؛ إنَّه هو أيضاً، في محاولته البائسة لإيجاد الوحدة والمعنى، يواجه العَبَث بدلاً من ذلك:

«تولَد ذبابة مايو في السَّاعة التَّاسعة من صباح يومٍ صيفيٍّ طويلٍ، لتموت في الخامسة بعد الظهر -كيف يمكن لهذه الذُّبابة أن تفهم معنى كلمة ليل؟». [٧٣]

ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّنا نجازف بالوقوع في فَخِّ اللا-تاريخيَّة من خلال الرَّبط بين العبث واستعادة فرنسا. كأيِّ مفهومٍ فلسفيٍّ، ولد العَبَث في زمانٍ ومكانٍ محدَّدين. وكما أشار تيري إيغلتون مؤخَّراً، بينما يفكِّر جميع الرِّجال والنِّساء في معنى الحياة، «**فإن البعض، لأسباب تاريخيَّة وجيهة، ينجذبون إلى التَّأمُّل فيها بشكلٍ أكثَرَ إلحاحاً من غيرهم**». [٧٤] وكما رأينا، كان هذا هو الحال مع فرنسا -وكامو- في عام ١٩٤٠.

وفي وقتٍ مبكِّرٍ من عام ١٩٤٦، أي بالكاد بعد أربع سنوات من نشر رواية «**الغريب**» و «**أسطورة سيزيف**»، بدأ الفيلسوف أ. ج. آير، الذي كان يعمل في السِّفارة البريطانيَّة في باريس المُحَرَّرة حديثاً، بالإصرار على حدود مصطلح «**العبث**» ومعناه. وفي مقالٍ له عن كامو، رفض الرَّسول الإنكليزي للوضعيَّة المنطقيَّة هذا المفهوم، بمعناه الحَرفيِّ، مُعتَبِراً أنَّه لا معنى له. وأشار آير أنَّ الفلاسفة الأنجلو-أميركيين لم يَفطُنوا للطَّريقة التي استخدم بها كامو مصطلحات مثل «**المنطق**» و «**العقل**». وكتب أنَّ مصطلح العَبَث اندَرَجَ في «ما يُطلق عليه فلاسفة كامبريدج الحداثيون «**رثاءً لا معنى له**». [٧٥] ومع ذلك، اعترف آير بوجود نقطة، قد تكون مُربِكة ومُحرِجة، كامنة تحت سطح النثر الذي قدَّمه كامو. ولا يمكن إنكار «**الأهمِّيَّة العاطفيَّة**» التي تتخلَّل المقال، يقول آير معترفاً:

«شخصيًّا، لديَّ تعاطفٌ كبيرٌ مع معايير القيمة التي يقرنها كامو هناك بمذهبه عن العبث». [٧٦]

وعلاوةً على ذلك، كان يعتقد أنَّ هناك مصداقيّةً ميتافيزيقيَّةً للأسئلة التي طرحها كامو. لكنَّ ذلك، بالنِّسبة لآير، مجرَّد ثناءٍ خافِت:

«إنَّها ميتافيزيقيَّة لأنَّها غير قابلة للإجابة عليها بالرُّجوع إلى أيِّ تجربة ممكنة». [٧٧]

بعد سنواتٍ عديدة، أعرَبَ آير في سيرته الذَّاتيَّة عن إعجابه بكتابات كامو وشخصيَّته، وذكر أنَّ الفرنسيَّ كان «**رجلاً يتمتَّع بقدرٍ عظيم من النَّزاهَة والشَّجاعةِ الأخلاقيَّة**». ويبدو أنَّ استقامته كانت كبيرة لدرجة أنَّه في اجتماعٍ بين الرَّجلين، وافق كامو على وجهة نظر آير القاتمة في تفكيره الفلسفيِّ. وحسب رواية آير، «**لَم يعترض كامو إلا على وصفي بأنَّه مُدَرِّسٌ للفلسفة في شبابه في الجزائر العاصمة، في حين أنَّه كان في الواقع لاعبَ كرةِ قدمٍ محترفًا**». وكَون كامو لم يَلعَب الكُرَةَ بشكلٍ احترافيٍّ يشير إلى أنَّ آير فشل في فهم لغة كامو الفرنسيَّة، أو حسِّهِ الفكاهي، أو ربَّما كليهما.[٧٨] وبشكلٍ أكثر وضوحاً، فشل آير أيضاً في فهم رسالة كامو الأساسيَّة في «**أسطورة سيزيف**». وفي نهاية المَطاف، فإن استنتاجه الرَّاضي عن الذات بعَدَم وجود إجابة لمثل هذه المخاوف «**الميتافيزيقيَّة**» يؤكِّد ببساطة على أيِّ شيءٍ ما عدا «**الرِّثاء**» الذي يشعر به كامو.

وفي أوائل السبعينيَّات، أعرَبَ الفيلسوف توماس ناجِل عن مزيجٍ مماثِلٍ من التَّسامح والتَّنازل. وذكر أنَّ معظم النَّاس «**يشعرون أحياناً بأنَّ الحياة عبثيَّة، وبعضهم يشعرون بعبثيَّتها**

بوضوح وباستمرار». ومع ذلك، فإنَّ الأسباب التي قدمت لتبرير هذا الإحساس «**غير كافية أو وافية**».[٧٩] وادَّعى ناجِل، مُرَدِّداً نفاد صبر آير الشَّكليِّ، أنَّ «**الحجج المعياريَّة للعَبَث فاشلة، وغير صالحة كحجَج**».[٨٠] ومع ذلك، يشعر ناجِل بوطأة الحقائق التي لا يمكن للقِيَاس المنطقي بلوغها. فعلى الرَّغم من أنَّ هذه الحجج متهافتة منطقيًّا، إلا أنَّها مع ذلك «**تحاول التَّعبير عن شيءٍ يَصعب ذكره، ولكنَّه واقعيٌّ بشكلٍ أساسيٍّ**».[٨١] وهو يسمح باستمرار هذه الحجج الفاشلة لأنَّها تعكس شيئاً حقيقيًّا ودائِماً في حياتنا: الصَّدمة التي نشعر بها عندما نخرج من أنفسنا ونتجاوزها ونتبنَّى «**وجهة النَّظر من العَدَم**»، ثمَّ نواجه فجأةً التَّناقض بين الأهمِّيَّة الكبيرة التي نُضفيها على أنشطتنا اليوميَّة، وانعدام أهميتها ومعناها في نهاية المطاف. إنَّ الأسباب التي افترضنا أنَّها أسباب كافية لا تبدو أقلَّ اعتباطيَّة وعشوائيَّة من الإعصار الذي يدمِّرُ مَنزلاً معيَّناً دون أن يمسَّ المنزل المجاور. وعند هذه النُّقطة، يعلن ناجِل:

> «هنا نرى أنفسنا من الخارج، وكلَّ ما تتضمَّنه أهدافنا ومساعينا من خصوصيَّة واحتمال واضح. ومع ذلك، عندما نأخذ هذا الرَّأي في عين الاعتبار ونعترف بأنَّ ما نفعله عَمَلٌ تعسُّفيٌّ، فإنَّه لا يفصلنا عن الحياة، وهنا تكمن عبثيَّتنا».[٨٢]

وهذه القدرة على «**النَّظر من العدم**»، تتفرَّد بها البشريَّة ومنسوجة في نسيج تفكيرنا، هي نعمة وجودنا ونقمته. وبدلاً من أن تكون نتيجة تصادم بين حاجتنا للعقل وصمْت العالم، يضع ناجِل إحساسنا بالعَبَث في «**التَّصادم بداخلنا**».[٨٣] ومع ذلك، فهذه الحالة

ليست سبباً للموقف «**الرُّومانسي والمثير للشَّفقة**» الذي يربطه بكامو. وبمجرَّد أن نفهم حقيقة تفاهَة وضعنا بالنِّسبة للعالم والكون، يَخلص ناجِل إلى أنَّنا يجب أن نتبنَّى موقفاً تَهكُّميًّا ساخراً بالنِّسبة لوضعنا.[٨٤]

وبعد مرور ربع قرنٍ آخر، تبنَّى تيري إيغلتون بدوره التَّحضُّر الهادئ الذي أظهره كلٌ من آير وناجِل:

«فالتَّحدِّي المأساوي لألبير كامو، عندما يواجه عالماً يفترض أنَّه بلا معنى، هو في الحقيقة جزءٌ من المشكلة التي يمثِّل رَدًّا عليها. من المُحتمل فقط أن تشعر بأنَّ العالم عديم الجدوى والمعنى بشكلٍ مُقَزِّز، على عكس العالَم القديم والبسيط وعديم الجدوى، إذا كنتَ قد ضخَّمتَ توقُّعاتك منه في المقام الأوَّل».[٨٥]

ولعلَّ المفارقة تبدو أسهل في عيون هؤلاء الذين عاشوا غالباً في أعقاب الحرب العالميَّة الثانية مقارنةً بأولئك الذين عايشوها. لكنَّ الفَرق بين آير، وناجِل، وإيغلتون من ناحية، وكامو من ناحية أخرى، ليس مجرَّد مسألة أسلوب. بل إنَّ الاستجابة السَّاخرة تتلخَّص في المرض الذي يُزعَم بأنَّه العلاج. وكما يقترح جيفري غوردون، فإنَّ علاج ناجِل «**يؤخَذ كعلامة على مرحلة جديدة من أزمَتنا الرُّوحيَّة، وهي المرحلة التي نحاول فيها، بعد أن سَئِمنا حزننا، إقناع أنفسنا بعدم أهميَّة المفجوع**».[٨٦]

إنَّ إلحاح كامو عند مواجهته سؤال المعنى، بعيداً عن كونه مسرحيًّا، هو الإقرار العميق بأبعاد المُشكلة. إنَّ الانفصال السَّاخِر

يرقى إلى مستوى ارتداء غمامة فلسفيَّة. ولكن بالنِّسبة للفَرد الذي يضعها جانباً، يكتب كامو:

«ليس هناك مَشهَدٌ أدَقُّ من مَشهد الذَّكاء القادر على الإمساك بواقع يتجاوزه... إنَّ تعرية ذلك الواقع الذي تشكِّل لا-إنسانيَّته عظمة الإنسان يعادل تعريته هو نفسه. عندها أفهم لماذا تلك العقائد التي تفسِّر كلَّ شيءٍ لي، تُضعفني أيضاً في الوقت نفسه. لقد خَلَّصَتني من عبء حياتي».[٨٧]

في الواقع، إنَّ الفلاسفة -سواءٌ كانوا من اللاهوتيين أو الإيديولوجيين على أقلِّ تقدير - مذنبون في هذا النَّشاط. ولكن في حين تقدِّم فئة معيَّنة من الفلاسفة المُحترفين في هيأة عقيدة، فإنَّ نوعاً آخر من الفلاسفة، أقرب إلى الفلاسفة الأخلاقيِّين، يطرحون أسئلة فقط. لاحَظَ روبرت سولومون أنَّ الحجج في «**أسطورة سيزيف**» غير صحيحة ومتخبِّطَة. ولكن هل يجب أن نصرَّ على تفسير هذه الحجج من منظور فلسفيٍّ مَحض؟. ومن هذا المنظور، فإنَّ ادِّعاءات كامو ليست أكثر صرامةً أو منطقيَّة من ادِّعاءات أفلاطون. ولكن هل يمكننا، بالتَّالي، أن نستبعد أفلاطون، أو كامو؟ وإن فعلنا ذلك، أوَليس القارئ، وليس المفكِّر، هو الذي يخون السبب الذي وُجِدَت الفلسفة من أجله؟. اقترح سولومون أنَّ هذا الرَّفض للجَدَل بمثل هذه المصطلحات المنطقيَّة الضَّيِّقة هو ما يجعل بعض الفلاسفة عظماء: «**قد يحاولون القيام بشيءٍ آخر: لجعلنا نفكر، لإعطائنا رؤية، ولإلهامنا لتغيير نمط حياتنا عن طريق العديد من الأدوات المختلفة، واحدة منها فقط هي الحجَّة**».[٨٨]

وهناك طريقة أخرى؛ من خلال تصوُّر شخصيات أسطوريَّة أو معاصرة: سيزيف من ناحية، أو قروي من شامبون من ناحية أخرى. اكتشف كامو أنَّ العبور من أحدهما إلى الآخر هو العبور من التَمَرُّد الفَردي ضدَّ عبثيَّة العالم، إلى التَمَرُّد الجماعي ضدَّ وحشيَّة الإنسان تجاه الإنسان.

*****

وبحلول أواخر عام ١٩٤٢، كان القرويُّون في شامبون المجاورة قد تحمَّلوا ثِقَلَ حياتهم الخاصَّة من خلال قبول عبء حياة الآخرين. وتحت قيادة قسِّيسهم أندريه تروكمي، كان أهالي شامبون على علمٍ تامٍّ بالمستقبل الذي كانت حكومة فيشي تعدُّه لليهود. وفي وقتٍ مبكِّرٍ من عام ١٩٤٠، عندما احتَضَنَت أمَّة مُجَطَة المارشال فيليب بيتان، رئيس حكومة فيشي، حافظ تروكمي على مسافة، ورفض في عام ١٩٤٠ التَّوقيع على يمين الوَلاء لبيتان أو قَرع أجراس الكنيسة في عام ١٩٤١ للاحتفال بعيد ميلاده. في هذه الحالات وما شابَهَها، تجنَّب تروكمي مواجهة السُّلطات بشكلٍ مباشر: تمسَّكَ بمعتقداته، ولكن دون تعريض كنيسته للخطر.

ولكنَّ كلَّ ذلك قد تغيَّر عندما تَزايدت أعداد اليهود الذين وضعوا نجمة سداسيَّة صفراء على ملابسهم الخارجيَّة سنة ١٩٤١، وخرجوا من المنطقة المُحتَلَّة وبدؤوا يشقُّون طريقهم إلى شامبون. ومن أجل إيواء هؤلاء اللاجئين، أدرك تروكمي الحاجة إلى مقاومة أكثر منهجيَّة وخطورة. وقد أكَّدَ الفيلسوف فيليب هالي أنَّ

تروكمي وزملاءه القرويِّين كانوا هُواةً. ولم يكن هناك معلِّمون، أو كتيِّبات تمهيديَّة، أو حتَّى كتيِّبات مقاومة يمكنهم الرُّجوع إليها. إنَّ إقامة خطوط اتِّصال مع الجماعات السِّريَّة الأخرى، وإيجاد منازِل إيواء آمنة، واستحداث أسماء مُستعارَة للاجئين، وتزوير أوراق وبطاقات هُويَّة، كلَّها أمور تتطلَّب درجة استثنائيَّة من التَّخطيط والرِّعاية. ومع ذلك، ظلَّت الجوانب العمليَّاتيَّة والتنظيميَّة للعمل على إنقاذ أرواح الآخرين مستمرَّةً.

وبالقدر نفسه من الأهميَّة، كانت عناصر المقاومة أقلَّ عمليَّاتيَّةً. وفيما كان القرويُّون يتلمَّسون طريق تأسيس منظَّمَة فعَّالة، لم يترددوا في مقاوَمة الحاجة إلى المقاومة. وقد نتجت وضوح رؤيتهم جزئيًّا عن التَّجربة التَّاريخيَّة لمجتمع الهوغونوتيين، ولكنَّها لا تقلُّ أهميَّة عن ذلك، إنَّها تعكس موقفاً أخلاقيًّا مارسه تروكمي طوال حياته كبالغ. فالمقاوَمة، أوَّلاً وقبل كلِّ شيء، طريقة لرؤية العالم، طريقة تبرز الواجب الأخلاقي المُتَمَثِّل في الاعتراف بكرامة كلِّ فردٍ من أفراد الجنس البشري واحترامها.

نتيجةً لهذا، بحلول الوقت الذي بدأ فيه مواطنوهم الفرنسيُّون من الرِّجال والنِّساء في إدراك طبيعة حكومة فيشي الوحشيَّة، كان أهل شامبون يدركون بالفعل ماذا يتعيَّن عليهم أن يفعلوه. وهذا ينطبق على شيء يبدو بسيطاً مثل رفض التَّوقيع على قَسَم الوَلاء، أو على شيء أكبر بكثير ـ عندما سَلَّمَ شباب القريَّة رسالة إلى وزير حكومي زائر، معلنين أنَّهم لن يقبلوا أبداً طريقة تعامل النظام ضدَّ اليهود. وذلك ينطبق، بطبيعة الحال، على إنقاذ أرواح أكثر من ثلاثة

آلاف من البالغين والأطفال اليهود بإلحاقهم مع أسرهم، أو إخفائهم في المنطقة، أو إخراجهم من البلاد. وكما كتبت أيريس مردوخ، فإنَّ رؤية العالم بوضوحٍ ثابتٍ تعني أنَّه عندما يحين الوقت لاتِّخاذ خيارٍ أخلاقي، يكون الخيار قد تمَّ اتِّخاذه بالفعل.[٨٩]

*****

ربما لَم يَعف الزَّمن على العبث على الإطلاق. خُذ أيُّوبَ مثلاً. جميعنا نعتقد أنَّنا نعرف القصَّة التَّوراتيَّة - حتى نتذكَّر القصَّة المحصورة بين بدايتها ونهايتها. إذا قرأنا فقط الإصحاحين الأوَّل والأخير، نلتقي بالرَّجل الذي نعرفه جميعاً: ذلك الرَّجل في أرض أوز الذي يُكافَأ على مخزونه اللامتناهي من الصَّبر والإيمان بإله. إذا قرأنا الفصول الأربعين بينهما - المقاطع التي يعتقد العلماء أنَّها أقدم من الفصلين الافتتاحي والختامي - نقابل رجلاً في مواجهة نظامٍ كونيٍّ يمحو كل اعتقادٍ كان لديه بشأنه.

تذكَّروا ماذا حدث: عندما يُثني الرَّبُّ على خادمه أيُّوب ويمتدحهُ، يراهن خَصمُهُ - الاسم الذي يطلقه روبرت ألتر على الشيطان في ترجمته للكتاب المقدَّس[٩٠] - قائلاً: إذا أخذت كل ما أعطيته للرجل منه، أراهن أنَّه سيلعنك ويتبرَّأ منك. يقبل الرَّبُّ رهان الخَصم، ويتنزَّل كلّ الجحيم في حياة أيُّوب الأرضيَّة. فقد خسر قطعانه، وخُدَّامه، والأهمُّ من ذلك، أولاده. وكَرَكلة أخيرة لجسم أيُّوب المُنهار، قام الخَصم - بموافقة الرَّبِّ بالطبع - بإصابته بدمامل متقرِّحة من باطن قدمه إلى تاجه. وعلى غرار الأصدقاء

الثَّلاثة الذين يجتمعون ليندبوا مع أيُّوب، يرغب القرَّاء أيضاً في البكاء، حتَّى أنَّهم قد يُمَزِّقون ثيابهم، ويذرون التُّراب على رؤوسهم، ثم يجلسون في صمْت سبعة أيَّام. يبدو أنَّنا نحتاج على الأقل إلى ذلك القدر من الوقت لمحاولة فهم الأبعاد الأخلاقيَّة والفلسفيَّة لهذه القصَّة. أين تترك سلسلة الكوارث -التي لا يمكن تفسيرها- هذه أيُّوب الذي لا يستحقُّها؟ إنَّها تتركه، بكلِّ بساطة، جالساً فوق كومةٍ من الرَّماد، يكشط الدَّمامل المُتَقَرِّحَة بقطعةٍ من الفَخَّار، وهو يبحث عن إجابة شافية لَما ألَمَّ به.

يلجأ أيُّوب أوَّلاً لأصدقائه ليحصل منهم على إجابة، وجميعهم يُصِرُّونَ -كلٌّ حسب طريقته- على أنَّ عقاب أيُّوب لا بدَّ أن يكون عادلاً، نَظَرًا لطبيعة الرَّبِّ. لكنَّ هذا الجواب في نَظَر أيُّوب ليس مجرَّد افتراء -فهو يعرف أنَّه لم يَفعل شيئاً خاطئاً ليستحقَّ غَضَبَ إلهه- لكنَّه فَشِلَ أيضاً في الخيال الأخلاقي. يتمسَّك الأصدقاء بموقفٍ معيَّنٍ -أي إيمانهم بعالمٍ تحكمه العدالة الإلهيَّة- مكتشفين بيأسٍ، من خلال كلماته وتجاربه، الفَراغ المُطلَق لقناعته هذه. في منتصف القصَّة، يرفض أيُّوب إمكانيَّة المُواساة، ناهيكَ عن التَّفَهُّم، من أصدقائِهِ. وبدلاً من ذلك، جعلوه «**غريباً في نظرهم**».

ومن المؤسف أنَّ السَّماوات لا تبدو أقلَّ تصميماً على إبعاد أيُّوب وإقصائه. فبينما هو يتابع سلسلة تساؤلاته تبقى السَّماء صامتة. «ها إنِّي أصرُخُ ظُلماً فَلا أُستجابُ. أدعو وليس حُكمٌ. قد حَوَّطَ طريقي فلا أعبُرُ، وعلى سُبُلي جَعَلَ ظلاماً. أزالَ عنِّي كَرامتي ونَزَعَ تاج رأسي». في الواقع، يُصبِحُ صمْت العالَم صمْتاً

فقط عندما يدخل البشر في المعادلة. إنَّ أيُّوب يبحث عن إجابةٍ أو مَعنًى، لا يقلُّ عبثيَّة عن أن يَسأل نفسه ماذا عليه أن يفعل إذا لَم يَعثر على معنى؟ فما هي خطوته التَّالية إذا لم يظهر المعنى في الموعد المُحَدَّد «لكن أين نَجِدُ الحكمة؟ / وأينَ مكان الفَهم؟».

من عجيب المفارقات أنَّ المشكلة التي تواجه أيُّوب تكمن بالنِّهاية في صمْت الرَّبِّ أكثر من ما تكمُن في كلماته. وأخيراً، يستيقظ الرَّبُّ ويتكلَّم من خلال زوبَعَة، مطالباً «مَنْ هذَا الَّذِي يُظْلِمُ الْقَضَاءَ بِكَلامٍ بِلا مَعْرِفَةٍ؟ اُشْدُدِ الآنَ حَقْوَيْكَ كَرَجُل، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي. أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ». يُطلق صوت الزَّوبَعَة عشرات الأسئلة المُشابهة، وجميعها لا تمتُّ بصلةٍ إلى بحث أيُّوب عن المعنى. وبعد انتهاء هذا الامتحان، يعترف أيُّوب أنَّه لم يكن يملك الحقَّ في أن يطالِبَ بمعرفة أسباب معاناته. ويبدو أنَّ عدم التَّناسب المُطلق بين نظرة الرَّبِّ ونظرة أيُّوب سَبَبٌ وجيهٌ وكافٍ.

وفي نهاية المطاف، يكتشف أيُّوب أنَّه يعيش في عالمٍ مُجَرَّدٍ وخالٍ حيث تستنزف غرابته ولامبالاته أيَّ مُحاوَلَةٍ للفَهم. واستجابةً لَمطلبه بالحصول على أجوبة، يَصمْت في البداية، ثمّ يَلي الصَّمْتَ كلماتٌ تنكر إمكانيَّة وجود معنى. هنا، يُذعِنُ أيُّوب بالطبع. وهنا يَكمُن العَبَث. ولكن هل هناك، في النِّهاية، فرقٌ بين صمْت كَونِ كامو، وصوت جواب الرَّبِّ وغضبه؟ إنَّ الكلمات التي تدور وتخرج من زَوبَعَة الغضب والعِناد، ولكن لا يحتاج المَرء أن يكون مارتن بوبر ليُدرك أنَّ الرَّبَّ لا يستجيب أبداً لإصرار أيُّوب على

أن يكون لكلِّ ما حَدَثَ معنى ما. يتركنا مؤلِّف كتاب أيُّوب مع الشُّعور نفسه الذي يشعر به مؤلِّف **أسطورة سيزيف**: لا معنى لوجودنا. فَعِوَضاً عن أن نتنفَّس الصُّعَداء مع أيُّوب الذي كافأه الإله على ولائِهِ، علينا أن نواجِه أيُّوب الذي يستجيب لجهود الرَّبِّ الصَّامتة والمُخَيِّبَة للآمال في تبرير الذَّات بصمْت.

وفي الحقيقة، يقترح مارتن بوبر أنَّ أيُّوب، بعد أن فشل في سعيه لتحقيق العدالة في العالَم، لا يجدها إلا في داخله. فمع قصَّة أيُّوب، يتابع بوبر، «**نَشهَدُ أولى تباشير المَسعى البشري في شكل كلام**».[٩١] فأيُّوب الصَّامت، وليس أيُّوبُ المُتَذَلِّل، هو أيُّوب كامو – وربَّما كان أيُّوب المؤلِّف الأصلي أيضاً. وكما يشير جاك مايلز، بعد هذا الكتاب، لم يتحدَّث الرَّبُّ مَرَّةً أخرى في الكتاب المقدَّس. ويشير أنَّ كلمات الإله الأخيرة، كما يقول:

> «هي تلك التي يتحدَّث بها الرَّبُّ إلى أيُّوب، الإنسان الذي لا يَجرُؤ على تحدِّي قوَّته الجسديَّة فقط، ولكن سلطته الأخلاقيَّة..... وبقراءة كتاب أيُّوب من نهايته فصاعداً، نجد أنَّ أيُّوب هو الذي أسكَتَ الرَّب بشكلٍ ما».[٩٢]

وفي النِّهاية، لدينا كتابان مختلفان للحكمة، ومؤلِّفان مختلفان، لكنَّهما ربَّما يقدِّمان الدَّرس نفسه.

*****

ولكن ما مدى أهمِّيَّة هذا الدَّرس في فرنسا في زمن الحرب؟ في عزلة لو بانيلييه، بدا كامو محميًّا من الأحداث غير العاديَّة

التي تتكشَّف ببطءٍ في شامبون. ليس هناك أيُّ أثرٍ مباشرٍ في مُذكِّراته أو مُراسلاته التي تكشف عن معلومات حول أنشطة الإنقاذ على الطَّريق من المزرعة. ولعلَّ ذلك أمرٌ طبيعيٌّ: فإذا لم يَكُن كامو على علمٍ بهذه الأنشطة، فلن يتمكَّن من سَردها؛ وإذا كان يعلم بها، فَلَن يَسرُدها لأسبابٍ أمنيَّة. في حين أنَّ أفراد العائلة لا يتذكَّرون أي سَردٍ للأحداث من قِبَل كامو في شامبون، يدَّعي عددٌ من المعاصرين أنَّ كامو كان على علمٍ بهذا المشروع على أقلِّ تقدير. ذلك أنَّ بعض المتقاعدين في لو بانيلييه كانوا هم أنفسهم لاجئين يهوداً. وهذا أحد الأسباب التي دفعت أندريه شوراك، دليل كامو للكتاب المقدَّس العبريِّ، إلى الإصرار على أنَّ صديقه «**كان على علمٍ دائماً بالمقاومة التي أنشأها القسيسان تروكمي وثيس في لو شامبون سور لينيون**».[٩٣] وهناك سببٌ آخر هو أنَّ أسماء العديد من الشَّخصيات في الرِّواية التي كان يقوم بصياغتها الآن، الطاعون، كانت متوازية مع أسماء شخصيَّات محليَّة. وعلى الأخَصِّ، يبدو أنَّ راوي القصَّة (وبطل) الرِّواية، الدكتور ريو Dr. Rieux، مستوحى من شخصيَّة الطَّبيب في شامبون، د. ريو Dr. Riou.

ولكن في النهاية، تُطرح أسئلة على غرار «ماذا كان يعرف، ومتى كان يعرف؟»، وهي أسئلة ببساطة غير ذات صلة. لأيِّ سببٍ كان، بحلول أواخر عام ١٩٤٢ كان كامو قد بدأ في إعادة النَّظر في حدود العَبَث. وقد تساءل في مذكِّراته ماذا سيكون العالم بالنِّسبة لمفكِّرٍ أعلَنَ فجأةً:

«كنتُ حتى الآن أسير في الاتجاه الخاطئ. سأبدأ من جديد. سيضحك عليه العالَم بالطبع. ولكن لا ينبغي لذلك أن يثني المُفكِّرَ النَّزيه عن ذلك. وهو دليل إضافي على أنَّه يستحقُّ التَّفكير».[٩٤]

وقد تقبَّلت هذه المرحلة الجديدة من التأمُّل والتَّفكير حقيقة أنَّ العالم عَبَثيٌّ - تشخيصٌ لا مَفَرَّ منه للحالة البشريَّة. ولكن في الوقت نفسه، أدركَ كامو أنَّه لم يكن أكثر من مجرَّد تشخيص. ومن ثمَّ اعترف في مقدِّمة الطَّبعة الأمريكيَّة من **الأسطورة** أنَّ المخاوف الأساسيَّة التي دفعته إلى كتابة **أسطورة سيزيف** ما زالت موجودة. على الرغم من أنَّه «**تجاوَزَ العديد من المواقف المُحَدَّدة**» في الكتاب، كتب كامو: «**إلا أنِّي بَقيتُ مخلصاً، كما يبدو لي، للضَّرورة التي حفَّزتها**».[٩٥]

وفي عام ١٩٤٢، كتب كامو في كتابه أنَّ العَبَث: «**لا يُعَلِّمُ شيئاً**».[٩٦] وبدلاً من النَّظر إلى أنفسنا، كما فعل سيزيف أو ميرسو أو حتى أيُّوب، يجب أن ننظر إلى الآخرين: نحن، يقرُّ كامو، محكومٌ علينا بالعيش معاً في هذا العالم الصَّامت. وعندما أمَرَ مسؤولٌ في حكومة فيشي أندريه تروكمي بإخباره عن مكان وجود اللاجئين اليهود، أجاب القسُّ: «**نحن لا نعرف ما هو اليهودي. نحن نعرف النَّاس فقط**».[٩٧] في الفترة نفسها، رَدَّدَ كامو صدى هذا الشُّعور: «**بؤس هذا العالَم وعظمته: إنَّه لا يقدِّم حقائق، بل مجرَّد مواضيع للحُبِّ. العَبَث مَلِك، والحُبُّ ينقذنا منه**».[٩٨]

الفصل الثاني

الصَّمْت

في البداية كان هناك صمْت. وفي نهاية رحلة ليليَّة بالقطار في مَقصورة من الدَّرجة الثَّالثة من العاصمة الجزائر، وصل الزَّوج والزَّوجة، الحامل منذ أشهر عدَّة، إلى بون، وهي مدينة صغيرة تقع على السَّاحل الشَّمالي الشَّرقي للجزائر. وبينما كانت الزوجة تراقب، ساعد الرَّجل سائقاً عربيًّا في تحميل حقائبهما القليلة في عربة تجرُّها الخيل في انتظار نقلهما إلى المزرعة التي عُيِّنَ الزَّوج لإدارتها. أدَّت الرِّحلة المُزعجة على الطرقات المَليئة بالحُفَر والموحِلَة إلى تسريع الولادة، لأنَّ الزوجة بدأت تعاني من آلام المخاض في العربة. وعندما وصل المسافران إلى وجهتهما، كانت المرأة «**تبكي بصمْت**» من الألم. وَصَلَ الطَّبيب المَحَلِّي، ووضع سريراً مؤقَّتاً أمام الموقد، ووُلِدَ صبيٌّ. وفيما كان المطر يَنهَمر،

نـام الرَّضيـع ووالـداه في صمْـت منزلهـم الجديـد.

أو، ربَّما، كانـت البدايـة كلمـة. يبـدو أنَّ روايـة كامـو عـن ولادتـه، التي تبـدأ بهـا روايتـه الأخيرة وغير المكتملـة «**الرَّجـل الأوَّل**»، تستند إلى قصَّـة عائليَّـة. كيـف يمكـن أن يكـون خـلاف ذلـك؟ ليـس هنـاك شـاهدٌ عـلى ولادتـه. يبـدأ القدِّيـس أوغسـطين، الـذي أنهـى حياتـه كأسـقف لهيبـو (كـما كانـت بـون معروفـة آنـذاك)، **اعترافاتـه** بسَرد قصَّـة ولادتـه. ولكـن كـما أشـار عـلى الفـور، لا يمكنـه أن يشـهد عـلى ذلـك بنفسـه. وبـدلاً مـن ذلـك، وَجَـبَ أن يعتمـد عـلى روايـات الآخريـن:

«قـد سـمعت مـن والـدَي جسـدي، مـن أيـن وممـن صنعتـماني في الوقـت المناسـب؛ لأنِّي أنـا نفسـي لا أتذكَّـر».[١]

في **الاعترافات**، يحـاول «**الشَّـمال الأفريقي الآخـر**»، كـما أشـار كامـو بتلطُّـف إلى أوغسـطين، فَهـم أصولـه. وكذلـك فعـل كامـو في عملـه الأخـير. يَسـتجوب أوغسـطين الإلـه عـن العـالم وعـن نفسـه، لكنَّـه لا يتلقَّـى سـوى الصَّمْـت في المقابـل. وعـلى المنـوال نفسـه، يُسـائل بطـل روايـة كامـو، جـاك كورمـيري، ماضيـه ولا يجـد سـوى الصَّمْـت. ومـن الصمْـت الـذي يغلِّـف حادثـة ولادتـه، ينتقـل كورمـيري إلى الصمْـت الـذي يحيـط بوفـاة والـده. قُتِـلَ عـام ١٩١٤ في معركـة المـارن عندمـا كان ابنـه الأصغـر بالـكاد يبلـغ مـن العمـر سـنةً واحـدةً، ولم يـترك لوسـيان كامـو وراءه سـوى القليـل. شـظايا مـن القذيفـة التـي أزيلَـت مـن جمجمتـه؛ وصليـب الحَـرب؛ ورسـالة رسـميَّة تُعلِـن وفاتـه؛

وصورة غير واضحة لشاب بعينين لوزيَّتين: القطع التي خلَّفتها حياة والده.

وعلى غرار العديد من ذوي الأقدام السُّود، دُفن لوسيان كامو في تراب فرنسا؛ في حالته، بمقبرة عسكريَّة في سان بريك، وهي مدينة صغيرة في بريتاني. في عام ١٩٤٧، زار كامو المقبرة بصحبة الرِّوائي لويس غيو، الذي كان يعيش خارج المدينة. اصطحبَ الكاتب الأقدم كامو إلى المنطقة المحجوزة للجيش، وبقي هناك فيما سار كامو الى لوحٍ حجريٍّ بسيط محفور عليه اسم أبيه وتاريخ ولادته ووفاته. وعندما عاد إلى غيو، لم ينطق كامو بكلمة واحدة. في رواية **الرجل الأول**، يعيد كامو هذه الزِّيارة: بينما كان كورميري يحدِّق «**بفَراغٍ**» في الحجر، لاحظ سُحُباً تَعدو فوقه. وفي كلِّ مكان، «**ساد الصَّمْتُ في حقل الموتى الشَّاسع. لا شيء سوى همس مكتوم من البلدة جاء فوق الجدران العالية**». وعندما يسمع كورميري «**قَعقَعَة دلوٍ على رخام شاهدة قبرٍ**»، ينقطع شروده. ثمَّ يرى لأوَّل مرَّة التَّاريخ تحت اسم والده: «١٨٨٥-١٩١٤». ويتعمَّق صمْته مع إدراك حقيقة أنَّ «**الرَّجل المَدفون تحت ذلك اللوح، الذي كان والده، كان أصغَرَ منه سنًّا**».

تؤدِّي هذه الصَّدمة إلى تحرير مَوجَة عارِمَة من الذِّكريات، التي يغمر معظمها الصمْت. وكان شبابه «**يَجهَدُ دوماً نحو هذا الهدف الذي لا يعرف عنه شيئاً**»؛ وفجأة، كل شيء يبدو مرتبطاً بهذا الرَّجل الذي يعرف فقط أنَّه يشبهه، ولكن ماذا عساه أن يفعل «**في عائلة لا يتكلَّمون فيها إلَّا قليلاً، حيث لا أحد يقرأ أو يكتب، مع أم تعيسةٍ**

وباردة، مَن كان سيخبره عن هذا الأب الشَّاب المُثير للشفقة». [٢]

*****

يصرُّ ماكس بيكارد في عمله المتميِّز والمُقنِع غالباً «**عالَم الصَّمْت**» على أنَّ الصَّمْت ليس مجَّرد أمرٍ سلبيٍّ ببساطة ـ مجرَّد غيابٍ للكلام أو ما لا نسمعه عندما يتوقف الآخرون عن الكلام، وتتوقَّف الآلات عن الطَّنين، وتتوقَّف أجهزة الرَّاديو والشَّاشات عن إصدار ضوضاء. بل على العكس، إنَّه موجودٌ بمَعزلٍ عن اللغة والضَّوضاء؛ إنَّه «**عالمٌ كاملٌ في حَدِّ ذاته. للصَّمْت عظمةٌ فقط لأنَّه كذلك ببساطة. تلك هي عظمته البحتة بكل صفائها ونَقائِها**». [٣]

إنَّ ملاحظة بيكارد أنَّ الصَّمْت، مع أنَّه ليس مرئيًّا ولا مُحَدَّداً، له حضورٌ واضحٌ ومُحَدَّدٌ في العالَم، يغمرُ ذكريات كامو عن طفولته. كانت جدَّة كامو، كاثرين ماري كاردونا سينتيس، قد اعتنت بوالدته وشقيقه الأكبر عندما مضى لوسيان إلى الحرب. وبموته، أصبحَ مكان إقامتهم المؤقَّت في حَيِّ الطَّبقة العاملة في بيلكورت، دائماً. كانت (كاثرين سينتيس) أرملةً، وأمًّا خشنة، وأمِّيَّة ومُباشَرة. فَبَدَل أن تتكلَّم أو تصيح، كانت أحياناً تصفع كامو وأخاه الأكبر لوسيان، أو تجلدهما.

وكان أحد إخوَة الجدَّة، إتيان، يقيم أيضاً في الشَّقَّة. وكان هذا الرَّجل القويُّ البنية، على غرار ابنة أخته كاثرين، غير قادرٍ على السَّمع أو التَّكلُّم إلَّا بصعوبة. وبما أنَّ إتيان كان تاجر براميل، كان يصطحب كامو الى ورشة صُنع البراميل، أو إلى الرِّيف للقيام

برحلة صيدٍ في يوم الأحد. فيما يتعلَّق بماضيه، كل ما تعلَّمه كامو من إتيان هو أنَّ الابن لديه «**رأسٌ صلبٌ**» مثل والده: «**كان يفعل ما يريد، دائماً**». ونظراً لعدم قدرته على التَّعبير عن نفسه بالكلام، كان إتيان بدلاً من ذلك» **يُصدِرُ مجموعةً متنوِّعةً من الأصوات ليُعَبِّرَ عن ما يَجول في خاطره**».[٤]

كان إتيان يؤدِّي أيضاً إيماءات متقنة، شكلا صامتا من السَّرد الرِّوائي لا يقتصر على شقَّة العائلة. بعد ظهر يوم الأحد، كان كامو الشَّاب يصطحب جدَّته إلى دار السينما المحلِّيَّة. كانت الأفلام صامتة، ولكنها لم تكن خالية مِنَ الكلمات: حيث حَمَلت عديد من الإطارات حواراتٍ أو تعليقات توضيحيَّة. كانت الجدَّة غير قادرةٍ على القراءة، وتوقَّعت من كامو أن يقرأ بصوتٍ عالٍ في هذه اللحظات -وهي مَهمَّةٌ صعبة: فعندما يتحدَّث بصوتٍ عالٍ كان ذلك يُزعج روَّاد السِّينما الآخرين، ولكنَّ التَّحدُّث بصوتٍ خفيضٍ كان يزعج جدَّته. وبين فكَّي هذه الكَمَّاشة المتضاربة، يصمْت الولد أحياناً. وهذه المرَّة أشعَلَت غضب جدَّته. ولَّما كانت غير قادرة على فهم الفيلم، خرجت من السينما، وتَبِعَها كامو باكياً، «**مُنزَعجاً من فكرة أنَّه أفسد واحدة من مَلَذَّات تلك المرأة المسكينة النَّادرة، وأنَّه قد تمَّ دفع ثمن ذلك من أموالهم الشَّحيحة**».[٥]

ولكنَّ كاثرين سينتيس كانت أعمق مَصدرٍ للصمْت في حياة كامو، على الرغم من أنَّه كان قَصِيًّا وبعيد المنال. عندما عاد الشَّاب كامو إلى الشَّقَّة، كانت والدته هناك معظم الأحيان. ومع ذلك، لم تكن حاضِرَة. كانت تجلس على كرسي قرب النافذة

وتُحَدِّقُ إلى الخارج بصمْت. كان النَّاس يسألونها أحياناً: «**بماذا تفكِّرين؟**»، وكانت تجيب: «**لا شيء**». وكان ذلك صحيحاً. إنَّها لا تفكِّر بشيء. في الخارج، كان هناك الضَّوء، والضَّوضاء؛ هنا، كان صمْت الليل.[٦] وفي هذه المَقالة المبكرة، التي تحمل عنوان «**بين نعم ولا**»، يعترف كامو بأنَّ «**صمْتَ والدته الحيوانيَّ يجعله يرغب في البكاء من شدَّة الألم**». الشّفقة تغمر قلبه، ولكن هل هكذا هو الحُبُّ؟ هل يمكنه أن يحبَّ شخصاً لم يسبق له أن قبَّلَهُ أو عانَقَه من قبل؟ يَقِف كامو عند المَدخل، ويُحَدِّق في والدته، ويلمح معاناة عميقة، إلَّا أنَّ والدته، الصَّمَّاء والمشغولة بأفكار لا يمكن فهمها، ليست على دراية بوجود ابنها. «**فالصمْت يمثِّل وقفةً مؤقَّتةً، لحظةً طويلةً جداً. يدرك الطِّفل هذا الأمر بشكلٍ غامض، ويعتقد أنَّ اندفاع المشاعر فيه هو حُبٌّ لأُمِّه. ولا بدَّ أن يكون ذلك حقيقيًّا، لأنَّها في النِّهاية أمُّه**».[٧]

قيل إنَّ والدة كامو كانت تتحدَّث بسهولة وسلاسَة كامرأة شابَّة، تماماً كما كان يُعتَقَد أنَّ صدمة وفاة زوجها في معركة المارن تركتها بلسان أعوَجَ. ولكن من المؤكَّد أنَّ كاثرين انتقلت مع ابنيها ألبير ولوسيان إلى شقَّة أمِّها في بيلكورت، حيث أمضت بقيَّة حياتها هناك كعاملة تنظيف. كانت كلماتها نادرة في معظم الأحيان، ولم تكن تتحدَّث إلا عندما يخاطبها الآخرون، حتَّى بعبارات موجَزَة. ولكنَّ حضورها، مثل الشَّمس التي لا يمكن رؤيتها، مارس ضغطاً هائلاً على ابنها ـ الشَّمس التي كانت تشعُّ صمْتاً قيظيًّا لاذعاً حمله معه طوال حياته.

تحتلُّ صورةُ الأمِّ الصامتة محور كتابات كامو أكثر من البحر حتَّى: فهي الشَّمس، أو ربَّما المادَّة المُظلمة، التي ينجذب نحوها كلُّ شيءٍ آخر. إنَّ موت والدة ميرسو هي النُّقطة التي رسمت بداية انحلال حياته وتفكُّكها؛ إنَّ وجود والدة ريو الخالي من الكلمات في الغالب هو الذي يَمنع انهيار عالمٍ يَجتاحه الطَّاعون؛ وتحت نظرة والدة كورميري الصَّامتة، يبدأ الأخير رحلة البحث عن ماضيه. عندما بدأ برسم معالمِ **الرَّجل الأوَّل** خلال السَّنوات الأخيرة من حياته، وصف كامو الرِّواية بأنَّها «**رحلة من أجل اكتشاف سرِّه: إنَّه ليس الأوَّل. كل رجلٍ هو الرَّجل الأوَّل، ولا أحد هو. ولهذا السَّبَب يرمي نفسه عند قَدَمَي أمِّه**».

وقبل وقتٍ قصيرٍ من وفاته، وصف كامو هدفه الأدبيَّ: تأليف كتابٍ يكون محوره «**الصمْت الرَّائع لأمٍّ، وجهود رجلٍ واحدٍ لإعادة اكتشاف العدالة أو الحبِّ الذي يتماشى مع هذا الصمْت**». [٨] أنا لست متأكِّداً ممَّا كان يقصده كامو بهذا الادِّعاء. إنَّه يُشير إلى أنَّ عُمقَ الصمْت الأموميِّ لا يمكن، في الواقع، أن ينعكس بشكلٍ كاملٍ على الابن. وفي مذكِّراته **إلى الرَّجل الأخير**، يُصارع كامو حقيقة أنَّ كلَّ كتاباته، وجميع أعماله، مُكَرَّسَة لامرأة لا تستطيع القراءة ولا تتحدَّث كثيراً «**أكثر ما أراده في العالم، وهو أن تتمكَّن والدته من قراءة كلِّ ما يشكِّل حياته وكيانه، كان مستحيلاً. إنَّ حبَّهُ، حبَّه الوحيد، ستكون خَرساء إلى الأبد**». [٩]

*****

إنَّ الغياب الذي نواجهه عندما نُجهِد آذاننا ولا نَسمع شيئاً، بدلا من أن يكون نتيجةً للتَّوقُّعات البشريَّة، هو بالأحرى قوَّةٌ إيجابيَّةٌ، قوَّةٌ أكبر بكثير وأقدم مِنَ البشريَّة، وربَّما أقدم من العالم نفسه. في أدب كامو ومقالاته، يؤطِّر العالم هذا الصمْت البدائي؛ المَناظر الطبيعيَّة هي مراحل صامتة؛ فالصَّحاري، والجبال، والهضاب، والسَّواحل، تؤكِّد الصمْت الذي كان سائداً قبل مجيء الإنسان.

في أوائل عام ١٩٣٧، نظَّم مسرح Théâtre du travail، وهو مجموعة مسرحيَّة للهواة في الجزائر العاصمة، أداءً لمسرحيَّة إسخيلوس «**بروميثيوس مقيَّداً**»، مستوحاة من النَّموذج الشِّيوعي لجعل الفَنِّ في مُتَناول الطَّبقة العاملة، ومعظمهم كانوا من الطُّلاب والفنَّانين من الطَّبقة المتوسِّطة والشَّباب تشكَّلت عام ١٩٣٥. كان كامو هو الاستثناء الأكبر؛ ينحَدِرُ من حَيِّ الطَّبقة العاملة في بيلكورت، كان الطَّالب الشَّاب القوَّة المميَّزة وراء الفرقة. انخَرَط بعمقٍ في الحياة السِّياسيَّة للمدينة ـ خلال هذه الفترة انضمَّ لفترة وجيزة إلى الحزب الشِّيوعي الجزائري ـ رأى كامو المسرح كوسيلة للفعل في العالم وكذلك التَّمثيل أمام الجمهور. وبعد عرض مسرحيَّة «**زَمَن الازدراء**» لأندريه مالرو في عام ١٩٣٦، قرَّرَ كامو اللجوء إلى إسخيلوس. وكما هو الحال مع مقال مالرو، تمَّ استدعاء عمَّال عاطلين عن العمل للحضور مجَّاناً واقتسام عائدات الدُّخول.

ولا يَسَعُنا أن نَتَساءَل فقط عن عجائب ما صنعوه من قصَّة المأساة ـ يساعد بروميثيوس الإنسان بمنحه النَّار الإلهيَّة لتحقيق حرِّيته، ليُعاقبه زملاؤه الآلهة على ذلك ـ ولكن أيضاً التَّصميم

الرَّائع للمسرح والأزياء المذهلة. ارتدى جميع الممثِّلين أقنعة، باستثناء بروميثيوس، الذي كان يرتدي ملابس سوداء بالكامل. تولَّى كامو مَهمَّة تكييف التَّرجمات الفرنسيَّة المتوفِّرة، ولكن «**الثَّقيلة جدًّا**» في الإنتاج.[١٠] ولا عَجَبَ أن يبدو بروميثيوس كامو أقلَّ انشغالاً بمصير الجنس البشريِّ -البشرُ أحرارٌ ويخترعون بحرِّيَّة، بفَضل هِبَة النَّار - من عذابه الأبديِّ. إنَّه يَطلب من الطَّبيعة أن تَشهَدَ على عقابه، لكنَّه لا يعرف كيف يتحدَّث عنه: «**كيف يمكنني العثور على الكلمات التي تصف هذه القوَّة التي تدمِّرني، ولكن كيف يمكنني أن أبقى صامتا حيالها**».[١١] وغنيٌّ عن القول أنَّ الطَّبيعة لا تجيب -على الأقل بالكلمات. بدلاً من ذلك، تنتهي المسرحيَّة مع بروميثيوس عارياً أمام «**الرِّياح القارسة**».

مثلما يحدث في كسوف الشَّمس، يَتداخل مَداران من الصَّمْت: الحقيقة المُسَبِّبَة للعمى وغير القابلة للنَّقل المتمثِّلة في ألم بروميثيوس، والظِّلُّ الذي يلقيه عالمٌ غير مبالٍ وصامت. ومرَّةً بعد أخرى، يجد بروميثيوس نفسه واقعاً بين الرَّغبة في الكلام، وإدراكه عَدَمَ جدوى ذلك: «**ولكن ماذا أقول؟ أعرف مقدَّماً كلَّ شيءٍ سيحدث بالضَّبط**». ثم، مرَّةً أخرى: «**يؤلمني أن أقول هذه الأشياء، ولكن من المؤلم أيضاً أن أصمْت**». ويتفاقَم هذا الصمْت، جزئيًّا، من فشل بروميثيوس بإيجاد كلمات كافية للمهمات المَطروحة؛ فهي تتهجَّى انهيار اللغة. ولكنَّها تُنبئ أيضاً بصمْت مختلفٍ أعظم ينتظره بروميثيوس، صمْت يُناشدُ مخيلة البشر، عالَمٌ لن يجد فيه «**صوتاً أو شكلاً للإنسان**».

وفي وقتٍ لاحقٍ من العام نفسه، واجه كامو هذا الصمْت الأكبر الذي حَمَلَته الرِّياح اللاذعة عند خرائب مدينة «جميلة» الرُّومانيَّة. في طائرة تقودها ماري فيتون، وكانت صديقة وزميلة في مسرح العمل، طار كامو إلى هذا المكان القديم، والمدفون في جبال أطلس على بعد ٢٠٠ ميل شرق الجزائر العاصمة. وفيما كانت الرِّياح القاسية تقطِّع وَجهه وذراعيه دون هَوادة، أصابَ كامو «**صمْتٌ عظيمٌ وصادِمٌ يشبه ميزان الموازين**» لكنَّ الصمْت لم يكن متولِّداً -أو غير متولِّدٍ- عن أصوات الطُّيور والخِراف «**كأصوات كثيرة أدَّت إلى صمْت وخَراب هذا المكان**».[١٢]

لكنَّ هذا الخَراب موضع ترحيبٍ وليس مَرفوضاً: فهذا الموقع المُتَّسِم بالصمْت، والرِّياح الهَوجاء، يكشف عن حقائق أساسيَّة عن الحالة الإنسانيَّة. «**جميلة تموت الرُّوح لتولَدَ حقيقةً هي نفيها ذاته**». ويتشكَّلُ شيءٌ ما داخل هذه الدَّوَّامَة المُذهلة من الرِّياح والشَّمس، شيءٌ يطوف عبر الخرائِب «**ويَمنَح الانسان مقِيَاساً لهويَّته مع عزلة وصمْت هذه المدينة الميِّتة**». ولم يَشعُرْ قطُّ بهذا العمق، كما كتب في وقتٍ لاحق، «**مِنَ الانفصال عن نفسي وعن وجودي في العالم**».[١٣]

وبَدَّدَ صمْت كامو في مدينة «جميلة» الأفكار والمَخاوف بشأن المستقبل؛ الأطلال ليست مؤطَّرة فقط بالضوء والفضاء، بل أيضاً بالهدوء الذي تجتاحه الرِّيح. ومِن بين أعمدة الظِّلال المَطولة «**تساقط القلق من السَّماء مثل الطيور الجريحة، وحَلَّ مَحَلَّه وضوحٌ قاحلٌ**». وبعد أن استسلم كامو لنفسه بالكامل، شَعَرَ بأنَّه عاجزٌ

عن مواجهة هذه «**القوى العميقة التي تتصاعد في داخلي، والتي قالت: لا**». لا، باختصار، لخطط المستقبل، للحديث عن الغد، لأشياء لم تُنجَز بعد. بدلاً من ذلك، يطالب كامو بثقَل الحاضر، والأرض، وعالمٍ خالٍ من الأساطير والإيمان بأيِّ شيءٍ آخر غير ما يمكننا أن نراه ونلمسه ونشعر به. «**إنَّ البشر الجديرين بهذا الاسم سيرفضون، في نهاية حياتهم، الأفكار التي قبلوها ذات يوم، ويستعيدون البراءَة والحقيقة التي أشرَقت في أعين البشر القدماء الذين يواجهون مصيرهم**».[١٤] ويَنعكس هذا المصير في مصير بروميثيوس وسيزيف: أن يقبلا ما فعلاه، وأن يُسَلِّما بما أُعطِيَ لهما، وأن يستكشفا بصمْت الكون الصامت الذي يحيط بهما.

*****

وبعد سنتين، اصطدم كامو بنوعٍ مختلفٍ تماماً من الصمْت، صمْت يُخفي الحقائق الأساسيَّة عن الحالة البشريَّة بدلاً من كشفها. يقول ستيوارت سيم إنَّ هناك حالات يكون فيها الصمْت مهمًّا جدًّا «لأنَّ الضَّوضاء هي دلالة على القوَّة الإيديولوجيَّة».[١٥]

وفي عام ١٩٣٨، انضمَّ كامو إلى موظَّفي صحيفة L 'Alger republicain التي صَدَرَت حديثًا. على الرغم من أنَّه لم يَعمل صحفيًّا، إلا أنَّ كامو شارك الصَّحيفة هدفها في الكَشف عن الظُّلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي الذي يعاني منه العمَّال في المناطق الحضريَّة والأرياف، من العَرَب والأمازيغ. في أوائل صيف عام ١٩٣٨، أوفَدَ مُحَرِّر الصَّحيفة باسكال بيا كامو إلى منطقة القبائل،

وهي منطقة جبليَّة تقع شرق الجزائر العاصمة.

كان الأمازيغ يزرعون التُّربة الصَّخريَّة، ويعيشون في قرى فوق قمم الجبال، ويعيشون على بساتين التِّين والزَّيتون التي تتشبَّث بالسُّفوح الجبليَّة. وفي أثناء فترة «**التَّهدئة**» التي فَرَضَتها فرنسا في هذه المنطقة، استولى المستوطنون من أصحاب الأقدام السُّود على مساحات كبيرة من الوديان الصَّالحة للزِّراعة. وبدفع الأمازيغ صعوداً أو خروجاً، انسحبوا إلى قراهم الجبليَّة أو هاجروا إلى وطنهم الأم. وكحافزٍ على الهجرة، فرَضَت الدَّولة الفرنسيَّة مجموعة من القوانين القاسية على السُّكَّان المحليِّين ـ قانون السكان الأصليِّين. وكان من غير القانوني، بموجب هذه القوانين، إهانة المسؤولين الفرنسيِّين، أو تشويه سمعة الحكومة، أو السَّفر دون تصريحٍ رسميٍّ. بالإضافة إلى ذلك، نَفَضَت الجمهوريَّة الفرنسيَّة الغبار عن ممارسة السُّخرة الإقطاعيَّة **feudal practice of corvée**، ممَّا أجبَرَ الأمازيغ على العمل في الأراضي التي كانوا يملكونها من قبل دون أجرٍ أو تعويض.

عرَّف كامو عن هذه الممارسات، ولكن بالطَّريقة نفسها التي عرَّف بها عن معركة المارن. كان هذا ظلماً، لكنَّه كان قصِيًّا أيضاً ـ في الواقع، بعيداً جداً بما يكفي للسَّماح له بإضفاء الطَّابع المثالي على المَشهَد الجزائري في مقالاته المبكِّرة دون عرقلة الشَّعب اليائس والمُهَجَّر. بالنِّسبة للشَّاب كامو الذي لم يَزُر منطقة القبائل بعد، أجبَرَتنا الطَّبيعة في شدَّتها الحَميدة على مواجهة الحياة ببساطتها القاسية «**بين هذه السَّماء والوجوه التي اتَّجَهَت نحوها لا يوجد شيء يمكن أن نُعَلِّق**

عليه أساطير، أو أدبا، أو أخلاقا، أو دينا ـ فقط الحجارة، واللحم، والنُّجوم، وتلك الحقائق التي يمكن لَمسُها باليَد». [١٦]

ولكن مثل هذه الأفكار لم تَعُد مُمكِنَة بمجرَّد وصول كامو إلى منطقة القبائل في أوائل حزيران/ يونيو. لقد تشكَّلَ لديه فهم جديد وعميق لهذا العالَمِ المُكَوَّن من الحجر والصَّمْت من تَلَّةٍ كان قد تسلَّقها مع صديقٍ أمازيغيٍّ. مُشَتِّتا من أعماق السَّماء الليليَّة المُرَصَّعة بالنُّجوم، يلاحظ كامو اندلاع الحرائق في قرية تيزي أوزو، القرية الواقعة عند سفح التَّلِّ. ناظِراً إلى رفيقه، تذكَّر كامو فجأةً الغرض من هذه الحرائق: إنَّها ليست اللمسات النَّهائيَّة للحظة سامية، لكنَّها مَصدر الطَّاقة الوحيد للقرويِّين الفقراء والجياع. يبقى كامو صامتاً، فيكسر رفيقه الصمْت: «**هل ننزل؟**». [١٧]

وما وجده كامو عند النُّزول طغى على كلِّ معرفته السابقة بالرِّيف الجزائري. ومرَّةً أخرى، واجه كامو المسافة المذهلة بين الكلام والحقائق. إنَّ تصوُّره السَّابق للصمْت كحالة حاسمة لفهم الذَّات تجاوزه التَّذكُّر بأنَّ الصمْت يخدم أيضاً غايات سياسيَّة وأيديولوجيَّة. وكان يعلم أنَّ التَّوزيع الرَّسمي للحبوب لا يُلَبِّي احتياجات السكان. «**لكن ما لَمْ أكُن أعرفه هو أنَّ هذا النَّقص كان يقتل النَّاس**». [١٨] وكان يعرف أيضاً أن سيقان الشَّوك كانت «**عنصراً أساسيًّا في النِّظام الغذائي المحلِّي، لكنَّه لم يَكُن يعلم أنَّ خمسة أطفال في منطقة واحدة قد ماتوا من أكل الجذور السَّامَّة**». [١٩]

وكان يعلم كذلك أنَّ رواتب الأمازيغ المحظوظين الذين كانت لديهم وظائف غير كافية، لكنَّه لم يَكُن يعلم أنَّ هذه المبالغ مُهينة؛ وكان يعرف «**أنَّ العمَّال يعملون أكثر ممَّا يسمح به القانون، لكنَّه لم يكن يعرف أنَّ العمل كان ضعفَ الحَدِّ المسموح به تقريباً**». [٢٠] كانت التَّقارير سبباً في تحطيم جدار الصمْت الدَّاهم إزاء محِنَة الأمازيغ، وتَرَكَت العذر المُعتاد للمدافعين عن الإمبرياليَّة في حالةٍ يُرثى لها: كلُّ ذلك كان بسبب «**عقليَّة**» الأمازيغ، أو مجموعة التَّقاليد والعادات المحلِّيَّة التي ألقَت جداراً بين هذه النُّفوس الداكنة ومهمَّة الحضارة الفرنسيَّة. هذا هراء، أجاب كامو. كانت المسألة تتعلَّق بالمياه والغذاء والطُّرق والمدارس –التي افتقرت إليها منطقة القبائل بشدَّة، ولم توفِّرها السُّلطات الفرنسيَّة.

حاوَلَ كامو من خلال عشرات المقالات المُرسَلَة من منطقة القبائل اختراق الصمْت الذي كانت تتكشَّف فيه هذه المأساة ببطء. فهتف قائلاً:

«إنَّ الموقف يَصرخُ طَلَباً لاهتمامنا، وقد يَئِسَ من الحصول عليه». [٢١]

وإذ تَعَجَّب كامو من الهاوية الشَّاسعة والسَّحيقة بين المُثُل العُليا للجمهوريَّة وواقع القبائِل، فقد رفَضَ رفضاً قاطعاً التَّخَلِّي عن مُثُلِهِ العُليا. كان يجب إنهاء ممارسة التَّعليم المُنفصل وغير المتكافئ، وإدماج المدارس. كما أدرَكَ أنَّ الصَّمْت نَتَجَ جزئيًّا عن عدم قدرة الأمازيغ على التَّعبير عن سخطهم بلُغة المُستَعمِر. كتب كامو أنَّ سكَّان القبائل سوف يكون لديهم «**المزيد من المدارس في اليوم الذي**

نتخلَّص فيه من الحواجز المُصطنَعَة التي تفصل بين أنظمة التَّعليم الأوروبيَّة والمحلِّيَّة». وعندها فقط، بالجلوس على الطَّاولات نفسها، «**سيتعرَّف شَعبان يعيشان معاً إلى بعضهما بعضًا**». [٢٢]

وفي النِّهاية، تولَّى كامو مهمَّة التَّحدُّث باسم من **لا صوتَ لهم**، الذين أسكَتَتهم الأوامر الإداريَّة والعنف المُنظَّم. كان على فرنسا أن تَفعَل، لا أن تكتفي بالتَّبشير بالجمهوريَّة ـ وهي الإيديولوجيا التي جعلت من التُّراث الإمبريالي الفرنسي إشكاليًّا للغاية، وواعداً أيضاً. وإذا كان «**للغزو الاستعماري الفرنسي أن يَجد مُبَرِّراً له في أيِّ وقتٍ من الأوقات، فذلك إلى الدَّرجة التي يَسمَح بها للشُّعوب المَغلوبة بالحفاظ على هويَّتها. وإذا كان لدينا واجبٌ واحدٌ في هذا البلد، فهو السَّماح لشعبٍ فَخورٍ وإنسانيٍّ أن يَظَلَّ مُخلصاً لنفسه ولمصيره**». [٢٣]

وقد كان من السَّذاجة، من وجهَة نَظرنا، أن يفترض كامو أنَّ مصير الأمازيغ سيتوافق مع مصير فرنسا، تماماً كما كان من السَّذاجة الاعتقاد بأنَّ هذا المصير سوف يُعَبَّر عنه باللُّغة الفرنسيَّة. كما كان من السَّذاجة أيضاً اعتقاد كامو أنَّ الرؤية تعني التَّصديق ـ وأنَّ الاعتقاد سيؤدِّي إلى سياسة عمليَّة. كتب كامو أنَّه إذا قام السِّياسيُّون الفرنسيُّون، بغضِّ النَّظر عن انتماءاتهم السِّياسيَّة، بخطِّ الرِّحلة نفسها التي قاموا بها في منطقة القبائل، فإنَّ الحَلَّ سيكون في متناول اليَد. ولكن لا ينبغي لمثل هذه السَّذاجة أن تحجب إصرار كامو الصَّادق على أواصر الأخوَّة العالميَّة التي تجسِّدها الجمهوريَّة. والأهمُّ من ذلك هو أنَّ سذاجته، إذا كانت هذه

هي الكلمة المناسبة، تَنبَع من توجُّهٍ أخلاقيٍّ بسيطٍ، ولكنَّه ليس تبسيطيًّا: فالرُّؤية الصَّحيحة شرطٌ أساسيٌّ للعمل بشكلٍ صحيح. وحكى كامو عن زيارةٍ قام بها إلى كوخ في قرية عَدني. في «**غرفةٍ معتمةٍ، رَحَّبَت بي امرأتان، واحدةٌ مسنَّةٌ جدًّا، والأخرى حامِل. ثلاثة أطفال يحدِّقون فيَّ باستغراب... لا أرى قطعة أثاثٍ واحدة. ولا أرى علامات حياةٍ بشريَّة إلا بعد أن تعتاد عيناي الظَّلام: ثلاثة أحواضٍ كبيرةٍ من الطِّين الأبيض، ووعاءان طينيَّان**». وعندما سأل كامو المرأة الحامل، التي «**تحتضن بطنها المنتفخ بين يديها**»، أينَ نامَت، «**قد أشارت إلى الأرضيَّة التُّرابيَّة تحت قدميَّ، بجوار مصبِّ ماءٍ يُستَخدم كمِرحاضٍ**».[٢٤]

لم يكن كامو أقلَّ تعلُّقاً بصمْت المُستوطنين من ذوي الأقدام السُّود في هذه المناطق نفسها. في رواية **الرجل الأوَّل**، يبحث جاك كورميري عبثاً عن والده، وهو مهاجرٌ إلى الجزائر، عبر «**الأرض الشَّاسعَة والمُعادية**». وقام والده برحلته إلى الجزائر مثل زملائه «**الغُزاة**» الذين، تكدَّسوا في عنابر السُّفن القديمة، ونَزلوا في أرضٍ حيث «**انصَهَروا في التَّاريخ المجهول للقرية والسَّهل**».[٢٥]

وعملَ هؤلاء «**الغُزاة**» في الأرض واستَصلحوها، وحَفروا «**أعمَق وأعمَق في بعض الأماكن، وأضحَل في أماكن أخرى، إلى أن غطَّتهم الأرض المُغبَرَّة، وعادت النَّباتات البرِّيَّة تغزو المكان؛ كانوا قد تناسَلوا، ثمَّ اختفوا**». أشار كورميري إلى أنَّ هذه الأجيال من الغُزاة «قد اختفوا من دون أثر، محبوسين داخل أنفسهم. ويموتون في صمْت بعيداً عن كلِّ شيء».[٢٦]

وفي النِّهاية، فإنَّ المستوطنين لا وَجه لهم ولا اسم، مجهولون مثل العرب في عمله السابق. أيعني ذلك أنَّ كامو يُبالي بشَعبٍ ما أكثر ممَّا يُبالي بالآخر؟ أم إنَّه يعتقد، بدلاً من ذلك، أنَّ الأقوياء استغلُّوا كِلا الشَّعبين، اللذين نَسِيَهما التَّاريخ بهدوء؟

*****

وفي عام ١٩٥٢، انهارَت باريس ـ أو الضفَّة اليسرى فقط ـ على وقع خبر انهيار الصَّداقة المُتَقدة بين كامو وسارتر. كان السبب الظَّاهري هو مراجعة حادَّة، ولاذِعَة، وليست مُتَجَنِّية تماماً ظهرت في مجلَّة «**الأزمنة الحديثة**» لكتاب «**المتَمَرِّد**» لكامو. كانت هذه المجلَّة الشهريَّة، التي يُحَرِّرها سارتر، وسيمون دي بوفوار، وموريس ميرلو بونتي، قد شَقَّت طريقها بسرعة إلى قمَّة الجبل الأدبي والفلسفي للمجلَّات الفكريَّة في فرنسا ما بعد الحرب. على الرَّغم من أنَّه كان مقرَّباً من لجنة التَّحرير، إلا أنَّ كامو حافظ منذ البداية على مسافة محدَّدة من عمليَّاتها. واتَّسعت الهُوَّة الحَرِجَة إلى هُوَّة شاسعة عند نشر «**المُتَمَرِّد**».

وحين نَستَرجعُ الأحداث الآن فسوف يتبيَّن لنا أنَّ الصِّدام الإيديولوجي بين كامو وسارتر لم يكن أقل حَسماً من مصير بروميثيوس نفسه. ربما شعر كامو بما كان ينتظره عندما كتب في يوميَّاته في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥١: «**انتَظرُ بصبرٍ كارثةً تأتي ببطء**». [٢٧] كان **المُتَمَرِّد** قد ظهر لتوِّه وكان تأثيره فوريًّا ومثيراً للجدل. وكانت الإدانة الموجَّهة في المقال للولاء الأعمى

للشِّيوعيين الفرنسيِّين، جنباً إلى جنب مع المثقَّفين الذين انضمُّوا إلى الحزب أو سافروا برفقته، شديدة القسوة ولا هوادَةَ فيها. انتقد كامو بشدَّة نَزعة اليسار الفرنسي إلى إغفال الجرائم التي ارتُكِبَت في الاتِّحاد السوفييتي باسم الضَّرورة التَّاريخيَّة، حيث روَّعه ذلك العدد من الحجج الفكريَّة لتبرير وجود معسكرات التشغيل وعهد الإرهاب. وقد أصَرَّ كامو على أنَّ منطق الصَّيرورة التَّاريخيَّة، «**منذ اللحظة التي يتم فيها قبولها تماماً، يؤدِّي تدريجا... إلى تشويه الإنسان أكثر فأكثر، وتحويله إلى جريمة موضوعيَّة**».[٢٨]

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ سارتر يرى أنَّ منطق تحليل كامو هو الذي حوَّل، إن لم يكن قد غَيَّر، أهداف الشِّيوعيَّة. وبحلول الوقت الذي نشر فيه كتاب «**المُتَمَرِّد**»، كان المفكِّرون الأكثر نفوذاً في فرنسا قد استنتجوا أنَّ الظروف تتطلَّب نضالاً جماعيًّا بدلاً من الخوف الفردي. ولم يكن لدى المفكِّرين رفاهيَّة الوقوف في صَفِّ الضَّرورة التاريخيَّة. والواقع أنَّ أيَّ جهدٍ يُبذَل للقيام بذلك لا يجعل المرء مجرَّد مُتَفَرِّج، بل عَقَبَة حقيقيَّة أمام مسيرة التَّقدُّم. وَبَّخَ سارتر كامو على هذه البراءة المُتَعَمَّدة: «**لقد قَرَّرتَ الوقوف ضدَّ التاريخ؛ وبدلاً من تفسير مساره، فَضَّلتَ أن تراه مجرَّد عَبَث آخر**». وهذا لن يُفلِح:

> «لكي نستحقَّ الحق في التأثير على الرِّجال الذين يناضلون، يجب أن نشارك أولاً في نضالهم، وهذا يعني أولاً قبول أشياء كثيرة إذا كنت ترغب في تغيير القليل منها».[٢٩]

وكان الجرح الذي تعرَّض له كامو أكثر إيلاماً من انتقاد سارتر لكتابه، حيث وَجَّهَ له شتائم وإهانات شخصيَّة مباشرة. سخر سارتر عبرَ صفحات «الأزمنة الحديثة» ممَّا زعم أنَّها كانت عيوب كامو الشَّخصيَّة. فبسبب «**المزيج الكئيب من الغرور الذَّاتي والضَّعف**»، لم يجرؤ أحد من قبل على التَّكلُّم مع كامو بصراحةٍ. والنَّتيجة هي:

« إنَّكَ أصبحتَ ضحيَّة لانهيارٍ كئيبٍ يُخفي ضعفك الداخلي، وأعتقد أنَّك تسمِّيه المعيار المتوسِّطي. وإذا كان من شأن أحدٍ أن يُخبرك بذلك عاجلاً أم آجلاً، فليَكُن ذلك الشخص أنا». [٣٠]

أدهَشَ رَدُّ سارتر كامو كثيراً. وقد تأمَّل في شراسة موقفه اللاذع هذا بين صفحات يوميَّاته، مقتنعاً بأنَّ ثقل التَّطلُّعات الإيديولوجيَّة قد أجبر سارتر وأتباعه على الانخراط في الشِّيوعيَّة. ولكن «**لا يوجد طريق مَلَكيٌّ إلى العبوديَّة، بل هناك غشٌّ وإهانَةٌ واستعبادٌ للأخ**». [٣١] ولكن الصَّفحات نفسها، تحمل أيضاً أفكاره المعبِّرة عن قيمته الذَّاتيَّة ككاتب وكمفكِّر، وهي تأمُّلات شَرَعَ بها كامو خلال رحلةٍ قام بها في نهاية العام إلى المناطق الجنوبيَّة النَّائية في الجزائر. هذا المَشهَد «**المَلَكيُّ**» بحقٍّ، الذي لم يتحرَّر من قِبَل أطلالٍ من صنع الإنسان كما هو الحال في جميلة، قدَّمَ صمْتاً واسعاً كبَلسَمٍ لغضب الغابة التي عرفها في باريس. [٣٢]

قاد كامو سيارته وحده من الجزائر إلى الأغواط منتصف شهر كانون الأوَّل/ ديسمبر، واكتشف صحراءَ تختلف عن الصَّحراء

الشَّماليَّة التي تمتدُّ عبر الأعمدة الرُّومانيَّة في جميلة. في هذه المدينة الواحة، وَجَدَ «**انطباعاً فريداً عن القوَّة والحصانة**»، عمل الطَّبيعة، وليس الإنسان. حتَّى أنَّ المقبرة في المدينة كانت «**مُغَطَّاة بشظايا من حجر الشَّست، ويتداخل الموتى ببعضهم تحت بَلبَلَة الحجارة**». ومع تقدُّمِهِ نحو الجنوب، طغى على كامو المشهد العدائي الصَّارخ. إلا أنَّ هذا العداء كان مختلفاً عن العداء الذي عرفه في باريس. كان نوعاً أعظم. شخصٌ غير مبالٍ تماماً بوجوده. وفي «**مملكة الحجارة**» هذه، انبَهَرَ كامو بالحدود التي فرضتها الطبيعة. ولم يكن هذا المكان مكاناً للأوهام أو الأحلام، «**عندما يحرث المرء في هذا البلد فإنَّه يَجمَع الحجارة**».

إلا أنَّ ذلك لم يكن دعوة لتصوير العالم في صورة رومانسيَّة: فقد حَذَّرَ كامو من الصمْت الذي يشعُّ من الصَّحراء، وكتم أيضاً المحنة الأخلاقيَّة لسكَّانها. كانت عشرات الآلاف من الخراف تموت بسبب الجفاف. لم تكن صور الأشخاص الذين يعملون في الأرض خلابة على الإطلاق؛ بدلاً من ذلك، «**يكشط شعبٌ كاملٌ التراب بحثاً عن الجذور**». وعندما وصل كامو إلى قرية غرداية، صُعِقَ من مدى التَّعاسة والبؤس البشريَّين، كما صُعِقَ من الشَّمس، وكتب في مذكِّراته: «**معسكر بوخنفالد تحت لهيب الشمس**».[٣٣]

وعلى الرغم من بعده عن منطقة القبائل، كَشَفَ كامو في أثناء رحلته عبر الصَّحراء أنَّ الصمْت لا يعكس فقط نوعاً من الرَّهبَة اللا-إنسانيَّة، بل أيضاً جزءا مساهما لشكلٍ من أشكال الظُّلم الإنساني. في إطار من الآفاق اللامتناهية، والمليئة بالنُّور الغامر

والهدوء غير العادي، ادَّعى كامو أنَّ هذا العالم من «**الصمْت والعُزلَة**» هو مَصدَرٌ للحقيقة.[٣٤] ولكنَّها كانت حقيقة يجب أن يدافع عنها أولئك الذين يملكون أصواتاً يمكن سماعها.

*****

القصَّة في حَدِّ ذاتها بسيطة: مجموعةٌ من الرِّجال الذين يعملون في مصنعٍ صغيرٍ للبراميل الخشبيَّة يعودون إلى مكان عملهم بعد عشرين يوماً من إضرابٍ فاشل. يتفكَّر إيفار، بطل القصَّة، في الأحداث وهو في طريقه إلى العمل. لقد بلغ للتَّوِّ سنَّ الأربعين، وقد تركت حياة العمل البدني القاسي أثرها على جسده: «**في سنِّ الأربعين، لم تَنتهِ بعد، لكنَّك تستعدُّ لذلك مقدَّماً**».[٣٥]

إنَّ أفكار إيفار حول الإضراب الفاشل من أجل زيادة الأجور قد عمَّقت شعوره بأنَّ الحياة قد شارفت على نهايتها؛ إنَّه يدرك أنَّه يتخلَّى عن مكانته في العالم. إنَّه يفهم أنَّ رَبَّ عمله، لاسال، في موقفٍ صعب. كان الطَّلب على البراميل الخشبيَّة يتراجع، ومن أجل الحفاظ على هامش ربحه، لا يستطيع لاسال تحمُّل زيادة الرَّواتب. ماذا سيحدث لو انهارت الورشة بأكملها؟ «**فالرجل لا يغيِّر حرفته عندما يكلِّف نفسه عناء تعلُّمها، فالشروع في تعلُّم مهنة أخرى أمرٌ صعبٌ للغاية، ويتطلَّب تدريباً طويلاً**». فكان التخلِّي عن مهنته أمراً لا يمكن تصوُّره، ولكن كان الاستسلامُ للحصول على راتبٍ غير كافٍ، ومعرفة أنَّ عمله يُقَيَّم بأقلَّ من قيمته الحقيقيَّة أمرًا لا يُحتَمَل. في مثل هذا الموقف الصَّعب، «**كان**

من الصَّعب أن تُغلِقَ فمك».[٣٦]

ولكن بمجرَّد وصوله إلى الورشة، هذا بالضبط ما سيفعله إيفار وزملاؤه من العمَّال. حينما نزل بجسده الصَّلب عن الدَّرَّاجة، رأى رفاقه يقفون بصمْت أمام الأبواب المُغلقة. بينما ينتظرون رئيس العمَّال، بالستر، ليَفتح الباب لهم - وهو يُبقيهم متعمِّداً منتظرين تأكيداً على ضعفهم - دون أن يتبادلوا أيَّ كلمة فيما بينهم. كما أنَّهم لا يتقدَّمون إلى الورشة التي بَدَت فجأةً مهجورة، أو عندما يمسكون بأدواتهم ويبدؤون بالطَّرق والنَّشر والتَّسمير. وبينما يستعيدون إيقاع حياتهم قبل الإضراب، يظهر لاسال على عتبة الباب. وكما يعرف إيفار، كان رئيسه - وهو نفسه ابن أحد الحرفيين - دائما عادلاً ومُنصِفاً ومُتَعاطفاً مع عمَّاله. لكنَّ الإضراب أدَّى إلى تعطيل أمر آخر أكثر انتشاراً، ولكنَّه لا يقلُّ أهمِّيَّة. في محاولة صعبة للظُّهور بمَظهر طبيعي، يمشي لاسال ببطء عبر المصنع ويُلقي التحيَّة على عددٍ قليلٍ من العمَّال. لكن كل ما يتلقَّاه هو الصمْت. وأخيراً، ينظر الى العمَّال متضرِّعاً: «**نحن لسنا متَّفقين، لا بأس. لكن ما زال علينا أن نعمل معاً. ما الفائدة إذاً؟ ما الخير الذي نجنيه من ذلك؟**».

ولكن هناك نقطة مع ذلك - ستعود إلى الديار بعد بضع دقائق. أمام المقاومة الصَّامتة لعمَّاله، يخرج لاسال منَ الورشة ويعود إلى منزله، وهو مكتبه. ثمَّ يطلب من باليستر استدعاء إيفار وماركو، مندوب النِّقابة، إلى مكتبه. وبينما كانا يقتربان من الباب، يسمع الرجلان بكاءَ طفلة، ولاسال يُطَمئِن زوجته بأنَّه إذا لم

تتحسَّن ابنتهما فإنَّه سيستدعي الطَّبيب. عندما يدخل إيفار وماركو إلى المكتب، يؤكِّد لاسال لهما بأنَّه سيعزِّز رواتبهم في اللحظة التي يتحسَّن فيها العمل. كل ما يطلبه في المقابل هو أن تستمرَّ العلاقة بينهم كما كانت قبل الإضراب. لكنَّ العاملين يمتنعان عن الرَّدِّ، كما يرفضان مُصافَحَته. وفجأةً يفقد هدوء أعصابه الذي حافظ عليه حتَّى ذلك الحين، يصرخ لاسال خلفهما وهما يغادران المكتب: «**يمكنكم جميعاً الذِّهاب إلى الجحيم**».[٣٧]

وبدلاً من ذلك يعودان إلى الورشة، حيث بدأ الآخرون بالفعل وجبة غدائهم الضئيلة. وبينما كان إيفار يسحب شطيرة من حقيبة غدائه، لاحظ سعيدًا، وهو عربيٌّ يعمل بجانبه، مُستلقياً على كومةٍ من نشارة الخشب، يأكل ببطء القليل من التين. يعطي إيفار نصف شطيرته لسعيد، ويقول له إنَّ الأمور ستتحسَّن: «**عندها سوف تدعوني أنت**». ومن دون قصد، كرَّرَ إيفار الشُّعور نفسه الذي أعرب عنه لاسال قبل لحظاتٍ فقط ـ باستثناء أنَّ اليَدَ الممدودة هذه المرَّة مقبولة. بعد فترة وجيزة من عودتهم إلى العمل، يبدأ لاسال بقرع جرس العمل بطريقة تبدو غريبة وملحَّة وصادِمَة بالنِّسبة لإيفار. يستجيب باليستر، ليَهرَعَ بعد فترة بسرعة إلى المدينة من أجل الطَّبيب. اكتشف العمَّال أنَّ ابنة المالك انهارت فجأةً إلى الأرض. وبينما يرتفع دويُّ صفارة الإسعاف ويتلاشى خارج الورشة، يواصل الرِّجال عملهم في صمْت. يريد إيفار التَّحدُّث، ولكن لا هو ولا الآخرون يمتلكون أي كلمات في داخلهم ليَقولوها. ولا حتَّى عندما يظهر لاسال في

نهاية يوم العمل، شعره أشعَث ونظرته مُحرَجَة. بعد صمْت طويل ومُحرِج، يتمتم لاسال لعمَّاله: «**ليلة سعيدة**». ويُغلق الباب خلفه دون رَدٍّ. يقول إيفار: « **لقد كان من المفترض أن نناديه**»، ولكن كان الأوان قد فات أصلاً.

تُرجِمَ العنوان الفرنسي لقصَّة Les Muets، بشكل مختلف إلى الإنكليزيَّة «الصَّامتون» The Silent Ones، والذين لا صوتَ لهم The Voiceless، ولكن من الأفضل فهمها على أنَّها The Mute Ones «الخُرس». يجد إيفار نفسه مع زملائه في العمل في حالة من الخَرَس. لم يَعُد لديه المزيد من الخطط للصمْت أمام لاسال ـ الذي يقرُّ بأنَّه لطالما عامَلَه بعَدلٍ وإنصاف ـ أكثر ممَّا كان يخطِّط للوصول إلى سِنِّ الأربعين، وبينما كان يركب درَّاجته مُتعَباً إلى العمل، وَجَدَ نفسه ينظر بعيداً عن البحر الذي كان يحبُّه في شبابه. بدلاً من صمْت إيفار، يسقط الصمْت عليه وعلى الآخرين. وكلَّما حاول، قدرَ استطاعته، أن يجد الكلمات دون جدوى، ولو وجدها، لم يستَطِع النُّطق بها. في مكتب لاسال، عند سماع العرض الذي قدَّمه صاحب العمل، كان إيفار، «يصرُّ على أسنانه، أراد أن يتكلَّم، لكنه لم يستَطِع».[٣٨] لذلك، أيضاً، ظهر إدراكه بأنَّه كان ينبغي له أن يقول شيئاً أمام لاسال، الذي حطَّمه مرض ابنته، لفترة وجيزة في الورشة.

يعكس الصمْت في ورشة العمل صمْتاً أكثر دَويًّا سُمِعَ خلال الاحتلال، صمْت تَرَك أثَرَه على كامو.[٣٩] وفي عام ١٩٤١، وَزَّعَت دار النَّشر السِّرِّيَّة Editions du Minuit رواية «صمْت البحر»

Le Silence de la mer. وهي رواية من تأليف فيركورز، الاسم المستعار لجان برولر، أحد مؤسِّسي دار النَّشر، تروي القصَّة عن العَلاقة بين ضابط ألماني، فيرنر فون إبريناك، ورجل فرنسي وابنة أخته اللذين يقيمان في مزرعة. يدخل الضابط، المُتَعَلِّم والمُثَقف والذي يتحدَّث الفرنسيَّة بطَلاقة، غرفة المعيشة في المزرعة في نهاية كلِّ يوم ويفكِّرُ بصوتٍ عالٍ أمام الاثنين. لكنَّ أحاديثه كانت أحاديَّة الجانب، لأنَّ الخال وابنة أخته لم يستجيبا له. يدخِّن الرَّجل غليونه ويحدِّق في السَّقف في حين أنَّ ابنة أخته، مثلها مثل بينيلوبي، لا ترفع عينيها أبداً وهي تحوك. والواقع أنَّ الخال وابنة أخته، مثلهما في ذلك كمثل إيفار وزملائه الحرفيِّين، لم يناقشا قط، ناهيك عن التخطيط لهذا الرَّدِّ. بدلاً من ذلك، استمرَّا بالعيش «باتفاق صامت وكأنَّ الضَّابط غير موجود».[٤٠]

وفي فرنسا المحتلَّة، وفي ورشة عمل في الجزائر، يصبح الصمْت الذي يتولَّد من الإذلال، شيئاً فشيئاً، صمْتاً يدعمه إصرارٌ – يكاد يكون غريزيًّا – على الكرامة. إنَّ الصمْت في مثل هذه اللحظات ليس مجرَّد إرادة، بل هو صمْت عميق. إنَّه يذكِّرنا بأنَّ الصمْت يسبق اللغة ويَفترض مسبقاً وجود عالمٍ أقدم لم تصف فيه اللغة بعد استجابتنا له. وكما أشار بيكارد، يمكن للصمْت أن يوجد بدون كلام، ولكن لا يمكن للكلام أن يوجد بدون صمْت.[٤١] وقد عبَّر صديق كامو، الرِّوائي لويس غيو، عن ذلك بشكلٍ مختلف: «في **النهاية، نحن لا نكتب لنقول أشياء، لكن كي لا نقولها**».[٤٢] ونميل اليوم إلى اعتبار الصمْت بمثابة انقطاع للضجيج، ولكن بمجرَّد أن

نتعافى من تأثيرات الصَّوت، ندرك أنَّ الوظيفة الأساسيَّة للصمْت هي توفير نوع من الجهير المستمرِّ لمأساة حياتنا.

لكن في حين يظلُّ إيفار، مثلُه في ذلك كمثل شخصيات فيركورز، صامتاً أمام محاوريهم المُلحِّين، فإن صمْتهم لا يمكن أن يستمرَّ. وفي نهاية المطاف، رَدَّت ابنة الأخت وخالها على فون إبريناك بعد أن علم أنَّه وحده بين زملائه الضُّبَّاط يحلم بالمزاوجة بين الثَّقافتين الألمانيَّة والفرنسيَّة. فهو غير قادرٍ على تحمُّل صدمة اكتشاف ما يخبِّئه النازيُّون لفرنسا، ويَطلب نقله إلى الجبهة الشَّرقيَّة، والاقتراب من الموت المُحَتَّم. ينقل فون إبريناك الخبر في الليلة الأخيرة له في المزرعة، وبينما هو يستعدُّ للمغادرة، ينظر إلى ابنة الأخت ويَهمس «**وداعاً**». وبينما يقف دون حراك عند الباب، تجيب ابنة الأخت بلا كلامٍ تقريباً «**أديو**» Adieu، عندها يغادر إبريناك الغرفة ويخرج من حياتهما. وفي صباح اليوم التَّالي، يغادر فون إبريناك، تاركاً الخال وابنة أخته يتناولان طعام الإفطار معاً في صمْت.

وبطبيعة الحال، لا يقدر إيفار أن يردَّ على عبارة لاسال «**ليلة سعيدة**»، ولو بدون كلمات. ومع ذلك فإنَّ ردَّ فعله ـ كان ينبغي لهم أن ينادوه، و[لكن] الباب كان قد أغلق بالفعل ـ على الرغم من أنَّه جاء بعد فوات الأوان، إلا أنَّه يطابق ردَّ فعل ابنة الأخت. في حالة ابنة الأخت، يتداخل الصمْت قليلاً مع اللغة، بينما بالنِّسبة لإيفار، تبقى اللغة مجرَّد جانبٍ من الصَّمْت. فضلاً عن ذلك، فإنَّ القصَّة لا تنتهي عند هذا الحَدِّ. يعود إيفار على درَّاجته إلى بيته، غير قادرٍ على التَّوقف عن التفكير في الفتاة المريضة. تتسارَع

أحداث القصَّة لتنتهي مع إيفار، وهو يجلس على الشرفة، مُمسِكاً بيد زوجته ويحدِّق في البحر، قائلاً: «آه، هذه هي المشكلة».[٤٣] ونحن لا نرى ما يراه ولا نسمع ما يسمعه، ولكنَّ الخط يدخل في صلب الغموض الأساسي لحيواتنا. وفي النهاية، قد تكمن المشكلة في الاستحالة البسيطة والمأساويَّة للتَكلُّم خلال الحيوات، والمآزق الخاصَّة بكلٍّ واحدةٍ منها.

*****

وفي نهاية شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦، سافر كامو من باريس إلى الجزائر للتحدُّث في مؤتمر عام مُكَرَّس للاقتراح المستحيل بأنَّ السَّلام لا يزال ممكناً بين الفرنسيين والجزائريين. انعقد الاجتماع في قلب العاصمة، وكاد يتحوَّل تقريباً إلى أعمال شغب. وفيما كان حشد غفير من المُحتجِّين من ذوي الأقدام السود يصرخون في الخارج، كان كامو يحاول داخل القاعة ـ التي كان اسمها «حلقة التَّقدُّم» Cercle du progrès، وهي تسمية لا تخلو من سُخرية ـ أن يجعل نفسه مسموعاً فوق الضَّجيج. وأعلن أمام الجمهور المتوتِّر من العرب والفرنسيين الجزائريين، أنَّ «هذا الاجتماع كان لا بدَّ أن يُعقَد، ولو لمجرَّد إثبات أنَّ تبادل الآراء كان أمراً ممكناً».[٤٤] فقد ذكَّر الجميع بحقائق تاريخيَّة وديموغرافيَّة قاسية. في الجزائر «ثمة مليون فرنسي كانوا هنا منذ قرن، وملايين من المسلمين، إمَّا من العرب أو الأمازيغ، الذين كانوا هنا منذ قرون، والعديد من الطوائف الدِّينيَّة الأخرى».[٤٥] غير أنَّ المتطرِّفين يحاولون اجتناب هذا الواقع ليس من خلال ترهيب الطرف الآخر فحسب،

بـل الأعضـاء المعتدلـين في جماعاتهـم الخاصَّـة أيضـاً. إذا لم يفتـح كِلا الطَّرفين حواراً، فإنَّ الفرنسيَّ سيقرِّر «ألَّا يعرف شيئاً عن العربي، مع أنَّه يشعر في داخله بأنَّ مطالبة العربي بالكرامة لها ما يبرِّرها، وأنَّ العربي يقرِّر ألَّا يعرف شيئاً عن الفرنسيِّ، مع أنَّه يشعر أيضاً، أنَّ للفرنسي الجزائري أيضاً الحَقَّ في الأمن والكرامة على أرضنا المشتركة».[٤٦] إذا لم يبذل كلُّ فرنسيٍّ ومسلم جهداً صادقاً للتَّفكير في دوافع خصمه، فإن العنف سيجتاح الجزائر.

باريس، عَلِمَ كامو أنَّ العنف سيؤدِّي إلى ذلك بالضَّبط. كان المنظِّمون قد أنهوا الاجتماع فجأةً بعد أن انتهى كامو من قراءة نَصِّه: كانت الحجارة تحطِّم النوافذ وتنهال على المجتمعين، وكان الطَّوق الذي أقامته الشُّرطة في الخارج على وشك فقدان السيطرة. أيُّ أملٍ بقيَ هناك عندما قام الشَّعب نفسه الذي كان ستحميه مناشدات كامو لهدنة مدنيَّة بالإخلال بها، وحاول اقتحام القاعة؟.

بعد وقتٍ قصيرٍ من عودته من الجزائر، وأمام تصاعد حدَّة العداء من كِلا الجانبين، وانهيار اقتراحه بهدنة مدنيَّة، استقال كامو من عمله ككاتب عمود من صحيفة L'Express الأسبوعيَّة الليبراليَّة والتزم الصمْت حيال المسألة الجزائريَّة. كان استسلام الحكومة الفرنسيَّة أمام المزاعم العنيدة لمجتمع الأقدام السُّود سبباً في دفن الأمَل اللِّيبرالي في أن تكون الجمهوريَّة مساوية لذاتها. أمَّا بالنِّسبة للحرب الأهليَّة المُستَعرة، فقد كان من الواضح أنَّ كلَّ طرف لن يزعم النَّصر لنفسه إلا بالاستسلام التام من الطَّرف الآخر. وكما قال لنفسه، كان من الأفضل أن لا يقول شيئاً حتَّى لا

يزيد «إمَّا مِن بؤس الجزائر، أو التفاهات التي كتبت بالفعل عن الوضع».[٤٧] وكان الصمْتُ هو كلَّ ما تركه كامو.

لَم يُرضِ هذا الرَّدُّ أصدقاءه ولا حتى أعداءه: الحقيقة الأكثر شهرةً التي ظهرت في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٧، عندما سافر كامو إلى ستوكهولم لتلقي جائزة نوبل في الأدب. هذا اليوم لا يتذكَّره النَّاس بخطابه الرَّسمي بقدر ما يتذكَّرونه بالتَّبادل الحامي للآراء، قبل يوم من الاحتفال، بين كامو وطالب جزائري. خلال جلسة سؤال وجواب مع طلَّاب سويديِّين، أخذ الشَّاب الجزائري يهاجم كامو بسبب صمْته حيال الجزائر. وفي النِّهاية بعد مقاطعة جهوده مراراً وتكراراً للرَّدِّ، فَرَضَ كامو نفسه بقوله:

«مع أنَّني بَقيتُ صامتاً طوال عام وثمانية أشهر، إلا أنَّ هذا لا يعني أنَّني توقَّفت عن العمل. لطالما كنتُ مؤيِّداً لجزائر عادلة يعيش فيها شعبان متكافئان بسلام. لقد طالبتُ مراراً وتكراراً بتحقيق العدالة للشَّعب الجزائري ومنحه حقوقاً ديمقراطيَّة كاملة».

وتابع قائلاً إنَّ دوَّامة العنف في الجزائر قد تنامَت بسرعة بحيث أنَّه يخشى أن تؤدِّي أيُّ كلماتٍ إضافيَّة إلى زيادة سرعتها أكثر. وعندما استدرجهُ الطَّالب إلى فَخِّ الاستفزاز مرَّةً أخرى، وَضَعَ كامو حَدًّا لهذه المواجهة:

«لطالما أدَنتُ الإرهاب. ولكن عليَّ أن أدين أيضاً الإرهاب الذي يضرب بشكلٍ أعمى، على سبيل المثال في شوارع الجزائر

العاصمة، والذي قد يصيب أمِّي وأسرتي. أنا مؤمنٌ بالعدالة، لكنَّني سأدافع عن أمِّي أمام العدالة». [٤٨]

هذه، على الأقل، هي النُّسخة التي وصلتنا، وذلك بفضل الرِّواية التي نشرتها صحيفة اللوموند في اليوم التَّالي. ولكنَّ ردَّ كامو الفعلي كان مختلفاً تمام الاختلاف:

«إنَّ الناس الآن يزرعون القنابل في قطارات الترام في العاصمة الجزائر. قد تكون أمِّي موجودة على أحد خطوط الترام تلك. إذا كانت هذه هي العدالة، فأنا أفضِّل أمِّي».

ونَشَرَت الصَّحيفة، التي تعاطفت مع القوميِّين الجزائريِّين واحتقرت كامو بشدَّة، هذا التَّصويب بعد ثلاثة أيَّام. وكما هو الحال مع جميع هذه التَّصويبات، فقد أُهمِلَ على الفور. [٤٩]

العدالة، والحب، والصمْت: ذلك هو المَزيج المثير للاهتمام من المُثُل العليا الموجودة في واحدة من أكثر ملاحظات كامو إثارة للنقاش والجدل. يمكننا بطبيعة الحال أن نتخيَّل التناقضات بين متطلَّبات العدالة، التي تشكِّل أكثر المنافع علانية، ومتطلَّبات الحب التي تشكِّل أكثر القيم خصوصيَّة. ولكن كما يكشف ردُّه على الطَّالب الجزائري، رفض كامو أن يتقبَّل حقيقة أنَّ الحبَّ والعدالة لا يتعايشان في أغلب الأحيان فحسب، بل إنَّهما في الحقيقة متلازمان ومرتبطان معاً. بالنِّسبة لكامو، الحب والعدالة هما المَثَلان اللذان يربطاننا بالعالم وببعضنا البعض. عندما خاضَت فرنسا، خلال الأشهر الأخيرة من الاحتلال، نوعاً مختلفاً من

الحرب الأهليَّة، أكَّد كامو أنَّ الإنسان يجب أن «يُمَجِّد العدالة من أجل محاربة الظُّلم الأبدي، وخلق السَّعادة من أجل الاحتجاج على عالم التعاسة».[٥٠] ولكن في حمَّام الدَّم الجزائري، حيث لم يكن هناك أيُّ شيءٍ «عشوائي» أو «أعمى» في إزهاق أرواح المدنيِّين -على العكس من ذلك، استهدف كلا الجانبين بتمييزٍ شديد المدنيِّين من أجل زرع الرُّعب- فقد تخلَّى الرِّجال والنِّساء عن واجب البقاء نزيهين ومُخلصين للعالم، وسمحوا للظُّلم والتَّعاسة بأن يَسودا.

وفي رسالته إلى اللوموند، لم يصَحِّح كامو الاقتباس الخاطئ في الصحيفة فحسب، بل صحَّحَ أيضاً، وإن كان بشكلٍ غير مباشر، الأسباب الكامنة وراء صمْته:

«أودُّ أيضاً أن أقول، فيما يخصُّ الشَّاب الجزائري الذي استجوبني، إنِّي أشعر بأنَّني أقرب إليه من العديد من الفرنسيِّين الذين يتحدَّثون عن الجزائر دون معرفتها. كان يعرف ما يتحدَّث عنه، ولم يعكس وجهه الكراهيَّة، بل اليأس والتَّعاسة. وأنا أشاركه هذه التَّعاسة».

ولقد ثَبُت عدم جدوى الكلمات في أحسن الأحوال، وفي أسوئها تواطؤها في دوَّامة العنف الآخذة في الاتِّساع في الجزائر. وكما هو الحال مع والدته، عندما شعر بصمْت، «**بشَفَقَة عظيمة تجاهها**»، كذلك الأمر مع الطالب الجزائري: «**فعندما يسكت المرء، سيتوضح كُلُّ شيء**».[٥١] ولقد أدرك كامو أنَّ الوضع المأساوي لوطنه الجزائر دفعه للمحافظة على هدوئه.

يكون الإغراء كبيراً، بالتَّحدُّث أو الصراخ، عندما يصمْت الآخرون؛ سواء كان ذلك بسبب إحراجٍ اجتماعيٍ بسيط، أو بسبب آلامٍ أعمق مما لا يمكن التعبير عنه بوضوح، فمن الصَّعب أن نجزم بذلك. إنَّها أيضاً مناسبة يستغلُّها المعلِّقون لإثارة الشغب بالكلمات لسَدِّ الثغرات التي يتركها رعاياهم، سواء عن قصد أو غير قصد. ولكن علينا أن نقاوم الإغراء، ولو لمجرَّد أنَّ كامو نفسه يرشدنا إلى إجابة. في مقالته الأخيرة «**العودة إلى تيبازة**»، التي كتبها قبل وقتٍ قصيرٍ من دخول الجزائر الحرب مع نفسها، يصف كامو جهوده لتحقيق التوازن بين القوَّتين العظميين في حياته «**حتى عندما تتعارض إحداهما مع الأخرى**»: أعاجيب العالم والواجبات الأخلاقيَّة للفرد. «**نعم، هناك الجمال والمُستضعفون. ومهما كانت الصعوبة في التَّوفيق بينهما فإنَّه ليس بوسعي أن أخلصَ لواحدٍ دون الآخر**». ولكنَّه يتابع قائلاً: «**وذلك يوحي بنوعٍ من الأخلاق، بينما نعيش نحن من أجل شيءٍ يذهب إلى أبعد من الأخلاق. لو كان لنا أن نسمِّيه، فأيُّ صمْت يرين**».[٥٢]

لم يسمِّ صمْت كامو بشأن الحرب التي اجتاحت وطنه الجزائر، والتي كانت مصدر كل صوره عن الجمال الدُّنيوي تقريباً، أبعد من الأخلاق. بل إنَّ ذلك كان نابعاً من إدراكه بأنَّ المُستضعفين كانوا عند كِلا طَرَفي هذا الصِّراع: الغالبيَّة العظمى من ذوي الأقدام السُّود فضلاً عن العرب. من النَّاحية الجوهريَّة، كانت الوقائع في الجزائر ـ المكان الذي لَم يكُن مُجرَّداً، بل حياته ذاتها، والأرض التي تعيش فيها عائلته ووالدته ـ متعارضة بالنِّسبة

لكامو. وفي خطابه الذي ألقاه بمناسبة حصوله على جائزة نوبل، قال كامو إنَّ الصمْت، في لحظاتٍ معينةٍ، «**يكتسب شعوراً مرعباً**». وكانت الجزائر، بالنسبة له، واحدة من تلك اللحظات ـ مأساة كانت فيها الكلمات الإضافيَّة أسوأ من كونها عديمة الجدوى، لأنَّ عدم قدرتها على الحؤول دون وقوع الكارثة، لن يؤدي إلا إلى حَجب أبعادها ومعناها.

*****

اكتشف كامو فريدريك نيتشه لأوَّل مرَّةٍ عندما كان مُراهقاً ـ كان أستاذه الجامعي ومعلِّمه جان جرينيه هو مَن مَهَّدَ له الطَّريق ـ وكانت أول مقالة نُشِرَت له، حرَّرها جرينيه ونُشِرت في مجلّة Sud، عن نيتشه والموسيقى. استمرَّ ارتباطه بنيتشه طوال حياته، بإعجابٍ ولكن لا يخلو من نَقدٍ، ممتدًّا عبر دفاتره. واعترف بامتنانٍ: «**أنا مدينٌ لنيتشه بجزءٍ ممَّا أنا عليه**». [٥٣]

كان أكثر ما أثار إعجاب كامو أسلوب نيتشه السَّاخر والمتقلِّب، بالإضافة إلى وضوحه الشديد حول عالمٍ لم يَعُد يدعم الخيالات الدينيَّة أو الميتافيزيقيَّة التي أثقلت كاهِلَ الجنس البشري. فقد أثنى كامو في مقاله «**أسطورة سيزيف**» على نيتشه لأنَّه أزال كلَّ أملٍ في المستقبل:

«يبدو أنَّ نيتشه هو الفنَّان الوحيد الذي توصَّل إلى النَّتيجة القصوى لجماليَّة العبَث، حيث تكمن رسالته النِّهائيَّة في الوضوح العقيم والقاهر، والنَّفي العنيد لأيِّ عزاءٍ ميتافيزيقي». [٥٤]

إنَّ نيتشه، الذي صَوَّرَ نفسه مسَّاحاً لأنواع العدميَّة المزدهرة في كوننا الخالي، كان يمتلك الشَّجاعة ليسمِّي الفراغ فراغاً. ومع ذلك، لم يكن عدميًّا بالاسم، بل بالضَّرورة:

«لقد شخَّص في نفسه وفي الآخرين عدم القدرة على الإيمان، وانتفاء الأساس البدائي لكلِّ إيمان- أي الإيمان بالحياة».[٥٥]

ويشير ميشيل أونفرا أنَّ كامو، وهو قارئ جاد لنيتشه، لم يكن مع ذلك نيتشويًّا.[٥٦] وبحلول الوقت الذي نشر فيه «**أسطورة سيزيف**»، اكتشف كامو أنَّ نيتشه كان قد أبهَرَ جميع القرَّاء الآخرين باستثناء نفسه، ولكن مع عواقب كارثيَّة. ففي عالمٍ خالٍ من الإله والأخلاق، كان كلُّ شيء مباحاً بالفعل. تحت شمس الجزائر العاصمة، تماشى حُبُّ القَدَر -حسب تعبير نيتشه أحِب قَدَرَك، لكُلِّ الأفراح وكُلِّ الغبطات- مع حُبِّ كامو الشَّاب للعالم. لكنَّه أصَرَّ على أنَّ السَّماء الحديديَّة فوق أوشفيتز أجبَرَتنا على إعادة النَّظر في الطُّرق التي فسَّر بها الآخرون نيتشه. فقد أعلَنَ كامو:

«إنَّنا نعرف درِّيَّة نيتشه وما نوع السياسة التي كانت تطالب بتفويض من الرّجل الذي زعم أنَّه آخر ألماني مناهض للسِّياسة. كان يحلم بطُغاة كانوا فنَّانين. ولكنَّ الطُّغيان يأتي بشكل طبيعي أكثر من الفَنِّ بالنسبة للرِّجال العاديِّين».[٥٧]

ومع ذلك بَقِيَ نيتشه مع كامو حتَّى النهاية. في ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٦٠، عندما اصطدمت السيارة التي كان يقودها كامو بشجرة بلانير على جانب الطَّريق، ممَّا أدَّى إلى مقتله وسائقها،

صديقه ميشيل غاليمار، انقذَفَت حقيبة كامو على بعد ياردات عدَّة من السَّيارة. كانت تحتوي على أوراق ثبوتيَّة، ونسخة من مسرحيَّة «**عطيل**» لشكسبير، ومخطوطة رواية «**الرَّجل الأوَّل**»، ونسخة من «**العلم المَرح**». وفي هذه المجموعة من الشذرات، يتنافس نيتشه مع سقراط، الفيلسوف الذي لم يَكتُب قط، لكنَّه في الوقت نفسه لم يعانِ من نَقصٍ في الكلمات. يقول نيتشه: «لم يَكُن سقراط أحكم ثرثارٍ في العالَم القديم فقط، بل كان أحكم النَّاس صمْتاً بالقدر نفسه». ومن عجيب المفارقات أنَّ سقراط فشل في التزام الصمْت عندما كان صمْته ضروريًّا: وقبل وفاته كان قد قال لصديقه كريتو أشهر عبارة له: «**أنا مدينٌ لأسكليبيوس بديك**». بالنِّسبة لنيتشه، لم يكن هذا يعني إلا أنَّ سقراط، أكثر الرجال ابتهاجاً وشجاعةً، «**عانى من الحياة**». نتيجةً لذلك، يخلص نيتشه إلى أنَّنا «**يجب أن نتجاوز اليونانيين أيضاً!**». [٥٨]

هل ينبغي لنا ذلك؟ يصف كامو في مذكِّراته زيارة قام بها في عام ١٩٥٤ إلى تورين. ووفقاً للقصَّة التي رُوِيَت كثيراً، شاهد نيتشه في عام ١٨٨٩ سائق عربة يَسوط حصانه المُنهَك، فاندفع عبر الشارع وألقى بذراعيه حول الحيوان وانهار على الأرض. عندما وصل فرانز أوفربيك بعد بضعة أيَّام للاعتناء بنيتشه، ألقى الرجل الهاذي نفسه، باكياً، على رقبة صديقه المتأثِّر. وبعد فترة وجيزة عانى نيتشه من سكتة دماغيَّة أثَّرت فيه حتى وفاته عام ١٩٠٠، ولم يتحدَّث مرَّةً أخرى. كتب كامو:

«لا يمكنني أن أعيد قراءة هذه الرِّواية دون أن أبكي». [٥٩]

وظَلَّ واقفاً أمام المبنى السَّكني حيث جاء أوفربيك لرؤية نيتشه، محاولاً عبثاً إعادة تركيب المشهد في ذهنه. لكنَّه لم يتوقَّف عن المحاولة: علَّق كامو على جدار مكتبه صورة نيتشه، قدَّمها له صديقه رينيه شار، صورة مؤلِّف كتاب «**هكذا تكلَّم زرادشت**» بعد سقوطه في صمْت دائم.[٦٠]

كتب إريك هيلر ببلاغة عن «**تدفُّق التعابير**» عند نيتشه ـ حقلٌ قويٌ من الكلمات يَصدُّ ما يصفه هيلر بأنَّه خوف نيتشه مما لا يمكن التَّعبير عنه: جهوده الملحميَّة الفاشلة «**للهرب من الزَّوال والنِّسيان والضَّعف**».[٦١] وينسج هيلر هذه الصُّورة الرَّائعة بخيطٍ واحد: هلوسة اختبرها نيتشه حيث لمح شخصيًّا، غير قادرٍ على الكلام، لكنَّه يصدر «**أصواتاً غير مفهومة أو واضحة بشكلٍ مروِّع**». وتماماً كما يحذِّرنا هيلر من ضرورة توخِّي الحذر في المبالغة في تقدير مثل هذه الاكتشافات اللافتة للنظر، كذلك لا بدَّ من توخِّي الحذر في حالة كامو. ولكنَّ هناك صدىً مُذهِلًا لذكرى نيتشه في دفاتر كامو. في صيف عام ١٩٥٦، قبل وقتٍ قصيرٍ من اندلاع معركة الجزائر العاصمة، كتب كامو ملاحظة عن «**الرجل الأوَّل**»:

«نهاية الرُّواية. ماما. بماذا كان ينطق صمْتها؟ بماذا كان يصرخ هذا الفم الصَّامت والمبتسم؟ سنُبعَث. صبرها في المطار، في عالم الآلات والمكاتب الذي هو وراءها، تنتظر بدون أن تَنبسَّ بكلمة واحدة، كما كانت النساء المسنَّات لآلاف السنين في جميع أنحاء العالم، ينتظرن مرور العالم. ثمَّ صغيرة جداً، مكسورة بعض

الشيء، على أرضٍ شاسعة، نحو الوحوش العاوية، مُمسِكَة بشعرها المُسَرَّح جيِّداً بيدٍ واحدة». [٦٢]

وبالطبع، لم يكن هنالك شيءٌ مرعبٌ في رؤيا كامو، ولم يحاول الهرب منها. على العكس من ذلك، فقد دار حولها بأمانة في رواياته وفي حياته، محتاراً بشأن صمْت أمِّه ـ عدم قدرتها على التَّعبير عن حبِّها لابنها. قبل أقلَّ من عام من وفاته، سافر كامو إلى الجزائر العاصمة بعد إدخال والدته إلى المستشفى. وفيما كانت العائلة جالسة حول سريرها، كانت الأم «**كثيفة، تنتظر بصمْت.... لقد كانت تُعاني بصمْت**». هذا الصمْت، المستمرُّ والعميق، لم يدفع كامو إلى الكلام فحسب، بل أبقاه مرتبطاً بالعالم. بعد ليلةٍ صعبة بشكلٍ خاص في أثناء إقامة كامو في الجزائر العاصمة، غمرت أمطار الصباح المدينة:

«لقد ملأت أزهار الويستريا شبابي برائحتها، بأريجها الغنيِّ والغامض... مرَّة أخرى، إلى ما لا نهاية. كانت أكثر حياةً وأكثر حضوراً في حياتي من كثيرٍ من النَّاس... باستثناء الشَّخص الذي يعاني بجواري والذي لم يتوقف صمْته عن التَّحدُّث إليَّ طوال نصف حياتي». [٦٣]

ومثل والدته، ومثلنا جميعاً، وربما حتى مثل سقراط، عانى كامو من حياةٍ لم يعتقد أبداً أنَّنا بحاجة إلى تجاوزها.

الفصل الثالث

القِيَاس

عنـد نهايـة كتـاب «**الإنسـان المتمـرِّد**»، بعـد صعـودٍ قاتـمٍ عـلى المنحدر الأخلاقي والفكري لأوروبا ما بعد الحرب، وصف كامو وجهة نظره التي كوَّنها:

«ولكنَّ الاستبداديَّة التَّاريخيَّة، على الرغم مما حقَّقت من انتصارات، ما فترَت قَطُّ عن الاصطدام بمطلَبٍ للطَّبيعة البشريَّة لا يُقهَر، يحتفظ بسرِّه الحوضُ المتوسِّطُ حيث العبقريَّة صِنوةُ المعرفة الشاقَّة... لقد رُمِيَ بنا في أوروبا سافلة، يموت فيها أكثر الشُّعوب صلفاً، محروماً من الجمال والصَّداقة، ولكنَّنا لا نزال نحن معاشر الأوروبيين ننهل من المعرفة نفسها ونَغرفُ من المَعين نفسه. إنَّ الفكرة النَّيِّرة، الحضارة ذات الوجهين، تَرقب انبلاج فجرها، في صميم الليل الأوروبي.

ولكنَّها منذ الآن تنير دروب السِّيادة الحقَّة».[1]

على الرَّغم من أنَّ نظرة كامو الثَّاقبة حول الطبيعة المعقَّدة للاستبداديَّة والشُّيوعية أثبتت بصيرتها، وعلى الرَّغم من أنَّ غنائيَّة لغته مثيرة للإعجاب، فإنَّ كلًّا منهما قد جَلجَلَت أسنان المفكِّرين والمثقَّفين المعاصرين. يُذكَر كتاب «**الإنسان المتمرِّد**»، كما رأينا اليوم بأنَّه سبب الخلاف العميق بين كامو وجان بول سارتر. لكنَّ سارتر لم يكن وحده الذي وجد الخطأ في مقال كامو. حيث اندلعت سلسلة من الأخذ والرَّدِّ المتبادل بين كامو وأندريه بريتون مؤسِّس الحركة السوريالية، الأمر الذي يكشف عن حجم كلٍّ من حجم الرِّهان الأخلاقي والشَّخصيات المعنيَّة بالأمر. في فصلٍ بعنوان «الشِّعر المتمرِّد»، انتقد كامو ارتباط السوريالية باللاوعي واللاعقلانية كضمانٍ لعبوديَّة الإنسان. كما انتقد انعدام المسؤولية الأخلاقيَّة في عبارة بريتون سيِّئة السُّمعة، المذكورة في البيان التأسيسي للحركة، «البيان الثاني للسوريالية»، التي يبدو أنَّها تحثُّ القارئ على الاندفاع نحو الحشد وإطلاق النار من مسدَّس بسرعة وبتهوُّر قدر الإمكان. وسخر بريتون الغاضب بدوره من جهود كامو في الجَمع بين الثَّورة والاعتدال، متسائلاً: «**ما الذي يمكن أن يبقى بعد أن تُفَرَّغ الثَّورة من جوهرها العاطفي؟**».[2]

يميل العنف المُشَخصَن والعَلَني للأخذ والرَّدِّ الأدبي إلى حجب المخاطر الأخلاقيَّة والسِّياسيَّة الهائلة التي يطرحها «الإنسان المتمرِّد». كانت الأمور بسيطة في نظر كامو: لم يَعُد بوسعه القبول بالوعود الشيوعية الأخروية بقدر ما لم يكن بوسعه أن يُذعن

لوضعنا الرَّاهن. بدأ كامو في «**الإنسان المتمرِّد**» باكتشاف الأسباب التي نرفض على أساسها كِلا الخيارين، ووجدها في الطَّبيعة العبثيَّة لعالمنا ـ عالم يكون فيه البحر الأبيض المتوسِّط مصدر سِمة سارتر وبريتون الوحشية ذاتها: القِيَاس la mesure.

*****

في أوائل سنة ١٩٤٢، دوَّن كامو في مذكِّراته:

«تَعرِضُ كاليبسو على عوليس الاختيار بين الخلود والأرض التي وُلِدَ فيها. لكنَّه يرفض الخلود. وهنا يكمن المعنى الكامل للأوديسة». [٣]

ويبقى هذا، في نظر كامو، ليس معنى الأوديسة فقط، بل معنى اليونان القديمة أيضاً. والواقع أنَّ تبنِّي أوديسيوس للقِيَاس، واختياره لحياة مرتبطة بعالمنا، هو ما يؤطِّر النَّظرة الإغريقية القديمة إلى العالم. وكما كتب بعد ما يقرب من عقدين من الزَّمن في «**الإنسان المتمرِّد**»، يرفض بطل هوميروس «**الألوهيَّة من أجل مشاركة نضالات ومصير كلِّ إنسان**». وعلى غرار أوديسيوس، يُعلنُ كامو أنَّنا يجب أن «**نختار إيثاكا، الأرض الوفيَّة، والفكرة الجريئة القنوعة، والعمل الواعي... في النُّور، يظلُّ العالم حبَّنا الأوَّلَ والأخيرَ**». [٤]

وهكذا يجمع كامو بين حنين أوديسيوس ـ جهده لعقدين للعودة إلى وطنه nostos ـ وبين حنينه العميق إلى الوطن. لم يَكُن توق كامو طبيعيًّا فحسب ـ الأرض والمياه والسماء الزرقاء والضَّوء السَّاطع لوطنه الجزائر ـ بل كان أيضاً حنيناً ميتافيزيقيًّا:

توقه إلى المعنى أو الوحدة في حياتنا، ذلك الشُّعور الذي شعر به بعمقٍ عندما ترعرع في الجزائر العاصمة. تتصاعد هذه المشاعر المتشابكة بالفَقد ليس فقط عبر صفحات «**الإنسان المتمرِّد**»، ولكن عبر جميع كتابات كامو، من مقالاته السَّابقة إلى عمله الأخير وغير المكتمل، «**الرَّجل الأوَّل**».

لكنَّ الحنين إلى الماضي أمرٌ معقَّدٌ. بحلول الوقت الذي أقسم فيه أوديسيوس على إخلاصه لإيثاكا، فقد جميع رفاقه في السَّفينة، وشَهِد أعمالاً وحشيَّة وبربريَّة مروِّعة، وسافر إلى العالم السُّفلي ثمَّ عاد، ونام مع عدد من الرَّبَّات الصغيرات. علاوة على ذلك، إنَّه يعلم أنَّ إيثاكا قد تعرَّضَت للغزو والاستعمار من قبل حَشْدٍ من الخاطبين الذين يتهافتون على ثروات قصره، بينما يتنافسون على يَد بينيلوبي. طبعاً، سوف يذبح أوديسيوس جميع الخاطبين -بمن فيهم أولئك الذين، كما يخبرنا هوميروس، لا يستحقون هذا الموت- الأمر الذي يقود إيثاكا إلى حافة الحرب الأهليَّة. إنَّ تدخُّل أثينا وحده هو الذي يجعل الطرف المتحارب ينسى أسباب غضبه، والذي يفرض السَّلام على هذه الجزيرة الصخريَّة العائمة في البحر الأبيض المتوسط.

على الرَّغم من أنَّ كامو لم يذكر هذه التَّفاصيل، إلا أنَّ لها صَدًى عميقًا في حياته باعتباره ابنًا مُخلِصًا لكلٍّ من اليونان القديمة والجزائر الحديثة. وقد سمحت الأسطورة اليونانيَّة لكامو بالتَّعبير عن هذا الاخلاص المزدوج. وإذا كان «**عالم الأسطورة الذي أشعر فيه بأنَّه وطني أكثر من غيره هو عالم الأسطورة اليونانيَّة**»، كما

كتب، فإنَّ هذا العالم يشمل الشَّواطئ الجنوبيّة للبحر الأبيض المتوسط.[٦] وفي الواقع، ألقى كامو العديد من هذه الأساطير ليس فقط إضفاءَ معنًى لحياته، بل أيضاً لإضفاء معنى لحياتنا. وسواء كان ذلك في حالة الجزائر التي مزَّقتها الحرب أو الكون الذي يفتقر إلى المعنى، يلجأ كامو إلى الإغريق كمرشدين ليُخرجوه من حيرته.

*****

أكَّد الأديب الكلاسيكي أولريك فون فيلاموفيتش ذات مرَّة: «**لكي نجعل القدماء يتكلَّمون، علينا أن نغذِّيهم بدمنا**»[٧]. وبعبارة مماثلة عبَّرَ كامو عن الفكرة نفسها: «**لا حياة للأساطير. إنَّها تنتظر منَّا أن نعطيها جسداً ونكسوها لحماً**».[٨] وبمجرَّد أن تُعطى الأسطورة جسداً، فإنَّها سُرعان ما تنمو وتتطوَّر. بعد فترة وجيزة من نشر «**أسطورة سيزيف**» في عام ١٩٤٢، خَلُصَ كامو إلى أنَّه كان عليه أن يتجاوز العبث. وعلى الرَّغم من تشخيصه الدقيق للحالة الإنسانية، إلا أنَّه أدرك أنَّ ذلك لم يكن دليلاً على المأزق اليائس الذي تعيشه فرنسا كأمَّة خاضعة للحكم النَّازي. وبحلول الوقت الذي انضمَّ فيه إلى صفوف المقاومة، وأصبح في نهاية المطاف مُحَرِّراً لصحيفة «كومبا Combat» السِّريَّة، كان كامو يتطلَّع بالفعل إلى دورة ثانية من الأعمال المكرَّسَة لموضوع التَّمرُّد. وأدَّى هذا التَّغيير في التَّركيز إلى تأليف «**الطاعون**»، و«**القَتَلَة العادلون**»، و«**الإنسان المتمرِّد**»: مجموعة جديدة من التوائم الثلاثيَّة التي عمَّدها كامو باسم بروميثيوس.

كما رأينا في الفصل السَّابق، كان اهتمام كامو بپروميثيوس يعود إلى أبعَدَ ممَّا كان عليه مع سيزيف. في عام ١٩٣٧، كَيَّفَ ترجمة بول مازون الفرنسية لمسرحية «**بروميثيوس مُجَندلاً**» لإسخيلوس، لصالح شركة المسرح التي أسَّسها مع أصدقائه. وفي الفترة نفسها انضمَّ كامو إلى الحزب الشِّيوعي: كانت المأساة بالنِّسبة لشباب الأقدام السُّود وسيلة مثاليَّة للوصول إلى الطَّبقة العاملة وتثقيفها. وفي بيان صاغه كامو، أعلَنَت الشَّركة عن نيَّتها «**إثبات أنَّ الفَن مفيدٌ أحياناً للنُّزول من البرج العاجي... [و] استعادة بعض القيَم الإنسانيَّة**».[٩]

لهذا السَّبب، وجد كامو حليفاً مثاليًّا في پروميثيوس. ولكن، كما هو الحال مع سيزيف، كان پروميثيوس إسخيلوس هو مجرَّد واحدٍ من بين العديد من الاختلافات في صيغة الشخصيَّة الأسطوريَّة. على سبيل المثال، يصوِّر هزيود في كتابه «**أصل الآلهة**» پروميثيوس بوصفه لا يختلف اختلافاً شديداً عن سيزيف: تايتان ثرثار وسريع الكلام، يحتال على زيوس مرارًا وتكرارًا. يبدو أنَّ قرار پروميثيوس بوَهب النَّار هِبَةً للجنس البشري ـ الفعل الذي قيَّده زيوس بسببه إلى صخرةٍ، مع نسرٍ يلتهم كل يوم كبده ـ لم يكن هدفه أكثر من مجرَّد استفزازٍ لزيوس.

ومع ذلك، فإنَّ بطل «**پروميثيوس مُجَندَلاً**» مُساوٍ للمأساة القاسية والمرعبة التي تصوّرها إسخيلوس. تنتهي المسرحيَّة الوحيدة المتبقِّية من ثلاثيَّة مُفترضَة، پروميثيوس مُجَندَلاً، بالبطل المقيَّد الذي يرفض الخضوع لزيوس. يقول پروميثيوس لهرمس، رسول زيوس، إنه لن يَنكسِرَ أمام أيِّ تعذيب:

ولا أي معامَلة شائنة، ولا أداة

سيجبرني بها زيوس على قول هذه الأشياء

حتّى أتخلَّص من ذلِّ هذه الأغلال.

يرى كامو، اليساري المُتشدِّد الذي روَّعته حالة العَرَب بقَدر ما روَّعته حالة الفقراء العاملين في مجتمع الأقدام السُّود، أنَّ هذه النهاية العَرَضيَّة القائمة على أدلَّة مُجَزَّأة، تنتهي بإفراج زيوس عن بروميثيوس، وهو أمرٌ منطقيٌّ تماماً. فبعد أقلَّ من عامٍ من إنتاج المسرحيَّة، تبنَّى كامو شخصيَّة بروميثيوس الذي يتميَّز بالحماسة الثَّوريَّة:

«تكمن روح الثورة بالكامل في احتجاج الإنسان على الحالة الإنسانية. في ظلِّ الأشكال المختلفة التي تفترضها، إنَّه... الموضوع الأزلي الوحيد للفن والدين. دائماً ما تندلع ثورة ضدَّ الآلهة ـ من ثورة بروميثيوس فصاعداً».[١٠]

غير أنَّ مشاعر الحماسة الثوريَّة هذه، أي التمرُّد المتطرِّف ضدَّ الآلهة والنِّظام الذي كرَّسته، راق أيضاً لفنَّان شابٍ وطموحٍ يستحوذ عليه جمال بلده المادي. فقد حَثَّ كامو نفسه في مذكِّراته، بعد أقلَّ من عامٍ من إنتاج «بروميثيوس طليقاً»، على «**إيجاد الإفراط في الاعتدال**».[١١] لذا يقدِّم كامو أيضاً في مقالته «**أعراس في تيبازة**»، التي كتبها عام ١٩٣٦، أنشودةً عن الإفراط الحسِّي:

«نَسير إلى لقاء الحبِّ والشَّهوة. لا نسأل دروساً، ولا نبحث عن الفلسفة المريرة التي تُطلَبُ من أجل العَظَمة. كل شيءٍ يبدو لنا باطلاً، ما عدا الشمس، والقُبَل، والعطور الوحشيَّة. أمَّا أنا، فلا أسعى إلى أن أكون وحدي. لقد أتيتُ إلى هنا غالباً مع من أحبُّهم وكنتُ أقرأ على أساريرهم الابتسامة الوَضَّاءة التي يُشرق بها وجه الحب. إنَّني أترك هنا لغيري النظام والاعتدال». [١٢]

وبشكلٍ أكثر تشديداً، إنَّ تيبازة، بوَّابة العصور القديمة هذه، تجعله يفهم:

«ما يُسَمَّى هنا بالعزِّ: الحَقُّ في الحبِّ إلى ما لا نهاية». [١٣]

كانت المأساة، بالنسبة لكامو، عنصراً أساسيًّا لما سمَّاه «**ظَهيرة الفكر**»، وهي النَّظرة العالمية التي ربطها بالبحر الأبيض المتوسط. وفي العام نفسه قامت شركته بتنظيم مسرحيَّة «**بروميثيوس مُجَندَلاً**»، ألقى كامو خطاباً عاماً بعنوان «ثقافة البحر الأبيض المتوسِّط الجديدة» في دار الثقافة في الجزائر العاصمة. رسم كامو في خطابه تصوُّره للنظرة «المتوسِّطيَّة»، وهي حركة أُسِّست في فترة ما بين الحربين العالميتين على يد الكاتب الجزائري غابرييل أوديسيو، وتسعى إلى استعادة «**روح البحر الأبيض المتوسِّط**» **من الفاشيِّين الإيطاليِّين وتمجيدهم لروما، ووضعها بدلاً من ذلك تحت الرِّعاية الإنسانيَّة لليونان القديمة**». [١٤]

بيد أنَّ ما فهمه كامو من منظور البحر الأبيض المتوسِّط لم يتطابق دوماً مع الواقع الخرائطيِّ للمنطقة. وفي قسمٍ من محاضرته

بعنوان «**الأدلَّة**»، أو «**الحقائق الواضحة**»، لا يقدِّم حقيقة، بل واقعة: «**هناك بحرٌ متوسِّطيٌّ، حوضٌ يربط بين نحو عشر دول مختلفة**». في كلِّ بلد من هذه البلدان تجد «**التَّقدير نفسه للحياة**» بين «**الرِّجال الذين يرتدون ملابس غير رسميَّة**»، والذين يعيشون «الحياة العنيفة والملوَّنة التي نعرفها جميعاً».[١٥]

ما عدا ذلك، إذا كنت رجلاً، أو امرأة بملابس غير رسمية، من أجزاء من شمال أفريقيا أو منطقة الشرق الأوسط. في عام ١٩٣٧، لم يكن هناك عشر دول مطلَّة على البحر الأبيض المتوسِّط، بل خمس عشرة دولة. ويبدو أنَّ كامو يلتزم في حساباته بالمنظور المتميِّز لأوروبا. فقد تجاهل مصر ومنطقة شرق البحر الأبيض المتوسِّط تماماً، في حين أنَّ الدَّولتين «**العربيَّتين**» اللتين سمَّاهما، الجزائر وتونس، كانتا خاضعتين للحكم الفرنسي. علاوة على ذلك، بينما كان يناقش أصول وتطوُّر الديانتين المسيحيَّة واليهوديَّة، لم يَقُل كامو كلمة واحدة عن الإسلام. وأخيراً، حين ذَكَر كامو كلمة «**العَرَب**»، أخذَت الأسئلة تتزايد بدلاً من أن تختفي. وقال إنَّ شمال أفريقيا «**واحدةٌ من البلدان القليلة التي يعيش فيها الشرق والغرب جنباً إلى جنب. وهناك، عند هذا التقاطع، فارقٌ ضئيلٌ بين الطريقة التي يعيش بها شخص إسباني أو إيطالي على أرصفة مدينة الجزائر، والطريقة التي يعيش بها العرب من حولهم**». حتى عندما نضع في الحسبان الطَّبيعة الطبقيَّة لمجتمع الأقدام السود، الذي شمل المستعمرين الأثرياء والعمَّال الفقراء القذرين مثل أسرة كامو نفسها، بقيَت هناك فَجوة شاسعة بين الظروف

الاقتصاديَّة والقانونيَّة والاجتماعيَّة للمستوطنين الأوروبيِّين في الجزائر والمجتمعات الأصليَّة العربية والأمازيغية.

ليس من المُستَغرب أن يخلص كونور كروز أوبراين، أحد أقوى نقَّاد كامو المُناهضين للاستعمار، إلى أنَّ هذا المُناصر لثقافة البحر الأبيض المتوسط الجديدة «**يكشف عن نفسه وكأنَّه عاجزٌ عن التفكير في أيِّ فئةٍ غير تلك التي ينتمي إليها الفرنسي**».[١٦] ولكن كما جادل نيل فوكسلي مؤخراً، فإنَّ جهود كامو لصياغة هويَّة متوسِّطيَّة جديدة -بعبارةٍ أخرى، اختراع أسطورة مساوية لتحدِّيات عصره- لم تكن للتهرُّب من واقع الاستعمار، ولكن لمعالجة أوجه القصور فيه».[١٧] والسِّياق، في هذه الحالة، لا يقلُّ أهميةً عن النَّص نفسه. فقد أنشأ الحزب الشِّيوعي الجزائري، وهو الحزب الوحيد الذي طالب بالحقوق المدنيَّة والسِّياسيَّة الكاملة للسُّكان العرب والأمازيغ، «**دار الثقافة**». حيث ألهَمَ هذا المِنبَر عضويَّة كامو (قصيرة الأجَل) في الحزب، وكذلك مشاركته في وقتٍ سابق، عندما كان لا يزال في المدرسة الثانوية، في مجلَّة تسمى «إقدام». إذ دَعَت هذه المجلَّة التي أسَّسها حفيد الجزائري القومي عبد القادر الذي عاش في القرن التاسع عشر، فرنسا لَمَدِّ حقوق الإنسان والمواطنة على العرب والأمازيغ الخاضعين لحكمها».[١٨]

وفي العام نفسه، أعلن كامو ولادة ثقافة متوسِّطيَّة جديدة، وانضم إلى طاقم صحيفة «جزائر الجمهوريَّة» المُستَقِلَّة. وسرعان ما انتقل من كتابة الأخبار إلى كتابة التَّحقيقات والتقارير الاستقصائيَّة، وكان أكثرها إثارة للانتباه سلسلة تقاريره من منطقة القبائل الشَّرقيَّة في

عام ١٩٣٩. ومن اللافت للنَّظر أنَّ أول هذه التقارير كان بعنوان «اليونان في ثياب بالية». يجمع التقرير بين حنين كامو إلى اليونان القديمة وغضبه من الظروف السَّائدة في الجزائر الحديثة:

«عندما يصل المرء إلى المنحدرات الأولى لمنطقة القبائل، سرعان ما يُلفت نظره القرى الصَّغيرة المُحتشدة بالقرب من القِمَم، الرجال الذين يرتدون أثواباً صوفية بيضاء، والطُّرق التي تحدُّها أشجار الزيتون، والتِّين، والصَّبَّار، بساطة الحياة، والمَناظر الطَّبيعيَّة؛ الإنسان والأرض، لا يمكن للمرء إلَّا أن يفكِّر في اليونان القديمة». [١٩]

وهكذا إلى أن يقترب المرء أكثر، ينهار نموذج اليونان القديمة في ظلِّ الواقع الوحشي للحياة اليوميَّة في منطقة القبائل. فعلى سبيل المثال، كان من المعروف لدى الجمهور أنَّ التَّوزيع الرَّسمي للحبوب لا يُلَبِّي احتياجات السُّكَّان. ولكن، كما كتب كامو، **«ما لم أكُن أعرفه هو أنَّ هذا النقص كان يقتل الناس هناك»**. [٢٠] ويستمرُّ في وصفه للواقع المُرعب للقرى حيث يَلعب الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية على مَقربة من المجاري المفتوحة، ويُغمى عليهم من شدَّة الجوع في قاعات الدراسة، ويتقاتلون مع الكلاب على بقايا المطبخ، وقد أنهكتهم التشنُّجات، وماتوا من أكل جذور سامَّة. لقد قدَّم بؤس الحياة اليومية الكئيبة من أجل أعذار المدافعين عن الإمبريالية -أي أنَّ «العقليَّة» البَربَريَّة كانت مصدر هذه العِلَل. لكن «**هذا كلُّه هراء**»، أجاب كامو. كانت المسألة تتعلَّق بالمياه والغذاء والطُّرق والمدارس -التي افتقرت

إليها منطقة القبائل إلى حَدٍّ كبيرٍ ولم توفِّرها السُّلطات الفرنسيَّة. أرسل كامو عشرات التقارير والمقالات من منطقة القبائل، وكلُّها تحمل الرسالة نفسها: يجب ألَّا يُحجَبَ بؤس هؤلاء البشر «**بعبارات مُبهِجَة أو تأمُّلات عفوية. إنَّهم يبكون من أجل لَفت انتباهنا، ويئسوا من الحصول عليه**».[٢١]

ممَّا يتجلَّى من الأحداث اللاحقة، يمكن للمرء أن يستنتج أنَّ الموقف الذي اتَّخذه كامو -بوصفه موظفاً في مؤسَّسة «إقدام» أو مراسلاً في صحيفة «**جزائر الجمهوريَّة**»- كان موقفاً ساذجاً بكلِّ بساطة. ربما. ولكنَّ هذه السَّذاجة احتفظت بقوَّتها الأخلاقيَّة في فترة ما بين الحربين العالميَّتين. ينتمي كامو إلى عددٍ قليلٍ من الجزائريين الفرنسيين الذين اعتقدوا، عن حسن نيَّة، أنَّ سياسة الجمهوريَّة الرسميَّة المتمثِّلة بالاستيعاب، وليست العَباءة الوحشيَّة للاستعمار التي تحجب الواقع، كانت مُخططاً لأمَّة مندمجة تماماً.[٢٢] وبطبيعة الحال، كانت السِّياسة الاستعماريَّة الفرنسيَّة عنصريَّة وأبويَّة. ولكن مع ذلك، واستناداً إلى المشاعر العالميَّة القائمة على المساواة في عام ١٧٨٩، احتفظت عقيدة الجمهوريَّة الفرنسيَّة أيضاً بقدرتها على إلهام أفراد استثنائيِّين مثل كامو للعمل من أجل جزائر تكون فرنسيَّة بالكامل، وجمهوريَّة بالكامل، وحرَّة بالكامل بالنِّسبة لجميع سكَّانها.

من خلال شخصيَّة بروميثيوس، واصل كامو استكشاف مسألَتي الحرِّية والمسؤوليَّة. بعد الحرب العالمية الثانية، وفيما بدا أنَّه شتاءٌ أبديٌّ يخيِّم على أوروبا، نَشَرَ كامو في عام ١٩٤٧ مقاله «**بروميثيوس في الجحيم**». حيث يبدأ في مقالته القصيرة الغنائية

هـذه بالسـؤال عـن مـا قـد يعنيـه بروميثيـوس لعـالم خـرج لتـوِّه مـن حـربٍ عالميَّـة، وتحـرَّرَ مـن الخطـر النـازي، لكنّـه أصبـح رهينـة لقـوى الشـيوعيَّة والرَّأسـماليَّة. في مَعـرَض رَدِّه، ينتقـل كامـو الآن إلى العـوالم السياسـيَّة والميتافيزيقيَّـة والماديَّـة والرُّوحيَّـة:

«بروميثيوس هو ذلك البطل الذي أَحَبَّ النَّاس كثيراً، لدرجة أنَّه مَنَحَهم النَّار والحرية في وقتٍ معاً، والفن، بينما لا تحتاج الإنسانيَّة في أيامنا هذه، بل لا يَشعل ذهنها، إلَّا التفكير في العمل. إنَّها تتفجَّر بالثَّورة في هذه الآلات التي تصنع، وهي ترى في الفَنِّ، وفي كلِّ تصوُّراته عائقاً، أو دليلاً يشير باستخدامه! وأمَّا ما يوحي به بروميثيوس فشيءٌ على عكس ذلك، إنَّه يشير إلى أنَّه لا يمكن التَّفريق بين الآلة وبين الفنِّ». [٢٣]

ولـو ظهـر بروميثيـوس نفسـه، المَكـروه مـن قِبَـل زيـوس، وسـط أنقـاض أوروبـا مـا بعـد الحـرب، لجرَّتـه القـوى التكنولوجيَّـة والإيديولوجيَّـة العظيمـة في ذلـك العـصر بعيـداً أيضـاً:

«في الحقيقـة، إنَّ بروميثيـوس لـو عـاد اليـوم، لمـا فعـل بـه أنـاس هـذا العـصر إلا مـا فعلتـه بـه آلهـة عـصره، إنَّهـم كانـوا لا بـدَّ سيصلبونه إلى صخرتـه، باسـم هـذه الإنسـانيَّة التـي كان هـو ذاتـه رمزهـا الأول». [٢٤]

وأولئك الذيـن اختـاروا «التاريـخ» ـ أولئـك الذيـن اعتنقـوا الرُّؤية الألفيَّـة التـي قدَّمتهـا الشـيوعيَّة ـ لقـد خانـوا إرث بروميثيوس:

«هذا الولد، ذو الأفكار الجريئة، والقلب الطَّائش». [٢٥]

وبما أنَّ بروميثيوس متمرِّد صاحب قضيَّة -أو بتعبيرٍ أدَقَّ، قضايا- فإن كامو لا يزال صامِداً بسبب لفتة بروميثيوس البطوليَّة التي تتمثَّل في فعل تمرُّده ضدَّ حكم زيوس. في نهاية مسرحية «**بروميثيوس مجَنَدَلاً**»، نرى إلهاً يرفض أن يتراجع عن تحدِّيه للنِّظام القائم، ويعاني من عذابٍ لا يوصف. وكلمته الأخيرة - «**انظروا، كيف أعاني ظلما!**» - تُرَدِّدُ صدى التَّحدِّي الرومانسي للقَدَر والجذَّاب جدًّا بالنِّسبة لكامو الشاب.

*****

في هذه اللحظة بالذَّات، أصبح كامو محرِّراً في غاليمار Gallimard، حيث أطلق سلسلة «أمَل» Espoir. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أهمَّ اكتشافاته كمحرِّر كان عمل سيمون فايل. كانت المُنَظِّرة السِّياسيَّة الرَّاديكاليَّة، والفيلسوفة، والصُّوفيَّة قد توفِّيت في غموض نسبي في إنجلترا عام ١٩٤٣، حيث كانت قد ذهبت قبل عامين من أجل الانضمام إلى حركة «فرنسا الحرَّة» بقيادة الجنرال ديغول. وبصرف النَّظر عن العدد القليل من المقالات المتفرِّقة، إلا أنَّ معظم كتابات فايل كانت لا تزال غير منشورة. وعلى مدى السنوات القليلة التالية، وبالتعاون مع عائلة فايل، قام كامو بتحرير ونشر العديد من أعمال فايل، بدءاً من مقالاتها السِّياسيَّة، وأبرزها «التأصيل» L'Enracinement، للأعمال الدِّينية مثل «المعرفة الخارقة للطَّبيعة» La Connaissance surnaturelle.

ولكن لعلَّ أهم تقارب بين كامو وفايل كان حول موضوع اليونان القديمة. في عام ١٩٥٣، نشر عمل فايل «المصدر الإغريقي» La Source grecque، وهي مجموعة من المقالات عن العصور اليونانية القديمة. وبالأخصّ، احتوت المجموعة على مقالة أساسيَّة بعنوان «الإلياذة، أو قصيدة القوَّة»، بالإضافة إلى مقدِّمة لفكر هراقليطس.

من الصَّعب قِيَاس مدى تأثير فايل على كامو. وفي المؤتمر الصَّحفي الذي عُقِدَ في ستوكهولم في عام ١٩٥٨، ذكر الحاصل على جائزة نوبل على نحوٍ مؤثِّرٍ اثنين فقط من الكتَّاب الفرنسيِّين الذين شعر بقربه منهما: الشَّاعر والصديق المقرَّب رينيه شار وفايل[]. وقد أشار كاتب سيرته الذَّاتية أوليفييه تود أنَّ كامو كان «مفتوناً» بفايل، لكنَّه لم يكن مُعجباً بـ «وَلعها بالشَّقاء والمَوت». [٢٦] كان هذا الافتتان، في جزءٍ منه، سياسيًّا: فقد اعتبر كامو تحليل الاحتياجات والواجبات البشريَّة في مقالها عن التأصيل L'Enracinement بمثابة كَشف revelation. [٢٧] إلا أنَّ كامو وَجَدَ أنَّ معاملة فايل لليونان القديمة لم تكن أقلَّ كَشفاً. وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّه تأثَّر بشكلٍ خاصٍ بمناقشة فايل لفكرة «القوَّة» في ملاحم هوميروس والمآسي الإسخيليَّة. بالنِّسبة لفايل، القوَّة هي حقيقة عمياء، قاسية، وعالميَّة في مَداها، ومتَّسقة في عواقبها. القوَّة حتميَّة وعديمة التمييز، تفعل فعلها على القويِّ والضَّعيف، محوِّلةً الضَّحيَّة والجاني الى «أشياء». وكما كتبت فايل، «القوَّة لا ترحم الشَّخص الذي يمتلكها، أو يعتقد أنَّه يمتلكها، كما أنَّها لا ترحم

ضحاياها؛ الثاني تسحقه سحقاً، والأول تسمِّمه. الحقيقة هي أنَّه لا أحد يمتلكها». [٢٨]

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ أولئك الذين يمتلكون القوَّة يستغلُّونها باستمرار، غافلين عن حقيقة أنَّ سيطرتهم على القوَّة مجرَّد وهمٍ مَحض. العقاب سيحلُّ لا مَحالة ـ الوسيلة التي تعيد من خلالها الآلهة التَّوازن الإلهي. وبالنِّسبة إلى فايل، كان هذا الشَّكل من إعادة التَّوازن أو العقاب «**الموضوع الرَّئيس في الفكر اليوناني. إنَّها روح الملحمة... [و] تعمل بمثابة المحرِّك الرَّئيس لمآسي إسخيلوس**». [٣٠] ثمَّ أشارت إلى أنَّنا فَقَدنا هذا المفهوم للحَدِّ ـ في الواقع، لم يَعُد لدى الغرب حتَّى «**كلمة للتَّعبير عنه في أي من لغاته: مفاهيم الحَدِّ، القِيَاس، التَّوازن، التي يجب أن تُحَدِّد سلوك الحياة، في الغرب، تقتصر هذه المفاهيم على وظيفة ذليلة في مفردات التكنولوجيا. نحن لسنا سوى مهندسين للمادة، كان الإغريق، في المقام الأول، هندسيين في تدريبهم على الفضيلة**». [٣١]

تعكس أعمال الدَّورة البروميثيَّة، ولا سيَّما «**الطاعون**» و«**الإنسان المتمرِّد**»، فَهمَ فايل القاسي والدَّقيق للكون. يعيد كامو، في قلب القرن العشرين، اللغز الذي اكتشفه في المأساة الإسخيليَّة ويعيد صياغته في ضوء أعمال فايل. إنَّه عالمٌ حيث كلٌّ من پروميثيوس وزيوس فيه على حَق، ولكنَّ أيًّا منهما لا يمتلك ما يبرِّر له حقَّه، عالمٌ تفرض فيه الآلهة الخَيار المستحيل على أجامنون: إمَّا التَّضحية بابنته، أو التَّخلِّي عن جهوده لاستعادة شرف هيلين والكرامة اليونانية. باختصار، إنَّه عالمٌ يخضع فيه البشر لما يسمِّيه

برنارد ويليامز «**الضرورة الماورائيَّة**».[٣٢] أو، كما يعترف بطل رواية الطَّاعون، د. ريو، عندما سُئِلَ ضدَّ مَن أو ما يُقاتل: «**ليس لديَّ أدنى فكرة.....وأؤكِّدُ لكم ليس لديَّ أدنى فكرة**».[٣٣]

*****

لا بدَّ أنَّ كامو قد وجد أنَّ مفهوم فايل المأساوي للقوَّة يتناسب بشكلٍ خاصٍ مع فترة ما بعد الحرب مباشرةً في الجزائر الفرنسيَّة. في منتصف عام ١٩٤٥، عاد إلى وطنه للمرَّة الأولى منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. خلال معظم شهر نيسان/ أبريل، سافر عبر البلاد، متحدِّياً الشائعات عن العنف المتزايد، كما قاس تأثير الحرب على العلاقات بين السُّكَّان من السُّود والعَرَب والأمازيغ. ثمَّ عاد مُسرعاً إلى باريس بعد انفجار مجازر قالمة المروِّعة في مدينة سطيف، التي بدأها السُّكان العرب بجنون، وانتهت بشكلٍ أكثر انتظاماً من قبل القوَّات الفرنسية، في ٨ أيار/ مايو.

ظهر مقاله الأوَّل تحت العنوان الجريء «**أزمة في الجزائر**» في طبعة الثالث عشر من أيار/ مايو من صحيفة كومبا، وهي الصَّحيفة الرَّسميَّة للمقاومة التي شغل كامو منصب مُحرِّرها خلال الحرب. وقد حذَّر من «**الصُّعوبات الجسيمة التي تواجهها الجزائر اليوم**»، وكشف كامو عن أنَّ تغيُّراً ضئيلاً قد طَرَأ على ظروف سكَّان الريف منذ رحلته السَّابقة إلى منطقة القبائل: فقد قلَّت كمِّيَّة الطعام لكثرة الأفواه، وانتشرت المُثُل العليا للجمهوريَّة نتيجة للكذبة التي كذبها أصحاب الأقدام

السُّود الأنانيُّون من القرويِّين والإداريِّين الفرنسيِّين الضعفاء. أفراد الشَّعب الذين عانوا من هذه السِّياسات «**ليسوا أقلَّ شأناً من حيث الظروف التي يجب أن يعيشوا فيها**»، ولكن أيضاً أولئك الذين «**قَضوا العامين الماضيين يقاتلون من أجل تحرير فرنسا**». كان واجب فرنسا واضحاً: كان عليها «**إخماد الجوع وشفاء القلوب الملتهبة**».[٣٤]

لقد أصَرَّ كامو على الجودة العالميَّة للكرامة الإنسانيَّة، متمسِّكاً طوال الوقت بخصوصيَّة كلِّ فرد من البشر. كان من واجب كل الجزائريِّين الفرنسيِّين أن «**يفهموا [المسلمين] الجزائريِّين قبل أن يحكموا عليهم**».[٣٥] وأعلَنَ كامو أنَّه سيتعيَّن على فرنسا «**غزوَ الجزائر مَرَّةً ثانية**».[٣٦] وأكَّد تصريح كامو الاستفزازي حقيقة زائفة: إنَّ المُثُل العُليا للجمهوريَّة لا تمتدُّ إلى ما هو أبعد من المُستعمرات الأوروبيَّة في الجزائر. ولكي تظلَّ الجزائر جزءاً من فرنسا، كان على فرنسا أن تستعيدها لا بقوَّة السِّلاح، بل عن طريق التَّطبيق المنهجي والنَّزيه لحقوق وواجبات ومزايا المواطنة. وفي افتتاحيَّة أخيرة، أعلَنَ كامو:

«إنَّ رغبتنا المَحمومة في السُّلطة والتوسُّع لن تُغتَفَر أبداً ما لم نعوِّض عنهما بالاهتمام الراسخ بالسَّعي لتحقيق العدالة وروح التَّضحية بالنَّفس. على الرَّغم من الإجراءات القمعيَّة التي اتَّخذناها للتَّوِّ في شمال أفريقيا، أنا مقتنعٌ تماماً بأنَّ عصر الإمبرياليَّة الغربيَّة قد وَلَّى».[٣٧]

لقد أدرَكَ كامو بشكلٍ أفضل بكثير من أغلب معاصريه أنَّ شعار كومبا، «**من المقاومة إلى الثَّورة**»، لم يكن مصدر إلهامٍ للرجال والنساء الذين يعيشون تحت الاحتلال النَّازي فحسب، بل أيضاً للرجال والنساء الذين يعيشون تحت الحكم الاستعماري الفرنسي. وأعلَنَ أنَّه لا يمكن تحقيق المهمَّة الحضاريَّة الفرنسيَّة إلا من خلال «**التَّحرير الكامل لكلِّ ما يَخضَعُ لها**». وإذا فشلت فرنسا في تحقيق ذلك، فلَن «**تَحصُدَ إلا الكراهية مثل كل المَهزومين الذين يثبتون أنهم غير قادرين على تجاوز النَّصر**». كان تحذير كامو من تكرار التَّجربة التي خاضتها فرنسا تحت الاحتلال النازي لافتاً للنَّظر: ذلك أنَّ قِلَّة من أهل اليسار، ناهيك عن أهل اليمين، صاغوا الإجراءات الفرنسيَّة بمثل هذا السِّياق. غير أنَّ الأمر اللافت هو دعوته إلى تحقيق العَدالة على الرَّغم من الدِّماء التي أُريقَت للتَّوِّ:

«لقد فَقَدَ فرنسيُّون تُعَساء وأبرياء أرواحهم، وهذه في حدِّ ذاتها جريمة لا تُغتَفَر. لكنَّني آمُلُ ألا نَرُدَّ على القتل سوى بالعَدالة، حتَّى لا نتسبَّب بأضرار لا يمكن إصلاحها». [٣٨]

*****

كان أمل كامو قد وُلِدَ ميِّتاً. في عام ١٩٥٥، مع تزايد سَفك الدماء في الجزائر، سافر كامو إلى أثينا لإلقاء محاضرة عن مستقبل المأساة. في حين كان يرى مسرحيَّة «**بروميثيوس مُجَندَلاً**» ذات يوم كتعبيرٍ عن إلهٍ مُعَذَّب، فقد أضفى الآن معنىً أعمق للمأساة. وقال لجمهوره: «**تلك القوى التي تواجه بعضها بعضًا داخل مأساة لها القَدر نفسه**

من الشرعية، ولها ما يبرِّرها على حَدٍّ سواء، فبروميثيوس عادِلٌ ظالِمٌ في آنٍ معاً، وزيوس الذي يضطهده بلا رحمة لديه الحَقُّ أيضاً». وبالتالي يمكن تلخيص الميلودراما بالقول: «**جانبٌ واحدٌ فقط عادلٌ ومُبَرَّر**»، في حين أنَّ الصِّيغة المأساويَّة الكاملة هي: «**كل شيء يمكن تبريره، ولا أحد عادل**». ولهذا السَّبب تنادي الجوقة في المآسي الكلاسيكية عموماً بالتزام الحذر. لأنَّ الجوقة تعرف أنَّ الجميع على حقٍّ إلى حَدٍّ معيَّن، وأنَّ الشخص الذي يتخطَّى هذا الحَدَّ، بسبب العَمى أو الشَّغف، يتَّجه نحو كارثة إذا أصَرَّ على رغبته في تأكيد حَقٍّ يعتقد أنَّه يمتلكه وحده. [٣٩]

ومن وجهة نظر الإله المقيَّد على صخرته -وهو شخصيَّة بطوليَّة وعبثيَّة- يتراجع كامو الآن. ولو كان قد اكتفى بتصوير بروميثيوس على أنَّه الطَّرف المبرَّر الوحيد، لكان إسخيلوس قد كتب دراما بسيطة غير مبالية بالمخاطر الهائلة التي ينطوي عليها الأمر. ولكنَّ بروميثيوس كان مُصيباً ومُخطِئاً على نحوٍ مأساوي: فهو مُحِقٌّ حين وَهَبَ النَّار للإنسان، لكنَّ الفعل نفسه يشكِّل انتهاكاً لنظام كونيٍّ أو توازنٍ معيَّن يُشرف عليه زيوس. لقد أدرك كامو أنَّ الشَّاغل الرَّئيس للمأساة الكلاسيكية هو أنَّ الحَدَّ «**لا يجب تجاوزه. وعلى جانبَي هذا الحَدِّ تتساوى قوى مشروعة بالقدر نفسه في مواجهة مرتعشة ولا نهاية لها. إنَّ ارتكاب خطأ تجاه هذا الحَدِّ، ومحاولة الإخلال بالتَّوازن، هو بحَدِّ ذاته هَلاك**». [٤٠]

وعلى غرار أثينا في مسرحيَّة إسخيلوس، التي تحثُّ في نهاية ثلاثيَّة «**أوريستيا**» ربَّات الغضب على التخلِّي عن رغبتهنَّ في

الانتقام، وتجنُّبِ أيِّ عملٍ من شأنه أن «**يُرسل إشارة على غارة وحشيَّة**»، طلب كامو من جميع البشر أن يتبنَّوا العدالة، وكما ناشدت أثينا، «**تبجيل الوسط**». وفي الوقت نفسه، تنمو روايته عن بروميثيوس أيضاً، وتمتدُّ الآن لاحتواء ما هو أكثر من معاناة مانح النار؛ هناك أيضاً حَقُّ زيوس في فرض تلك المعاناة.

تعكس إعادة صياغة الأسطورة البروميثية فَهمَ كامو المأساوي لحالة الجزائر التي مزَّقها الصِّراع. كان لكلا الطَّرفين الفرنسي والعربي مطالبُ مُلِحَّةٌ على الأرض على قدم المساواة، وقد انتهك كلٌّ منهما التوقعات العادلة للطرف الآخر، وتواجه كلا الطرفين مع الآخر على مرحلة يمكن معها تبرير كلِّ شيء، ولا أحد عادل. مع تصاعد حدَّة المجازر والفوضى في الجزائر، عمل كامو على إقناع الجانبين بالاتفاق على هدنة مدنية. فقد طالب في «**ندائه من أجل هدنة مدنيَّة**» الذي أعلنه في كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦، بعد بضعة أشهر من رحلته إلى اليونان، كِلا الجانبين بإدانة العنف الذي يستهدف جميع المدنيِّين. وحَثَّ زملاءه من أصحاب الأقدام السود على «**إدراك ما هو عادل في قضيَّة خصمك، وكذلك إدراك ما ليس عادلاً في تدابيرهم القمعيَّة**». وطالَبَ جبهة التَّحرير الوطني (FLN)، بالأمر نفسه: «**استنكار إزهاق أرواح الأبرياء**». وقبل أن يزداد الوضع مأساويةً، كان على الجانبين أن يوافقا على تجنيب المدنيين جميع أشكال العنف. «**يجب علينا جميعاً المطالبة بهدنة «هدنة تسمح لنا بالتَّوصُّل إلى حلول، هدنة تمنع قتل المدنيين من قبل كلا الجانبين»**».[٤١]

*****

الهدنة هي التَّعبير القانوني للوسط، كما اقترح فيليب فاني مؤخَّراً، على الأقل في أوقات الحرب.[٤٢] وربَّما لم تكن الجزائر الفرنسية، حتماً، أكثر قدرةً على العمل بناءً على هذه النَّصيحة ممَّا كانت عليه أثينا القديمة. وربما انسحب كامو في النهاية من السَّاحة العامَّة، رافضاً الحديث مرَّةً أخرى عن ما سمَّاه «**مأساته الشخصيَّة**».[٤٣] وفي عام ١٩٦٠، عندما توفِّي كامو في حادث سيارة في جنوب فرنسا، أصبح صمته فجأةً موقفه العلني الأخير من الجزائر. إنَّه صمتٌ يتردَّد فيه صدى مصير الاعتدال السِّياسي والفلسفي.

من المعروف أنَّ الاعتدال، بوصفه قيمة سياسيَّة أو مفهوماً فلسفيًّا، بعيد المنال. هل هو، في الواقع، نظريَّة متكاملة أم نظرة للعالَم؟ أم إنَّه، بدلاً من ذلك، أكثر بقليل من مجرَّد كونه سِمَة شخصيَّة؟ وهل هناك، فضلاً عن ذلك، شيءٌ مشكوكٌ فيه بشأن الرَّغبة الشَّديدة في الاعتدال؟ ففي نهاية المطاف، ليس من الضروري دوماً أن يكون أحد الطرفين النقيضين الذي يحدِّد الوسط أن يكون خاطئاً. أو، في هذا الصَّدَد، فإنَّ الوسط ليس دائماً هو الغاية المَنشودة. وفي النِّهاية، هل هو أكثر من مجرَّد ميل الى تجنُّب التَّطرُّف، سواء كان أحد هذين النقيضين مرغوباً أم لا؟

في عملٍ حديثٍ، يصرُّ المُنظِّر السِّياسي أوريليان كرايوتو على أنَّ الاعتدال نظريَّة إيجابيَّة، تقوم على القيم الجوهريَّة للتَّعدُّدية، والتَّدرُّج، والتَّسامح. يقترح كرايوتو أنَّ المُعتدل المتوسِّط هو مُفكِّر يعتنق «**القابليَّة للتخطيء كطريقة وسطى بين الشكوكيَّة الراديكاليَّة والاستبداد المعرفي، ويعترف بحدود العمل السياسي**

وعيوب الحالة الإنسانيَّة».[٤٤]

ومعظم النقاشات حول الاعتدال الأخلاقي أو التوسُّط الفلسفي تجد مصدرها في أرسطو، ولا سيما كتاب «**الأخلاق النقوماخيَّة**». يرى المفكِّر اليوناني أنَّ «**الإفراط والقلَّة من سمات الرَّذيلة**» في حين أنَّ «**الاعتدال هو الفضيلة**». ومع ذلك، فإنَّ التوسُّط ليس مثالاً نظريًّا أو مجرَّداً، إنَّما حالة يتمُّ الوصول إليها من خلال الممارسة والخبرة. بالنِّسبة لأرسطو، لا يوجد علم بالوسط أو الاعتدال؛ بدلاً من ذلك، هناك فقط سلسلة لا تنتهي من الجهود للوصول إلى هذه الحالة. ومن المُحَتَّم أنَّ الشَّخص الذي يسعى إلى الوسط يرتكب خطأً في بعض الأحيان بالإفراط أو الحَذَر. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، كما يؤكِّد أرسطو، لأنَّه سيكون «**من السَّهل علينا بلوغ حالة التوسُّط وما هو صواب**».[٤٥]

من الجدير بالملاحظة أنَّ شخصاً ادَّعى أنَّه تأثَّر كثيراً بالفكر اليوناني القديم، لَم يَستشهِد قط بموضوع أرسطو الكلاسيكي حول موضوع الاعتدال. لكنَّ الأمر ليس مفاجئاً، فقد أصَرَّ كامو مراراً وتكراراً على أنَّه ليس فيلسوفاً.[٤٦] على أقلِّ تقدير، كان من المؤكَّد أنَّه لم يَكُن قارئاً منهجيًّا للفلسفة القديمة. وكما يقول بولس أركامبولت محقًّا: «**لا شيء يشير على ما يبدو إلى أنَّ كامو لم يكن يمتلك سوى معرفة عابرة بالفكر اليوناني بين وفاة أفلاطون والعصر المسيحي**».[٤٧]

بدلاً من ذلك، ركَّزَ كامو على إسخيلوس وسوفوكليس. (ربَّما تأثَّر كامو بقراءته لكتاب «مولد المأساة» لنيتشه، وكان لديه رأي ضعيف

عن يوريبيديس، ورفض نَهجه «العقلاني» للدِّراما الإنسانيَّة). بطبيعة الحال، لا تقدِّم مسرحيَّات **أوريستيا** أو **أوديب** «**فلسفة**» متماسكة أو مقنعة تماماً. وفي هذا الصَّدَد، لم يكن التَّراجيديُّون اليونانيُّون «**فلاسفة**» أكثر من كامو. لكنَّ أعمالهم مع ذلك كانت فلسفيَّة بمعنى مختلف للكلمة: أعمال فنيَّة تستكشف الحالة الإنسانيَّة بدرجة من الاختلاف الدقيق والثَّراء لا تستطيع النُّظُم الفلسفيَّة التقليديَّة استكشافها. وكما جادلت مارثا نوسباوم، عندما نقرأ فلاسفة من أمثال أفلاطون أو كانط، فإنَّ «**ردَّنا الطَّبيعي هو أنَّ هذا ليس ما نشعُرُ به في ذلك الموقف. لا يبدو الأمر وكأنَّه حلٌّ لغز، حيث كل ما نحتاج إليه هو إيجاد الإجابة الصَّحيحة**». [٤٨]

ومنذ أفلاطون، كان أحد التَّقاليد المهمَّة في الفلسفة الأخلاقيَّة يستند إلى الاقتناع بأنَّ الفهم السَّليم للخير يُملي علينا ما يتعيَّن علينا أن نفعله في موقفٍ بعينه. بعبارةٍ أخرى، هناك خيارٌ واحدٌ فقط؛ خيارٌ واحدٌ صحيحٌ لنقوم به. تكشف المأساة اليونانيَّة عن الفَقر العاطفي لمثل هذه الحجج. كما يذكِّرنا بأنَّ استجابتنا الغريزيَّة لبعض المعضلات الأخلاقيَّة «**ترتبط بعناصر قيِّمَة أخرى من الحياة الأخلاقيَّة الإنسانيَّة، وأنَّنا قد نخاطر بالتخلِّي عن شيء ذي أهميَّةٍ حقيقية**». إذا كنَّا سنتبنَّى نهجاً أفلاطونيًّا أو كانطيًّا على سبيل المثال. [٤٩] لا إسخيلوس ولا سوفوكليس، كما تؤكِّد نوسباوم، يقدِّمان حَلًّا لمعضلات أخلاقيَّة معيَّنة وذلك لسببٍ بسيطٍ هو أنَّها لا وجود لها. فهما يصوِّران المشكلة بتعقيداتها المرعبة كافة ـ مشكلة تصوِّر تصادم حقائق غير قابلة للقِيَاس. أمَّا البطل

التَّراجيدي، فكلُّ ما يمكننا فعله هو السَّماح له «**بأن تكون لديه معاناته الخاصَّة، والتعبير الطَّبيعي عن صلاح شخصيَّته، وعدم خنق هذه الرُّدود بدافع التفاؤل المُضَلِّل**». وكل ما يمكن للجوقة فعله أو، في الواقع، كلُّ ما يمكننا فعله هو «**احترام خطورة محنَته أو مأزقِهِ، واحترام الاستجابات التي تعبِّر عن صلاحه، والتَّفكير في حالته كإظهارٍ لإمكانيَّة الحياة البشريَّة بشكلٍ عام**».[٥٠]

ترتبط كلمات نوسباوم بشكلٍ مباشر مع علاقات كامو بالتراجيديا اليونانيَّة القديمة والجزائريَّة الحديثة. بالنِّسبة لكامو، يتحدَّث الشُّعراء المأساويُّون عن وضعنا الحالي بإلحاحٍ وتفهُّمٍ لا مثيل لهما. في تصويرهم للصِّراعات التي يمتلك فيها كل طرف مطالب أخلاقيَّة متساوية، ولكن دون أن يكون لدى أيٍّ من الطَّرفين الإرادة أو الرَّغبة في الاعتراف بإنسانيَّة خصمه، ناهيك عن القدرة على الحفاظ على مقِيَاسهم أو شعورهم بالتناسب، يتنبَّأ كلٌّ من إسخيلوس وسوفوكليس بالمأساة التي اكتَسَحَت جزائر كامو. ولعلَّ البروفة الأكثر تناقضاً وترويعاً لحرب الاستقلال الجزائريَّة، والتي لم يناقشها كامو باستفاضة قط، هي مسرحيَّة «**السبعة ضدَّ طيبة**»، والتي تروي النِّزاع المروِّع من أجل عرش طيبة بين الأخوين أتيوكليس وبولينيسيس. كِلا الرَّجلين لديه الحَقُّ نفسه في المطالبة بحكم المدينة؛ كلُّ واحدٍ من الرَّجلين يعمى عن عدالة طلب أخيه. يتبارز الشقيقان خارج بوَّابة المدينة. يقتل كلُّ واحدٍ منهما الآخر، ويسقطان صريعين وجسداهما متشابكان. ومع ذلك، وبدلاً من أن تتَّحد المدينة بعد هذه المأساة، فإنَّها تمضي

أبعد في النِّزاع: مع اقتراب نهاية المسرحيَّة، تنقسم الجوقة، حيث يتبع نصفها «إسمين» وجثَّة إيتيوكليس، ويتبع النِّصف الآخر «أنتيجوني» وجثَّة «بولينيسيس. وكما تصرخ أنتيجوني: «**لا يزال آخر الآلهة، الغضب، زارعُ الشِّقاق، له الكلمة الأخيرة**». [٥١]

ألفيَّتان ونصف ألفيَّة تفصل بين طيبة إسخيلوس وجزائر كامو، ومع ذلك فهما قريبتان بشكل مخيف. وكما أدرَكَ كامو فإنَّ المأساة وحدها يمكن أن تعكس المأزق الذي تعيشه الجزائر الفرنسيَّة، فَضلاً عن المأزق الذي يعيشه هو ذاته. وعلى غرار الجوقة اليونانيَّة، مزَّقه الصِّراع إلى نصفين. كان يعلم أنَّ مطالب كلِّ جانبٍ في الجزائر كانت عادلة، مثل تلك التي كانت في طيبة القديمة. وتكمن المشكلة بطبيعة الحال في أنَّ الممثِّلين في ذلك الوقت وفي زمن كامو ذاته كانوا عاجزين عن رؤية أيِّ جانبٍ أو حَقٍّ غير جانبهم. ينسى إيتيوكليس، على سبيل المثال، أنَّ شقيقه لديه الحق نفسه في المطالبة بالعَرش. ولم يَكُن إرهابيو منظَّمة الجيش السِّرِّي (OAS)، مثلهم مثل إرهابيي جبهة التَّحرير الوطني، أقلَّ عَماءً وتَعَطُّشاً للدماء. ومثله كمثل أجامنون، الذي حول ابنته إيفيخينيا في ثلاثية إيخيلوس «**أوريستيا**» إلى حيوان قُرباني من أجل متابعة غزوه لطروادة، لَم يَكتفِ كِلا الجانبين في المأساة الجزائريَّة بشَقِّ حناجر الطَّرف الآخر، بل حناجر الأبرياء في معسكراتهما أيضاً.

في تشريحه الكئيب لحرب الاستقلال الجزائريَّة، كتب فرحات عبَّاس، زعيم القوميِّين الجزائريِّين المعتدلين: «**كنَّا ضحايا**

لأسطورة. وفي المقابل، وقع سكّان الأقدام السود ضحايا لارتباكٍ طويل الأمد. لقد قيل لهم لأكثر من قرنٍ إنَّ الجزائر، وهي مقاطعة فرنسية، كانت مجرَّد امتدادٍ لفرنسا المَدَنيَّة. لقد صدَّقوا الكذبة. وعندما دقَّت ساعة الحقيقة بالنسبة لهم شعروا بالخيانة، كما شعرنا نحن تماماً. وهكذا حاربوا بمرارة لجعل هذا الخيال الشاذ حقيقة».

[٥١] إنَّ ملاحظة عبَّاس المريرة والمُبَرَّرة لأسطورة الجزائر الفرنسيَّة تُنبئنا بالكثير. لقد ثَبُتَ أنَّ الوعد بالمساواة السياسيَّة والمدنيَّة المقدَّم للعرب والأمازيغ الجزائريين مجرَّد أسطورة مثل التصوُّر الفرنسي بأنَّ الجزائر كانت جزءاً لا يتجزَّأ من فرنسا. ومن المؤكَّد أنَّ الخيال كان «شاذًّا» عندما أعلنه المُدافعون عن الوضع القائم، ناهيك عن أنصار منظَّمة الدول الأميركيَّة، في الجزائر الفرنسيَّة.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ تقييم عبَّاس لا يفسح المجال للموقف الأكثر تعقيداً الذي يتبنَّاه أفراد مثل كامو، وهو رجلٌ من أصحاب الأقدام السّود ظَلَّ مُعجباً به لفترة طويلة. وفي حين أنَّ كامو قد شبَّه الجزائر بالأساطير، واصفاً إيَّاها في سياق التُّراث الإغريقي، فإنَّه لم يخضع لها أو يخضع لـ«الغموض» الإيديولوجي أو السِّياسي. لم ينخدع كامو بالتَّفاوتات اليائسة التي أدَّت إلى عدم المساواة على أرض وطنه ـ تلك التفاوتات التي لم يَنِ قطُّ من التنديد بها وشجبها. ومع ذلك، بحلول نهاية حياته، أدرك كامو أنَّ تحذيراته، مثل تحذيرات كاساندرا، لاقَت آذاناً صَمَّاء. والواقع أنَّ موقفه من الجزائر قد عاد إلى عالم المأساة الإسخيلية. تماماً مثل الثلاثيَّة القديمة، توقَّف التاريخ بالنِّسبة لكامو أخيراً عند «**بروميثيوس مُجَندَلاً**»: لم يستَطِع تجاوز المسرحيَّة الأولى.

وانتَهَت مع صرخة بروميثيوس بأنَّه كان أتعَسَ الآلهة، الأمر الذي رَدَّدَ صدى صرخة كلٍّ من الجزائريين الفرنسيِّين والعَرَب في فترة الخمسينيات. انعَكَسَ تأويل كامو اللَّاحق للمسرحية -في جوهرها، نداء من أجل فرض حدود- في دعوته لهدنة مدنيَّة، لكنَّه فشل في العثور على جمهور يُصغي إليه. وربما كان مَرَدُّهُ ليس لأنَّ كامو كان مثاليًّا أكثر ممَّا ينبغي في سعيه هذا، بل لأنَّه كان سابقاً لأوانه: فبالكاد كتبت فرنسا والجزائر أوَّل مسرحيَّة لمأساتهما في البحر الأبيض المتوسِّط. كانت سنوات عدَّة أخرى ضرورية لكتابة المسرحيتين اللاحقتين.

لقد أصر كامو على أنَّ الإغريق ليسوا شعباً انتقاميًّا أبداً: «**إنَّ اليونان لا يُكَدِّرون شيئاً. وفي أقصى ما يبلغون من جرأة، يظلُّون وفيِّين لهذا الاعتدال الذي سَمَوا به إلى مرتبة التَّأليه**».[٥٢] ولكنَّهم لم يكونوا أقلَّ إخلاصاً لفكرة **المواقف** المأساوية: تلك اللحظات في الحياة والفن العصيَة على الحَلِّ. وكما تؤكِّد نوسباوم، تعلمنا المأساة:

> «أنَّ هناك نوعًا من المعرفة يعمل من خلال المعاناة، لأنَّ المعاناة هي الإقرار المناسب بالطَّريقة التي تسير بها حياة الإنسان، في هذه الحالات».[٥٣]

ويذكِّرنا كامو في خِضَمِّ جهوده لفهم المأزق الفرنسي الجزائري ضمن إطار الأعمال المأساوية اليونانيَّة بأنَّه- كما تُنشِدُ الجوقة في أوريستيا: «من المعاناة تأتي المعرفة».

الفصل الرابع
الإخْلاص

يستيقظ رجلٌ قبل الفجر ويرتدي ملابسه بهدوء حتى لا يزعج زوجته، ويذهب إلى المدينة لمشاهدة رجل يُعدَم. لم يكن الافتتان أو التعطُّش للدِّماء من الأسباب التي دَفَعَت الرَّجل لحضور عمليَّة الإعدام العلنيَّة، بل كان هناك شعورٌ بالعدالة الغاضبة: فقد قام المجرم، في نوبة من الجنون، بقتل عائلة كاملة في مزرعتهم -الأب والأم وأطفالهما. وعندما عاد الزَّوج إلى البيت بعد الاعدام، هرع متجاوزاً زوجته، وتقيَّأ في الحمام، ثمَّ انهار في السرير. وحتى نهاية حياته، رفض أن يتحدَّث عن ما رآه في ذلك اليوم.

سيتعرَّف معظم قرَّاء كامو إلى هذه القصة بأنَّها عن والده، لوسيان كامو. وتظهر بشكلٍ واضح في روايتيه الأولى والأخيرة، «**الغريب**» و«**الرَّجل الأوَّل**»، وكذلك في

مقالته الطويلة «**المقصلة**»، وتطفو على سطح الطاعون في أجزاء وقطع. في الواقع، إنَّ هذه القصَّة -وهي واحدة من أمَّهات كامو القلائل اللواتي استطعنَ الحديث عن أزواجهنَّ- تسكن جميع كتابات كامو تقريباً.

وفي رواية «**الرَّجل الأوَّل**»، يسمع البطل جاك كورميري، الذي يبحث عن أخبار والده الميِّت الذي لم يَعرفه قَطُّ، قصَّة مماثلة يرويها مدير مدرسته، السَّيد ليفيسك. قبل سنوات عدة، خَدَمَ ليفيسك وكورميري بير معاً كجنديَّين فرنسيَّين في المغرب. كانا مُتَمَركزين في جبال الأطلس، وأُمِرا بإراحة رفاقهما من نوبتهم في موقعٍ متقدِّم. وعندما وصلا إلى الموقع، وجدا أنَّ المتمرِّدين قد ذَبَحوا رفاقهم، وحَشوا أعضاءهم التّناسليَّة في أفواههم.

وبمجرَّد عودتهما إلى المخيَّم، انفجر كورميري فجأةً: «**لا يمكن أن يسمح الإنسان لنفسه بفعل هذا النوع من الأشياء! هذا ما يجعل المَرء إنساناً، أو خلاف ذلك... أنا فقير، جئت من دارٍ للأيتام، وضعوني في هذا الزِّيِّ العسكري، وجرُّوني إلى الحرب، لكنَّني لم أكُن لأسمح لنفسي بفعل ذلك**». وعندما ذكَّر ليفيسك رفيقه بأنَّ الفرنسيِّين ارتكبوا جرائم لا تقلُّ شناعَةً، رَدَّ كورميري قائلاً: «**إنَّهم أيضاً ليسوا بشراً**». ثم صَرخ: «**جنسٌ قذرٌ! يا لَهُ من جنس! كلُّهم، كلُّهم....**» وكما لجأ لوسيان كامو إلى غرفة نومه عند عودته إلى المنزل من طقس الإعدام العَلَني، دخل كورميري «**أبيض كالورق إلى خيمته**».[١]

وأمَّا «**الرُّعب الذي أصاب والده**» فقد تَرَكه لابنه باعتباره «**إرثَهُ الوحيد الواضح والأكيد**».[٢] في الواقع، كان الرُّعب ثمرةَ اقتناعٍ عميق الجذور ككَرَمة العنب التي اعتبرها لوسيان كامو مَلِكَ الكروم. إنَّ ولاء كامو للأخلاق العميقة التي عَبَّر عنها والده -القناعة البدهيَّة بأنَّ البشريَّة، إذا كانت ترغب في الحفاظ على هذه المكانة، يجب أن تخضع لبعض القيود على حرِّيتها، مع الاعتراف المستمرِّ بإنسانيَّة إخوانهم من الرِّجال والنِّساء- حَمَله على كاهله طوال حياته. لقد كانت أخلاقاً قائمة على الإخلاص لواجباتنا الأساسيَّة والإخلاص لعالمنا. بالنِّسبة لكامو، كان هذا الإخلاص نفسه الذي كَشَفَ عنه والده عند رؤية الأوصال المقطَّعة بشكل طقسي للجنود الفرنسيِّين من قِبَل الإرهابيِّين، وفي سجن فرنسي إلى فعل شعائري مماثل «**الجسد مرتجف على لوح ليُقطَعَ رأسه**».[٣]

*****

يقول الفيلسوف أندريه كومت-سبونفيل إنَّ الإخلاص ليس مجرَّد فضيلة من بين فضائل أخرى؛ بل بالأحرى الفضيلة الوحيدة التي تجعل الفضائل الأخرى ممكنَة.[٤] فمثلاً، هل سيكون العدل ذا قيمة إذا كان العالم يخلو من الأفراد المخلصين لهذه الفضيلة والملتزمين بها؟ أو ما القيمة التي يمكن أن نجدها في السَّلام بدون وجود صانعي السَّلام المُلتزمين والمُخلصين لذلك المَثَل الأعلى؟ أوَ لَم يكُن ليَذوي الحقُّ لو لم يكن هنالك أفرادٌ يصرُّونَ على قول الحق أمام السُّلطة؟

ولكن يجب أن نتوخَّى الحذر: فقيمة الإخلاص لا يمكن وزنها إلا من خلال وزن الشَّيء الذي يتَّجه نحوه أوَّلاً. وكما يستنتج فلاديمير يانكليفيتش، «**إنَّ الإخلاص للغباء مجرَّد غباءٍ آخر**».[٥] إنَّ إخلاص المَرء لحزبه السِّياسي على حساب وَلائِهِ لبشريَّته ليس إخلاصاً، بل خيانة في أغلب الأحيان. يقودنا عهد الولاء الذي وقَّعه البيروقراطيُّون الفرنسيُّون للمارشال بيتان من عالم الفضيلة إلى عالم الشَّرِّ. ويتَّضح ذلك أكثر مع تعهُّد قوَّات «إس إس» بالولاء لهتلر. وفي مقابلة، يستشهد كامو بهذا المثال عندما يقول «**الإخلاص ليس، في حَدِّ ذاته، فضيلة**».[٦]

وعلى المنوال نفسه، فإنَّ الإخلاص للعدميَّة لا يستحقُّ التَّسمية. في دوَّامة الحرب العالميَّة التي حرَّضتها العدميَّة الإيديولوجيَّة التي تجسِّدها ألمانيا النَّازيَّة، وإيطاليا الفاشيَّة، وروسيا الشِّيوعيَّة، كتب كامو سلسلة من أربع «**رسائل**» إلى صديق ألماني وهمي. نُشِرَت في مجلات المقاومة خلال العامين الأخيرين من الحرب، «**رسائل إلى صديق ألماني**» تستكشف الرَّدَّين البدائيَّين والمتعارضين لعالمٍ بلا معنى. وكما أعلن كامو في رسالته الأولى:

> «نحن نناضل من أجل الفرق بين التَّضحية والتَّصوُّف، بين القدرة والعنف، بين القوَّة والقسوة، من أجل فرقٍ أبسط بين الحَقِّ والباطل».[٧]

يبدأ الإخلاص بإدراك حقيقة مفادها أنَّ هذا الفرق ليس ذا مغزى فحسب، بل إنَّه يبدأ أيضاً بإدراك حقيقة مفادها أنَّ القوَّة

والتَّضحيَّة والقدرة يجب أن تخدم متطلّبات أكثر الحقائق جوهريَّة: ألا وهي أنَّ الغضب الذي يولِّده كونٌ بلا معنى يدفع البشريَّة جمعاء إلى النِّضال ضدَّه. وهنا تمَّ تحديد الفرق بين كامو وصديقه الألماني: «**لقد قبلتم أنتم اليأس قليلاً، أمَّا أنا فَلَن أوافق عليه مطلقاً. كنتم توافقون على الظلم المُحيق بنا ثمَّ توطِّنون النَّفس على أن تزيدوا فيه، بينما كان يبدو لي على العكس أنَّه يجب على الإنسان أن يؤكِّد العدالة ويكافح ضدَّ الظلم الأبدي، أن يَخلُقَ السعادة حتى يعترض على عالم الشَّقاء**». في حين أنَّ الألماني، مقتنعاً بأنَّه لا يوجد بديل، ذهب إلى اعتناق العدميَّة، أمَّا كامو فرفض قبول هذا اليأس: «أردتُ فقط أن يعود البشر إلى تعاونهم كي يكافحوا ضدَّ قدرهم المثير». [٨]

كان هذا القَدَر المثير للاشمئزاز، في معظم الأحيان، من صنع البشر تحت تأثير العدميَّة. في الأشهر التي سبقت إنزال الحلفاء، شنَّت القوَّات الألمانيَّة حربًا على السكان المدنيِّين في فرنسا، بتحريضٍ من وحدات الميليشيات شبه العسكريَّة الفرنسيَّة la milice التي شاركت في عمليات القمع الدموي «**لمدَّة ثلاث ساعات أطلقوا النار على الفرنسيِّين**»، ويوثِّق كامو مقتل ستةٍ وثمانين رجلاً في مدينة أسك. ويروي باختصارٍ شديدٍ ما ارتكبه الألمان من ممارسات شنعاء، منذ اللحظة التي «**أطلقوا فيها النار على ثلاثة موظَّفين راكعين [في محطَّة القطار]**» إلى ستين رجلاً «**جمعوهم في مرعى**» وأطلقوا النار عليهم. ثم ينتقل كامو مخاطباً القارئ: «**ستة وثمانون رجلاً مثلكم، قرَّاء هذه الصحيفة، مرُّوا من**

أمام البنادق الألمانيَّة. ستةٌ وثمانون رجلاً: ما يكفي لملء ثلاث أو أربع غرف بحجم الغرفة التي تجلس فيها. ستةٌ وثمانون وجهاً، متوسِّلاً أو متحدِّياً، وستة وثمانون وجهاً طغى عليهم الرُّعب أو الكراهية». وعندما يتأمَّل كامو في المذبحة التي لم تنقطع، يقدِّم له إطاراً يوميًّا آخر: «**ثلاث ساعات، هي الوقت الذي سيقضيه معظمكم ذلك اليوم على العشاء، أو يتكلَّم بهدوء مع أصدقائه، في حين يشاهد أشخاصٌ في مكان آخر فيلماً ويضحكون على مغامرات مُختَلَقَة. لمدَّة ثلاث ساعات، دقيقة بعد دقيقة، ودون توقُّف، دون استراحة، أُطلقت النيران واحدة تلو الأخرى في قرية فرنسيَّة وتساقطت الجثث على الأرض**».[٩]

أو مقدار الوقت الذي استغرقه قراءة هذا الكتاب حتى الآن. لا شكَّ أنَّ الهدف المباشر لهذا المقال، بالطبع، هو تحقيق العدالة: جَمعُ الأدلَّة لاستخدامها ضدَّ الألمان وأتباعهم من الفرنسيِّين بمجرَّد تحرير فرنسا. ولكن على نطاق أوسع، فإنَّ تمرين كام في فينومينولوجيا الشَّر يتلخَّص في «**عدم نسيان أي شيء**». [١٠] وفي نهاية اليوم -وبنهاية حياتنا- يجب أن نكون مُخلصين، بقدر ما هو ممكنٌ إنسانيًّا، لماضينا، كما عاشه وفهمه لمعاصريه، وليس للأكاذيب التي ولَّدتها الحكومات أو الصُّور التي قدَّمتها الصَّحافة. يجب أن نتجنَّب الرسوم الكاريكاتوريَّة، والنسخ المُغرِقة في الماضي؛ إنَّ الإخلاص، في الحقيقة،، يكتب يانكليفيتش، «**فضيلة الذاكرة، والذاكرة نفسها فضيلة**». لا يمكن للماضي، على عكس الحاضر أو المستقبل، أن يدافع عن نفسه: «**فنحن وحدنا القادرون على حمايته**

من النِّسيان أو التزييف -الذي يرقى إلى مستوى النِّسيان نفسه تقريباً».[١١]

وفي رسالته الرابعة والأخيرة، يقول كامو لصديقه الألماني إنَّه سيقاومه ويهزمه، لكنَّه يرفض أن يَكرهه: «**على الرغم مما أوقِعَ بأبنائنا من تعذيب، على الرغم من موتانا المشوَّهين وقُرانا المَلأى بالأيتام سنحطِّمكم بلا شفقة، ولكنَّنا لا نحقد عليكم**».[١٢] وفي حين أنَّ هذا القول قد يبدو لنا مجرَّد تظاهُر، إلا أنَّه جزءٌ من أخلاقيَّات الإخلاص. فالحقد، في نهاية المطاف، هو إخلاصٌ لمشاعر لا تستحقُّ التَّقدير: الكراهيَّة أو الغضب. على هذا النحو، لا مكان لها في الأخلاقيَّات التي تصرُّ على أنَّ الغايات لا يمكن أبداً أن تبرِّر الوسائل -ولا يقل أهميَّة، أنَّ الوسائل تكون في بعض الأحيان مُبَرَّرة من خلال غاياتها فقط. بعد سنوات عدَّة، في مقابلة، رَدَّد كامو إصرار يانكليفيتش على أن ما يجب أن نسعى إليه «**ليس أيَّ نوعٍ وجميع أنواع الإخلاص، بل الإخلاص الخيِّر والشامل**».[١٣] وعندما سئل عمَّا إذا كان الإخلاص يمكن أن يبرِّر الحياة، أجاب كامو أنَّه يمكنه -ويجب- أن يفعل ذلك، إذا كان الإخلاص يخدم الحياة والسَّعادة، وليس الموت والعبوديَّة. وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ أحد الأسئلة الأخيرة التي يمكن أن يطرحها الإنسان عن قيمة حياته هو: هل كنت أميناً ومُخلصاً؟. ولكن هذا السُّؤال لَن يعني شيئاً إذا لم يكن يعني في المقام الأوَّل «**ألَم أفعَل شيئاً يحطُّ من قَدرِ حياتي أو حياة أي إنسانٍ آخر؟**».[١٤]

*****

وبحلول نهاية عام ١٩٤١، عندما كان لا يزال في وهران، يعيش مع زوجته فرانسين في شقَّة يملكها والداها، أشار كامو في مذكِّراته إلى أنَّ الأعمال الفنِّيَّة العظيمة غالباً ما تُصنَعُ في أوقات الاضطرابات التَّاريخيَّة العظمى. ويستشهد كأمثلة بشكسبير وميلتون ورابليه ومونتين.[١٥] ولقد رافق صاحب المَقال كامو معظم حياته. كمحرِّر في صحيفة «جزائر الجمهوريَّة»، ولعب كامو دور القطِّ والفأر مع الرِّقابة الفرنسيَّة، حيث قام بإدراج مقاطع من المقالات دون عَزوها، والتي ستقوم السُّلطات بإزالتها على الفور، بسبب أنَّها تشكِّل خطراً على الرُّوح المعنويَّة العامَّة. وفي أوائل عام ١٩٤٧، عندما ذهب كامو لجبال الألب ليريح رئتيه المريضتين، كانت المقالات جزءا من نظامه اليومي.[١٦]

وليس غريباً أنَّه تأثَّر بشكلٍ خاصٍّ بتأمُّلات مونتين حول الموت. «**إنَّه يقول أمورا مذهلة فيما يتعلَّق بخوفه أمام الموت**»، ثم كتب في دفتر ملاحظاته بعد أن قرأ المقال «**أن نَتَفَلسَف يعني أن نتعلَّم أن نموت**». بعد أن أنهَكَه مرض السُّل نصف حياته، كان كامو مفتوناً بمواجهات مونتين المتكرِّرة مع الموت. فقد سعى كاتب القرن السَّادس عشر، تحت تأثير الفلسفة الرُّواقيَّة، إلى مكافحة الخوف من الموت بتجريده من غرابته وجعله أمراً مألوفاً، «من غير المؤكَّد أين ينتظرنا الموت؛ لننتظره في كل مكان». ولكنَّه ليس مجرَّد انتظار: فبالنِّسبة لمونتين، لا بدَّ أن يكون المرء فاعلاً في العالم في اللحظة التي يأتي فيها الموت ليأخذنا. «أريد أن يجدني الموت أزرع الكرنب، ولكن بدون مبالاة بالموت، بل الكثير

مـن الاهتـمام بحديقتـي غـير المنتهيـة».[١٧١]

عـرف كامـو أنَّ مونتين، قبـل أن ينعـزل في قـصره للكتابـة، قـد خدم معظـم حياتـه كمسـؤول عـام. لم يكـن فقـط قاضيـاً في برلمـان بـوردو وعمـدة مدينـة في أثنـاء تفشي الطاعـون الدَّبَّلي، بـل كان أيضـاً وسيطاً بـين الوبـاء الأخطـر والأكثـر ضراوةً الـذي اجتـاح فرنسـا: الحـروب الدِّينيَّـة في فرنسـا. إنَّ قـدرة مونتـين الفريـدة عـلى تجـاوز الـصراع، والتـي تبـدو وكأنَّهـا محصَّنـة ضـدَّ المشـاعر التـي دفعـت الكاثوليـك والهوغونوتيـين للسـقوط في فـخِّ السِّـعار القاتـل، جعلتـه محـاوراً لا يُقـدَّر بثمـن لـكلٍّ مـن هنـري نافـار، الزعيـم البروتسـتانتي، وكاثريـن دي ميديـشي، والـدة الملـك الكاثوليكـي هنـري الثالـث. ولا مناص من أنَّ هـذه الصِّفـات ذاتهـا جعلـت مـن مونتين عـدوًّا لَـدوداً للمتشـدِّدين مـن كلا الجانبـين: فقـد تعـرَّض في أوقـات مختلفـة للتَّهديـد والمُلاحقـة والسِّـجن مـن قِبَـل كلٍّ مـن المتطرِّفين البروتسـتانت والكاثوليـك عـلى حَـدٍّ سـواء.

وُلِـدَ مونتين في عائلـة كاثوليكيَّـة (عائلة لها أسـلاف يهـود محتملون) تشـعَّب في العقيـدة البروتسـتانتيَّة، حيـث عـرف كِلا العالمـين، لكنَّـه رفـض الاعـتراف بصحَّـة أيٍّ مـن العالمين. وقـد صُـدِمَ مـن اقتنـاع كلِّ جانـبٍ بأنَّـه الطـرف الوحيـد العـالِم بالحقيقـة، كـما صُـدِمَ بالأفعـال التـي ارتكبهـا دعـماً لهـذه القناعـة، ورفـض خيانـة ولائِـهِ للعقـل والحقيقـة. **«ولاحـظ الوقاحـة الرَّهيبـة التـي تقـود بنـا لمناشـدة العنايـة الإلهيَّـة، وكيـف أنَّنـا رفضناهـا بشـكلٍ غـير متديِّـن ثـمَّ أخذناهـا مـرَّةً أخـرى، مـع أنَّ الحـظَّ قـد غـيَّرَ مكاننـا في هـذه العواصـف العامَّـة»**، ثـم يتابـع،

ومع ذلك، «**نحن نحرق النَّاس الذين يقولون إنَّ الحقيقة يجب أن تُصنَعَ لتَحمل نير حاجتنا**». [١٨]

ولو أنَّ الأمرَ كان مقتصراً على الحرق على الوتد في أثناء محاكم التفتيش. بيد أنَّ ما يثير الدَّهشة أكثر من ذلك هو القسوة التي اتَّسمت بها عمليات القتل على كلا الجانبين. فقد مُثِّلَ بجثَّة الزَّعيم البروتستانتي الأدميرال دي كوليجني، الذي طُعِنَ بالسيف في فمه، وفُصِل الرأس عن الجسد، وشُوِّهت جثته، ثمَّ شُنقت، وأُحرقت. أمَّا بالنسبة للبروتستانت المَشتبَه بهم فلم يكن مصيرهم أرحَمَ. وقُتِلَ رجلٌ يُدعى ماثورين لاسو، عندما أجاب على طَرْقٍ على بابه، كما كان ابنه عندما سمع الضَّجة. قفزت زوجة ماثورين من النَّافذة العلويَّة للهرب من الغوغاء وكُسِرَت كِلا ساقيها. فجرَّها الحَشد إلى الشارع، وقطعوا يديها، ووثقوها على عمود. وشوهِدت الكلاب وهي تَنهَش يديها لأيَّام عدَّة. [١٩]

رَوَّعَت هذه الأعمال مونتين، ممَّا دفعه دون شَكٍّ إلى كتابة مقال مُكَرَّس لموضوع القسوة:

«لم يكن بوسعي أن أقنع، حتى رأيت ذلك، بأنَّ هناك نفوساً وحشيَّة إلى درجة أنَّها قد ترتكب القتل لمجرَّد المتعة؛ تقطِّعُ أوصال بشرٍ آخرين؛ ويَشحَذون ذكاءهم لابتكار أساليب تعذيب غير معهودة، وأشكال جديدة من الموت، بدون عداوة، وبدون انتصار، ولغرض وحيد هو التَّمتُّع بالمشاهد الممتعة للحركات والإيماءات المثيرة للشَّفقة،

والأنين والصراخ المروِّع، لرجلٍ يموت في كرب ومعاناة. لأنَّ هذه أقصى نقطة يمكن أن تصل إليها وحشيَّة الإنسان وقسوته». [٢٠]

بعد نصف ألفيَّة، كشفت الأحداث في الجزائر أنّه لَم يتغيَّر إلا القليل:

«تتدلَّى المشابك في نهاية الأقطاب الكهربائيَّة أمام عينيَّ. كانت مشابك فولاذيَّة لامعة صغيرة، مَمدودَة ومُسَنَّنة. وُصِلَ أحدهما بفصِّ أذني اليمنى والآخر بإصبع في الجانب نفسه. وفجأةً، قفزتُ في قيودي وصرختُ بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّة. وميضٌ من البَرق انفجر بجانب أذني، وشَعَرتُ بخفقان قلبي في صدري. لقد كافحت وصرختُ وتصلَّبتُ حتى قَطَعَت الأربِطة لَحمي». [٢١]

وفي عام ١٩٥٨، نشرت دار Editions de Minuit، التي بدأت مسيرتها في عام ١٩٤٢ كناشر سرِّي مُلتزم بتحرير فرنسا، كتاب هنري ألاج **السؤال**. وهو رواية عن اعتقاله وتعذيبه من قبل المظلِّيِّين الفرنسيِّين المشاركين في معركة الجزائر، أيقظت قصَّة ألاج الأمَّة التي، حتَّى نشر الكتاب (ومحاولة الحكومة الفرنسيَّة الفاشلة للومه)، سَعَت إلى إغفال طبيعة الصِّراع. فبعد عشرين عاماً فقط من تعذيب وقتل المحتلِّين النَّازيِّين والعُمَلاء الفرنسيين، في جهودهم المشؤومة الرَّامية إلى استئصال المقاومة، للمئات من الرجال والنِّساء الفرنسيِّين، يُعَذِّبُ الفرنسيُّون الآن الرِّجال والنِّساء الجزائريِّين للأسباب نفسها. وكما أعلن ألاج، في حين أنَّ

«حالته الخاصَّة استثنائيَّة من حيث أنَّها جذبت انتباه الجمهور، فإنها ليست فريدة من نوعها بأيِّ حال من الأحوال».[٢٢]

كان تبرير الجيش الفرنسي لاستخدام التَّعذيب واضحاً ومُقنعاً: ذلك أنَّ فرنسا كانت في حربٍ مع منظَّمة إرهابيَّة حصدت تفجيراتها واغتيالاتها أرواح المئات من الفرنسيِّين الأبرياء من الرِّجال والنِّساء والأطفال. ولولا المعلومات المُستَقاة من الإرهابيِّين المقبوض عليهم، أو من المتعاطفين معهم، فإنَّ المزيد من الأبرياء سيموتون. ووفقاً لمارسيل بيجار، فقد صَرَّحَ العقيد الذي أحدث ثورة في التكتيكات العسكريَّة الفرنسيَّة في الجزائر وأشرف على استخدام التَّعذيب، بأنَّ إلحاق الألم عَمداً وبشكلٍ منهجيٍ بالعدو كان «**شَرًّا لا بدَّ منه**». ومن أجل التَّأكيد على خطورة الحرب الفرنسيَّة، خضع بيجار ذاته للتَّعذيب بالماء حتى يتسنَّى له التعرُّف إلى الآثار المترتِّبة على هذه الممارسات. إنَّه يعرف أيضاً أنَّ ذلك سيحدث لمرَّة واحدة فقط، وأنَّه لن يمتدَّ على مدى ساعات وأيام وأسابيع؛ كما أنَّه كان يعرف أنَّه ضابطٌ لا جدال في سلطته على «**مُعَذِّبيه**»؛ كما أنَّ معرفته بأنَّه كان يدير التَّجربة كلَّها، يبدو أنَّ كل ذلك من شأنه أن يقوِّض هدف هذه التَّجربة الشَّخصيَّة. في حين أنَّ حالة بيجار الخاصَّة، مثل حالة ألاج، كانت استثنائيَّة في مقدار الاهتمام الذي حَظِيَت به في نهاية المطاف، لكنَّها كانت مختلفة تماماً عن حالة ألاج لأنَّها لم تكن تمثِّل الممارسة الفعليَّة.[٢٣]

وبعد أشهر قليلة من تغيير كتاب ألاج لمفهوم الحرب الفرنسيَّة في الجزائر، نشرت غاليمار **السجلات الجزائريَّة**، وهي مجموعة من

المقالات عن الجزائر لكامو. وبحلول ذلك الوقت، كان كامو، مثل مونتين، قد ابتعد أيضاً عن الشُّؤون العامة -على الأقل فيما يتعلَّق بوطنه الجزائر. وبعد فشل جهوده في إقناع الجانبين المتحاربين بتبنِّي هدنة مدنيَّة، انزوى كامو إلى صمته العام. في شباط/ فبراير ١٩٥٦، بعد فترةٍ وجيزة من الهدنة المدنيَّة، استقال كامو من منصبه في L'Express، وأخبر أصدقاءه بأنَّه لم يَعُد يستطيع الكتابة أو التَّحدُّث عَلَناً عن الأحداث في الجزائر. ماذا يمكن أن يقول أكثر من ذلك في هذه المرحلة؟ فقد بدا خيار الصَّمت، إن لم يكن الخَيار الوحيد، هو الخيار الأكثر معنى. وكما كتب لصديقه، الكاتب القبائلي مولود فرعون: «**عندما تستخدم اللغة بشكلٍ طائشٍ للتخلُّص من أرواح البشر، فإنَّ الصمت لا يعود صفةً سلبيَّةً**».[٢٤]

ولكن لم يكن هناك اتفاقٌ آنذاك، كما هو الحال الآن، حول طبيعة صمت كامو. وبالنِّيابة عن الغالبيَّة العظمى من المثقَّفين الباريسيِّين، أعلنت سيمون دي بوفوار أنَّها «**كانت منزعجة من رفض كامو التَّحدُّث**».[٢٥] حتى النُّقَّاد المتعاطفون، مثل الكاتب التونسي اليهودي ألبرت ميمي -الذي حملت روايته الأولى، **عمود الملح**، مقدِّمة لكامو- نسبوا صَمتَ كامو إلى نوع من الشَّلل الذي أصاب «المستعمرين ذوي النِّيَّة الحسنة»، الذين لا يستطيعون الإفلات من المعضلة العويصة التي وَضَعهم فيها التَّاريخ، «**وفي الواقع، كان هذا هو وضع كامو حتَّى أنَّه كان متأكِّداً من أنَّه أصبح هَدَفاً لشكوك المُستعمر، وسخط اليسار في الجمهوريَّة**

الفرنسيَّة، وغضب شعبه». [٢٦]

كان مونتين سيدرك على الفور أنَّ محنة كامو كمحنته. ففي فرنسا القرن السادس عشر، كان المتطرِّفون من الكاثوليك والبروتستانت يحتقرون السياسيِّين: وهم المُعتدلون المُخلصون للتفاوض والتَّسوية. ولكن في دولة تشهد استقطاباً متزايداً، حيث ينظر كلُّ معسكرٍ دينيٍّ إلى الآخر باعتباره شريراً متجسِّداً، لم يكن السَّاسة يفتقرون إلى الثقة فحسب، بل كانوا في كثيرٍ من الأحيان عاجزين عن مواجهة النَّوبات المتكرِّرة من العنف. كان مونتين رئيس بلديَّة مدينة مضطربة مقسَّمة بين الهوغونوت والكاثوليك، حيث أرهب المتعصِّبون المنتمون إلى الرَّابطة الكاثوليكيَّة البروتستانت والسِّياسيين، كان مُدركاً تماماً لحجم مهمَّته الجائرة واليائسة. وكما ذكر لاحقاً:

> «إنَّ التَّعصُّب أخَذَ مكان كلٍّ من الدين والفلسفة، ويفعل الأعاجيب عندما يؤيِّد نزوعنا الطبيعي إلى الكراهيَّة، والوحشيَّة، والطموح، والطمع، والانحطاط، والتَّمرُّد. على عكس كل الجهود الساعية نحو الخير، والإحسان، والاعتدال، لكنَّه قد يؤول للزوال بمحض معجزة تحملها طبيعة استثنائيَّة». [٢٧]

إلا أنَّ مونتين، على الرغم من كونه سياسيًّا، لم يكن عديم الأخلاق، بل على العكس من ذلك. فقد كتب بحدَّة نادرة: «**ومن بين الرَّذائل الأخرى، أنا أكره القسوة بشدَّة، سواء بحكم الطَّبيعة أو القضاء، باعتبارها أمَّ الرَّذائل**». [٢٨] لقد خاف هو وكامو

من بعده أولئك الذين ادَّعوا أنَّ الغاية العظيمة يمكن أن تبرِّرَ العنف والشَّرَّ. كانت فكرة شَنِّ حربٍ خارجيَّة شائعة في أوساط بعض السِّياسيِّين، لأنَّها ستساعد في توحيد الأمَّة وتثبيط الحروب الدِّينيَّة. في حين وافق مونتين على أنَّ الصِّراع الخارجي كان «**شَرًّا أكثر اعتدالاً**» من الحرب الأهليَّة، لكنَّه رفض الاقتراح المُغري: «**لا أعتقد أنَّ الإله سيفضِّل هكذا مَسعىً غير عادل بحيث يؤذي الآخرين ويختلق شجاراً معهم من أجل مصلحتنا الخاصَّة**». [٢٩]

وفي موقفٍ حيث من السهل أن يكون قول الحقيقة خطأً قاتلاً، أصَرَّ مونتين على الرغم من ذلك على الصَّراحة: «**أنا لا أمتنع عن قول أيِّ شيء، مهما كان خطيراً أو متحدِّياً، ما كنت لأقول شيئاً من خلف ظهورهم**». وبالإشارة إلى الأساليب الدَّنيئة والوضيعة التي تستخدمها الأنظمة، اعترف مونتين بحتميَّة وجود رجال «**يخونون، ويكذبون، ويَذبحون**». [٣٠] أمَّا بالنِّسبة له، فهو «**سيستقيل من هذه المهمَّة ويتنازل عنها لأشخاصٍ أكثر طاعةً وليونة**». وفي مقدِّمته لمقالات السجلات الجزائريَّة، يبدو أنَّ كامو ينقل موقف مونتين. وفي محاولة لإيجاد أرضيَّة مشتركة بين الجانبين، يرفض حكم أولئك الذين لم يعيشوا في الجزائر. أمَّا بالنسبة لأولئك الذين «**يستمرُّون في الاعتقاد، ببسالة، بأنَّه من الأفضل أن يموت أخو المَرء فِداءً لمبادئه، فإنِّني سأكتفي بالإعجاب بهم من بعيد. أنا لست واحداً من عِرقِهم**». [٣١] ومع تعمُّق إحساسه بالانفصال، ألقى كامو اللوم على إصراره على توخِّي الصِّدق والصَّراحة «**إذا رفضتُ دوماً الكذب..... فهذا معناه أن أقبل العزلة الآن أيضاً**». [٣٢]

ويؤكِّد المؤرِّخ جيمس لو سوي حالة العزلة هذه عندما رفض كامو باعتباره «**الاستثناء الصَّارخ**» من الجبهة الموحَّدة للمثقَّفين الفرنسيِّين المُعارضين «**لانتهاك حقوق الإنسان في الجزائر**».[٣٣] وكان استثناءً، ولكن ليس بالطريقة التي أوحى بها لو سوي. أدان كامو مراراً وتكراراً ممارسات الجيش الفرنسي للتَّعذيب والإعدام. وأعلن أنَّ هذه الأفعال لم تكن إجراميَّة فحسب، بل كانت أيضاً متهوِّرة سياسيًّا. وفي مقال نشرته صحيفة L'Express في عام ١٩٥٥، أكَّد كامو على ما يبدو واضحاً بمجرَّد النَّظر في أحداث الماضي:

«كان كلُّ عملٍ من أعمال القمع..... وكلُّ عملٍ من أعمال التَّعذيب التي ترتكبها الشرطة... سبباً في تعميق هوَّة اليأس والعنف بين أولئك الذين يتعرَّضون لهم. وبهذه الطريقة، أنجَبَت الشُّرطة إرهابيِّين، أنجبوا هم بدورهم المزيد من الشُّرطة».[٣٤]

وبعد ثلاث سنوات، في السجلات الجزائريَّة، تألَّم كامو بسبب الحصاد المأساوي لهذه السِّياسة الإجراميَّة التي تعاني من قصر نظر إجرامي. وفي خطابه أمام زملائه الجزائريِّين الفرنسيِّين والفرنسيِّين، قال كامو بمنتهى الصَّراحة:

«إنَّ الانتقام من المدنيِّين وممارسة التَّعذيب جرائم نتحمَّل جميعاً المسؤوليَّة عنها. إنَّ سماحنا بحدوث هذه الأفعال لَهُوَ عارٌ يجب أن نواجهه من الآن فصاعداً. وفي الوقت الراهن، علينا على الأقل أن نرفض كلَّ تبرير، حتى تبرير الفعاليَّة،

لهذه الأساليب. ومنذ اللحظة التي نبرِّرها، حتى لو بشكلٍ غير مباشر، لا يمكن أن يوجد قاعدة ولا قيمة، فجميع المطالبات والادِّعاءات صحيحة على قدم المساواة، كما أنَّ الحرب بلا حدود أو قوانين تكرِّس انتصار العدميَّة». [٣٥]

ومن الواضح أنَّ كامو قد أدان التَّعذيب. ولكن ما رفضه كان ما يمكن أن نطلق عليه «**الإدانة الانتقائيَّة**». لقد شعر بالاشمئزاز من صمت أصدقائه السَّابقين في اليسار الفرنسي فيما يتعلَّق بإرهاب جبهة التَّحرير الوطني (FLN)، التي قادت النِّضال من أجل استقلال الجزائر. بينما كان الجيش الفرنسي وأجهزة المخابرات الفرنسيَّة تَصعق بالكهرباء، وتُغرق بالماء، وتغتصب مقاتلي جبهة التَّحرير الوطني، كانت جبهة التحرير الوطني تقتل قادَة الحركات القوميَّة المنافسة، وكذلك المدنيون من ذوي الأقدام السُّود. وفي أمرٍ صَدَرَ بعد إعدام اثنين من قادة جبهة التَّحرير الوطني في عام ١٩٥٦، دعت الجبهة إلى الانتقام الفوري ضدَّ السُّكان المدنيِّين: «**اقتل أيَّ أوروبي يتراوح عمره بين ثمانية عشر عاما وأربعة وخمسين**». وفي الوقت نفسه، أطلقت ناشطات من جبهة التَّحرير الوطني سلسلة من التفجيرات بالقنابل في المقاهي الشَّعبيَّة، ممّا أسفر عن مقتل أو تشويه العشرات من النِّساء والرِّجال. وبينما غرقت الجزائر في ما سماه «**هذيان كراهية الأجانب**»، حَثَّ كامو الجانبين على الاعتراف بالتَّواطؤ والتورُّط. وكما «**يجب إدانة مذبحة المدنيين من قبل الحركة العربيَّة، يجب على الليبراليِّين الفرنسيِّين أن يفعلوا الشيء نفسه فيما يتعلَّق بالقمع الفرنسي**». وإذا لم يتحقَّق

ذلك، خَلُصَ كامو إلى أنَّ مفاهيم الذَّنب والبراءة ستغرق في بحرٍ من دماء الحرب الشاملة.[٣٦]

كان كامو استثنائيًّا في بقائه مخلصاً للموقف الأخلاقي الذي كان مونتين سيعترف به. كتب في مذكِّراته:

«أنا رجلٌ عاديٌ بمقتضيات القيم التي يجب أن أدافع عنها وأوضحها اليوم هي قيمٌ عاديَّة. وهذا يتطلَّب موهبة زائدة وغير مزيَّنة لدرجة أنَّني أشكُّ في امتلاكها».[٣٧]

ومن بين القيم العاديَّة لدى كامو كان الاقتناع بأنَّ الغاية يجب أن لا تبرِّر الوسيلة أبداً. وبمجرَّد انتهاك هذه القاعدة، يبدأ الرِّجال والنِّساء من ذوي النَّوايا الحسنة سباقهم نحو غايات غير متوافقة، مخلِّفين وراءهم ما تبقَّى من بشريَّة مُداسَة. وقد ذكَّرَ نفسه في مذكِّراته المؤلمة:

«إنَّ جهدي الآن هو أن أحمل هذا الوجود بنفسي حتَّى النهاية، للحفاظ عليه بغضِّ النَّظر عن الجانب الذي تأخذه حياتي -حتى على حساب الوحدة التي بتُّ أعرف الآن كَم من الصعب تحمُّلها. أن لا نتهاوَن أو نُساوِم -هذا هو السِّرُّ. أن لا نستسلم، أن لا نَخون».[٣٨]

إنَّ إخلاص كامو لردِّ فعل والده الغريزي لدى رؤية الجثث المشوَّهة لرفاقه - ولا يمكن لإنسان أن يسمح لنفسه بفعل ذلك!! أدَّى إلى تأجيج معارضة كامو لعقوبة الإعدام طوال حياته. في هذا الصَّدد، وعلى غرار مونتين، كان كامو يجاهر بالحقيقة ليس فقط

أمام السلطة، ولكن لقرَّائه أيضاً -وهي مَهمَّة أصعب بكثير في بعض النواحي. وكما كتب في مقاله عن المقصلة، «**حين يُسهم الصَّمت أو حِيَل اللغة في الإبقاء على استغلال يجب أن يُتَدارَك أو على تعاسة يمكن أن يُخَفَّف من وطأتها، فليس هناك من حلٍّ آخر إلا الكلام بوضوحٍ وإظهار البذاءة التي تختفي تحت معطف الكلمات**».[٣٩]

وبحلول أواخر أربعينيات القرن العشرين، كان أصحاب الإلتماسات والمحامون، ليس فقط في فرنسا، بل في جميع أنحاء العالم، يَسعون للحصول على دعم كامو نيابَةً عن السُّجناء السِّياسيِّين المُدانين. تحدَّث كامو بالنِّيابة عن السُّجناء السِّياسيِّين في جميع أنحاء العالم، مُحتَجًّا، على حَدِّ تعبير إيف موريسي، على «**الدَّولة المُتَمَحورة حول الموت في كل مظاهرها**».[٤٠] تدخَّل كامو بالنِّيابة عن السُّجناء السِّياسيِّين في إسبانيا فرانكو، وروسيا ستالين، وأوروبا الشَّرقيَّة، وإيران، وفيتنام، واليونان.

حتَّى أنَّ الولايات المتَّحدة طلبت من كامو التحقيق في طبيعة عقوبة الإعدام على الأقل، إن لم يكن تدخُّلاً، بما أنَّ السَّجين كان قد أُعدِمَ بالفعل. وفي عام ١٩٥٩، عُرِضَ فيلم روبرت وايز «**أريد أن أعيش!**» في فرنسا. تألَّقت فيه سوزان هايوارد في دور باربرا غراهام، وهي مُدمنة مخدِّرات وُجِدَت مُذنبة بقَتل أرملةٍ غنيَّة، وأعدِمَت في غرفة الغاز. أُخرِجَ الفيلم بطريقة واقعيَّة ووحشيَّة، كما أنَّه طَمَسَ مسألة ذنب غراهام -تشير وثائق الفيلم إلى أنَّها كانت مذنبة بالفعل- ورَكَّزَ بدلاً من ذلك على مراحل الإعدام

بموافقة الدَّولة. تأثَّر كامو كثيراً بالفيلم، حتى أنَّه شاهده مرَّتين وكتب تقريراً قصيراً له. قال فيه: «**إنَّ قصَّة هذا الفيلم القاسيَّة هي قصَّة حقيقيَّة**». وأكَّدَ أنَّ الفيلم، إذا كان له أيُّ هدفٍ على الإطلاق، فهو «**مواجهتنا بحقائق عصرنا**»، وخلُصَ كامو إلى أنَّ وايز يواجهنا بحقيقة «**لا نملكُ الحقَّ في تجاهلها**». [٤١]

لم تُنشَر المُراجعة في فرنسا، ومع ذلك تُرجِمَت إلى الإنجليزيَّة ونُشِرَت من قِبَل مُنتج الفيلم. انزعج الصَّحفي الأمريكي المقيم في لوس أنجلوس، جاك بيك، من ادِّعاء كامو الواضح بأنَّ غراهام بريئة في الواقع. وأظهر، في رسالة من ثلاث صفحات إلى كامو، كيف طَمَسَ وايز عدداً من الحقائق من الفيلم تربط غراهام بالجريمة. رَدَّ كامو بسرعة على بيك، معترفاً بأنَّه ربَّما كان «**مُضلَّلاً**» بشأن قضيَّة غراهام. لكنَّ ما يلي لا يقلُّ دَلالةً: ولكن هل لي أن أقول لك إنّني لستُ مُقتنعاً بأنِّي كنتُ مخطئاً؟. بالنِّسبة لكامو، إنَّ عقوبة الإعدام في حَدِّ ذاتها تظلُّ فعلاً إجراميًّا سواء كانت غراهام مذنبة أم لا. في الواقع، إنَّه يوضِّح قائلاً: «**إنَّ معارضة عقوبة الإعدام فقط إذا كان الشخص المُتَّهم بريئاً أمرٌ غير منطقيٍّ على الإطلاق**». [٤٢]

إنَّ ما أستَحوذَ على مُخيِّلة كامو الأخلاقيَّة هو الطريقة التي أعاد بها الفيلم تصوير واقعة قتل إنسانٍ آخر. فقد ظلَّ «**الجسم المُختَلِج الذي أُلقِيَ به على لوحٍ خشبي لتقطع عنقه**» -أو لِملء رئتيه بالغاز السَّام، أو لتمزيق قلبه بالرَّصاص- السَّبب الأساسي لعقوبة الإعدام. ومن هنا فقد شعر كامو بالرُّعب من أي جهدٍ

تبذله المؤسَّسات أو الأفراد الذين يمثلون المجتمعات الديمقراطيَّة أو الشموليَّة، التي سَعَت إلى تجريد هذه الحقيقة الغاشمة. وفي رسالة إلى أستاذه السَّابق جان جرينيه، روى كامو كيف أنَّه ترك محاكمة رجل فرنسي مُتَّهَم بالخيانة في أثناء عمليَّة التَّطهير بعد الحرب في فرنسا. أخبَرَ كامو جرينيه أنَّه من الواضح أنَّ الرَّجل المُتَّهم كان مُذنباً تماماً، «**ومع ذلك، غادَرتُ المحاكمة قبل النِّهاية لأنَّني كنتُ معه [أي المُتَّهم]..... في كلِّ رجلٍ مُذنِب، هناك عنصرٌ من البراءة؟. وهذا ما يجعل أيَّ إدانة مُطلقة أمرًا مُقَزِّزًا. نحن لا نفكِّر بما يكفي في الألم**».[٤٣]

لا يوجد شيء مجرَّد حول الألم. فهو مُحَدَّدٌ وحقيقيٌّ، وعندما يكون مكثَّفاً وشديداً، فإنَّه «**يدمِّر العالم**».[٤٤] وتوضِّح إلين سكاري نقطة أساسيَّة عن الألم: في حين أنَّ معظم المشاعر الإنسانيَّة مرتبطة بشيءٍ خارجيٍّ -يقع المرء في الحب، يشعر المرء بالقلق- إلا أنَّ الألم ليس له مثل هذا المَرجع، «**إنَّه ليس من، أو، لأيِّ شيء**». علاوةً على ذلك، تقول سكاري إنَّ الجهد المبذول لتجسيم أو تشبيه الألم هو في حَدِّ ذاته «**علامة على انتصار الألم، لأنَّه يحقِّق قدرته ويفرض ذاته جزئيًّا من خلال إحداث هذا الانقسام المُطلق، حتى ضمن دائرة نصف قطرها أقدام عدَّة، بين إحساس المرء بذاته، وواقع الأشخاص الآخرين**».[٤٥]

لقد شغلت مخاطر التَّجريد كامو. ففي عام ١٩٤٧، وهو العام نفسه الذي نشر فيه كتاب **الطاعون**، أعاد كامو قراءة مذكِّراته المدرسيَّة التي سجَّل فيها أفكاره لأكثر من عقدٍ من الزمان. وكان

التأثير واقعيًّا: «**قرأتُ كلَّ هذه المذكِّرات -بدءاً من الأولى. كان هذا واضحاً بالنسبة لي: المناظر الطبيعيَّة تختفي تدريجيًّا. والسَّرطان المُعاصِر ينهشني أنا أيضاً**». بكلماتٍ أخرى، كانت ذاكرته عن العالم -موضوع إخلاصه- تتلاشى فيما نما انشغاله بالأفكار. صَدَمَهُ هذا التَّباعد نفسه خلال رحلة في العام نفسه من باريس إلى الجزائر:

«هذه الطَّائرة باعتبارها واحدة من عناصر النَّفي والتَّجريد الحديثة. لم تَعُد هناك طبيعة، والوادي العميق، والرَّاحة الحقيقيَّة، ومجرى الجبل غير السَّالِك، كل شيء يختفي. ويبقى هناك رَسمٌ بيانيٌّ -خريطة. الإنسان باختصار، ينظر من خلال عيني الإله. ويدرك حينها أنَّ الإله وحده يمكن أن تكون له فقط وجهة نظر مجرَّدة. هذا ليس بالشيء الجيِّد». [٤٦]

إنَّ المخيَّلة الأخلاقيَّة، بالنِّسبة لكامو وسيمون فايل، عمل اهتمام. اهتمام بالعالم المادِّي في سلوكه غير المَرِن واللامبالي تجاهنا، واهتمام بإخوتنا من بَني البشر في كفاحنا المُشترك لمقاومة اللامبالاة الكونيَّة هذه. بعد وقتٍ قصيرٍ من تحرير فرنسا، كتب كامو سلسلة من المقالات بعنوان «**لا ضحايا ولا جَلَّادون**». كانت المقالات مستوحاة جزئيًّا من المحادثات التي أجراها كامو في باريس مع آرثر كويستلر، والذي أكسبه تحليله الدَّاهم للشُّموليَّة في روايتيه **الظلام عند الظهيرة** و **اليوغي والمفوَّض** شهرةً واسعة على جانبي المحيط الأطلسي. لكنَّ مقالات كامو تعكس أيضاً تصوير فايل للطرق التي تَعمَلُ بها القوَّة، سواء كانت حرباً أو مَصانِعَ أو حكومات، على تحويل البشر إلى مجرَّد أشياء. إنَّ عبارة

«**لا ضحايا ولا جلّادون**» ما هي إلا صدى وَرَدٌّ على ادِّعاء فايل بأنَّ أولئك الذين يمارسون القوَّة ليسوا أقلَّ ضحاياها من أولئك الذين يخضعون لها. وأخيراً، تنبع المقالات من ارتباط كامو الدائم بالخصوصيَّة والملموس، وشكوكه الدَّائمة بالعام والمجرَّد. وكما أعلن في المقال الافتتاحي «**قرن الخوف**»، لقد فَقَدنا عادة التَّحدُّث «**بلغة الإنسانيَّة**» التي أُسِّست على حقائق حياتنا اليوميَّة عندما «**نواجه جمال العالم ووجوه الناس**». وكتب كامو أنَّه في كل حالة من هذه الجرائم، «**كان من المستحيل إقناع الأشخاص الذين يرتكبون هذه الفظاعات بعدم القيام بها، لأنَّهم كانوا واثقين من أنفسهم، ولأنَّه لا توجد طريقة لإقناع فكرة مجرَّدة**».[٤٧]

في جهوده «**لإنقاذ الجثث**» المُحَمَّلَة فوق مياه فيضانات التَّاريخ، يشخِّص كامو واحدة من «**أخطاء القرن**»: الأشخاص المتعلِّقون بلغة الأيديولوجيا أو البيروقراطيَّة، كما يقول، «**يفتقرون إلى الخيال عندما يتعلَّق الأمر بموت أشخاص آخرين... وكما نحب بعضنا الآن بالهاتف، ونعمل ليس على المادَّة بل على الآلات، فإنَّنا نَقتُل ونُقتَل بالوكالة. ما يُكتَسَب بالنظافة يُفقَدُ بالفهم**».[٤٨]

ومن أجل إنقاذ فهمنا الأخلاقي والتجريبي، يصرُّ كامو على أن نتخلَّى عن القوالب النَّمطيَّة المعتادة التي نستخدمها، وأن نصف بدلاً من ذلك بأمانة قدر الإمكان ما يعنيه قتل رجلٍ آخر بطريقة منهجيَّة ومتعمَّدة. فبدلاً من إخبار السجين المحكوم عليه بأنَّه سَيُكَفِّر عن فعلته أو عوض المجتمع، ينبغي أن نخبره أنَّه:

«إذا قتلتَ فسوف يُلقى بكَ في السِّجن طوال شهور أو سنين، ويتقاسمكَ يأسٌ مُضنٍ ورهبةٌ متجدِّدة دوماً، إلى أن نَتَسَلَّلَ، ذاتَ صباحٍ إلى زنزانتكَ، وقد خَلَعنا أحذيتنا كي تكون مفاجأتنا لك أشدَّ في أثناء نومك الذي سيسحقك بعد قلق الليل. سوف نَنقَضُّ عليك، ونوثِقُ معصميكَ خلف ظهرك، ونَقُصُّ ياقة قميصك وشعركَ بالمِقَصِّ إذا كان هناك موجب. ورغبةً في المزيد من الإتقان، سوف نربط ذراعيكَ بوساطة حزامٍ جلديٍّ، حتى تُرغَمَ على أن تكونَ مُحدَودِباً فتقدِّم بالتالي رقبةً بارِزَةً كما ينبغي. سوف نحملكَ، يسندكَ رجُلان من ذراعيكَ، وقدماك تزحفان إلى الخلف عبرَ الممرَّات. وأخيراً، تحت سماءٍ داجية، سوف يمسك بك أحد الجَلادين من أسفل بنطالك ويَرمي بكَ أفقيًّا على لوحٍ خشبيٍّ، بينما يثبِّت آخر رأسَكَ في فجوَةٍ، ويُسقِطُ ثالثٌ من عُلُوٍّ مترين وعشرين سنتيمتر، ساطوراً يَزِنُ ستين كيلو غرام سيحزُّ عنقكَ كموسى حلاقة». [٤٩]

وهكذا كانت قوَّة مقالته **تأمُّلات في المقصلة**، التي نُشرَت سنة ١٩٥٧ مع مقالة مرافقة لكويستلر. في البداية، يُحَذِّرنا كامو من أنَّه لن يتحدَّث بأدبٍ عن طبيعة عقوبة الإعدام. بدلاً من ذلك، أنوي أن أتكلَّم عنها بفَجاجة - ولكن ليس من أجل الإثارة أو الفضيحة أو السَّاديَّة. ويعلن كامو:

«أعتقد، كإنسان، أنَّ المظاهر المُنَفِّرَة لوضعنا البشري ينبغي أن تُواجَهَ بصَمتٍ، إذا كانت مَحتومة. لكن حين يُسهِمُ الصَّمتُ أو حِيَل اللغة في الإبقاء على استغلال يجب أن يُتَدارَك أو على تعاسة

يمكن أن يُخَفَّفَ من وَطأتها، فليس هناكَ من حَلٍّ آخَرَ إلا الكلام بوضوح وإظهار البَذاءة التي تختفي تحت معطف الكلمات». [٥٠]

ولا ينهي كامو روايته هنا، ولكنَّه يتحوَّل بدلاً من ذلك إلى رَدِّ الفعل الفسيولوجي للجسم عندما يُقطَع الرأس - فنَعلم، على سبيل المثال، أنَّ وجه شارلوت كورداي «قد احمَرَّ، بعد أن أُعدِمَت، من صَفعَة الجلَّاد»- وكذلك رَدُّ الفعل النَّفسي لأولئك مثل السُّجناء الآخرين- الذين يشاهدون عمليات الإعدام المُتكَرِّرة. أمَّا بالنِّسبة لِمَن يقرأ منَّا هذه الرِّوايات، فإنَّ كامو أكثر حِدَّةً: «**إنَّ مَنْ يحتسي قهوته وهو يقرأ أنَّ العدالة قد انتصرَت، سيَبصقها فيما لو قرأ أبسط التَّفاصيل**». [٥١] وهناك رَدُّ فعلٍ أفضل بكثير، بالطبع، من تذوُّقه القهوة في أثناء ارتطام النَّصل، ولكنَّ النتيجة -أنَّ الإنسان يتحوَّل إلى كتلة من اللَّحم بلا رأس «**ويتحوَّل المجتمع إلى حالة من الرُّعب البدائي حيث لا يمكن الحكم على شيء**»- تبقى كما هي. [٥٢]

يشرح كامو بلغة مشحونة بالغضب المكبوت ما يَحدث للإنسان الخاضع للآليات القانونيَّة والاجتماعيَّة والتِّقنيَّة التي تشكِّل آليَّة القتل التي تقرُّها الدَّولة. ويؤكِّد نفاق الادِّعاءات الرَّسميَّة بأنَّ لعقوبة الإعدام وظيفةً نموذجيَّةً أو وقائيَّةً رادِعَةً: إذا كان هذا هو الحال، كما يقولون، فإنَّ الدَّولة لن تُخفي الآلة أو الفصل الأخير من عمليَّة الإعدام عن الرَّأي العام. «**وأمَّا اليوم، فلا وجود لمثل هذا المشهد، بل كلُّ ما هنالك عقابٌ يعرفه الجميع عن طريق السمع، وبين الحين والحين نَبَأ عن تنفيذ حكم إعدام،**

ولكنَّه مُصاغٌ بحيث يأتي وَقعُهُ مُخَفَّفاً». [٥٣] وهو يسأل: ألَن يكون من الأنسب أن يتمَّ بدلاً من ذلك توزيع تقريرٍ مُفَصَّلٍ على جميع المواطنين عن ما يحدث للجسم الحي بعد قطع الرَّأس؟. أو بعبارة أكثر فعاليَّة، «أرِنا الرَّأس المقطوع» بينما نَستَعِدُّ ليومٍ جديد. [٥٤]

*****

إنَّ الخطر في اتِّهام الآخرين بالافتقار إلى الخيال الأخلاقي هو أن نستنتج أنَّهم إذا كانوا مذنبين فإنَّهم يفتقرون أيضاً إلى حَقِّ الحياة بين بقيَّتنا. ولفترة وجيزة، طالب كامو بالنِّيابة عن فرنسا بالحَقِّ في محاكمة المذنبين وإعدامهم. في صيف وخريف عام ١٩٤٤، عندما كافحت فرنسا المُحَرَّرَة مع ماضيها المباشر وحاضرها الفوضوي، كتب افتتاحيَّة في مجلة Les Lettres francaises السِّرِّيَّة، مدافعاً عن قرار شارل ديغول بإعدام بيير بوتشو، وزير الداخليَّة السَّابق في عهد فيشي، الذي كان قد أمر بإعدام مقاتلي المقاومة. **«لقد مات الكثير من الرجال الذين أحبَبناهم واحترمناهم»**، كما أعلن: **«تمَّت خيانة العديد من العظماء، وأُهينَت العديد من القيم حتَّى بالنِّسبة لنا في خضمِّ هذه المعركة، نحن الذين كانت قد تغريهم للعَفو عنه لولا ذلك».** [٥٥]

وعلى الرغم من شناعة خيانة بوتشو، لكنَّها لم تَكُن أعظم جرائمه. وقال كامو إنَّ ما حدث بدلاً من ذلك هو **«افتقاره للخيال»** -عدم قدرته على الاهتمام بالعالم والعواقب المُترَتِّبة على تصرُّفاته. وبوصفه الموظَّف البيروقراطي في فيشي الذي أشرف على

قـوَّات الشُّرطـة في البـلاد، تـصرَّف بوتشـو وكأنَّ شـيئاً لم يتغـيَّر منـذ هزيمـة فرنسـا واحتلالها. كمخلـوقٍ مـن «**النِّظـام التَّجريـدي والإداري الـذي لطالما عرفـه**»، قـام بوتشـو، مسـترخياً مـن مكتبـه، بالتَّوقيـع عـلى قوانـين تحكـم بالمـوت عـلى البـشر. هـذه الأوراق، موقَّعـة ومختومـة، سـوف «**تتحـوَّل إلى فجـرٍ مـن الرعـب للفرنسـيين الأبريـاء ممـا يـؤدِّي إلى موتهـم**». [٥٦]

أجـبرت جريمـة بوتشـو كامـو عـلى قيـاس كلماتـه بشـكلٍ كامـل: «**في ضـوءِ خيالنـا الكامـل نتعلَّـم قبولـه دون تـردُّد..... إنَّ حيـاة رجـلٍ يمكـن إزالتهـا مـن هـذا العـالم**». [٥٧] وفي مقالاتـه الافتتاحيَّـة التـي تَلَـت تحريـر فرنسـا مبـاشرة، ركَّـزَ كامـو عـلى هـذا الخلـل نفسـه «**المُبتَـذَل**». ففـي نهايـة شـهر آب/ أغسـطس، وفي رَدِّ فعـل عـلى تعذيـب وقتـل أربعـةٍ وثلاثـين فرنسـيًّا عـلى أيـدي أفـراد مـن جماعـة ميليشـيا فيـشي القاتلـة، صَرَخَ قائـلاً: «**مَـن يجـرؤ عـلى التَّحـدُّث هنـا عـن الغفـران؟**». ومـرَّةً أخـرى يركِّـز غضبـه عـلى افتقـار الجـلَّاد إلى الخيـال. وبعـد وصـف حالـة الجثـث، يجبرنـا كامـو عـلى تخيُّـل مـا أدَّى إلى وفاتهـا: «**رجـلان وجهـاً لوجـه، يستعدُّ أحدهمـا لتمزيـق أظافـر الآخـر الـذي يراقبـه وهـو يفعـل ذلـك**». [٥٨] هـل كان هنـاك مـكانٌ في فرنسـا مـا بعـد الحـرب للرِّجـال الذيـن ارتكبـوا مثـل هـذه الجرائـم؟ كلا، أجـاب كامـو. وكـما أعلَـنَ في مقـالٍ افتتاحـي سـابق: «**لم يعـد لأحـد الحَـقُّ في أن يفتقـر إلى الخيـال. انتهـى وقـت التَّجريـد**». [٥٩]

وإلى أن انتهـت عمليَّـة التَّطهـير الثـوري إلى سلسـلة مـن المحاكـمات الاعتباطيَّـة والتـي لا تخلـو مـن تناقـض عـلى نحـوٍ متزايـد، مَصحوبـةً

بأعمال انتقاميَّة موجزة في هيأة عدالة. ومع اشتداد اشمئزاز كامو، جرت محاكمة روبرت برازيلاك. كان برازيلاك روائيًّا وكاتباً وكان عَميلاً متحمِّساً، أدين برازيلاك بالخيانة وحُكِمَ عليه بالإعدام في أوائل عام ١٩٤٥. ومن المؤكَّد أنَّ الكاتب مارسيل أيمي، الذي قدَّم التماساً إلى الجنرال ديغول يطلب منه تخفيف عقوبة برازيلاك إلى السِّجن مدى الحياة، لم يكن يفتقر إلى الخيال: فقد طلب من كامو التَّوقيع عليه.

كان فرانسوا مورياك، الذي كانت مقاومته ومؤهِّلاته الأدبيَّة مساوية لكامو، قد وقَّع على العريضة بالفعل. كان مورياك في السَّابق كاثوليكيًّا مُلتَزِماً، وقد اصطدم مع كامو بشأن مسألة التَّطهير. فقد أصرَّ الرَّجل الأكبر سنًّا على الحاجة إلى الرَّحمة والمصالحة الوطنيَّة، في حين رَدَّ المحرِّر الشاب في مجلة **كومبا** بأنَّ التعافي الوطني يتطلَّب أساساً مبنيًّا على عدالة عنيدة. ومع ذلك، عندما تحوَّلت المحاكمات إلى أحداث وهميَّة، اعترف كامو في افتتاحيَّة: «نرى الآن أنَّ مورياك كان محقًّا: نحن بحاجة إلى الإحسان».[٦٠] ومع ذلك، عندما رفض مورياك أن يَدَعهُ يُفلِت من مأزقه -شَكَرَ بازدراء «**سيدنا الشَّاب**» لأنَّه تحدَّث من قمَّة أعماله التي لم يكتبها بعد- رَدَّ كامو بأنَّ نوع رحمة مورياك لا علاقة لها بالجيل الذي يمثله هو، أي كامو. فلا تعني المسيحيَّة شيئاً «**لهؤلاء الذين يعيشون في هذا العالم المعذَّب، والذين يؤمنون بأنَّ المسيح ربَّما مات ليخلِّص الآخرين، لكنَّه لم يَمُت ليُخلِّصنا**». ونتيجة لذلك، «**سوف نرفض إلى الأبد هذه المحبَّة الإلهيَّة التي تُحبط عدالة البشر**».[٦١]

ومع ذلك وقَّع كامو على عريضة برازيلاك. مُعِدًّا التَّفكير في ادِّعائه السابق بكلِّ تعقيداته بأنَّه «لم يُعد لأحدٍ الحَقُّ في الافتقار للخيال»، قضى كامو الليلة دون نوم قبل التَّوقيع على العريضة بالتَّفكير في واقع المصير الذي ينتظر برازيلاك. وكما أوضح في رسالته المُرفقة إلى أيمي:

«لطالما اعتبرت عقوبة الإعدام رُعباً، وحكمتُ بأنني، على الأقل كفرد، لا أستطيع المشاركة فيها، حتَّى بالامتناع عن التصويت. هذا كلُّ ما في الأمر. وهذا أمرٌ أفترض أنَّه سيجعل أصدقاء برازيلاك يضحكون».[٦٢]

*****

هذا التخوُّف نفسه هو ما دفع كامو، وخاصَّة بعد صمته عن الحرب الأهليَّة، إلى التدخُّل لصالح الجزائريِّين المحكوم عليهم بالإعدام من قبل المحاكم الفرنسيَّة. حتَّى نشر عشرات الرَّسائل الأخيرة التي تبادلها مع محامين وسياسيِّين، كان دور كامو الملحوظ في هذه القضايا غير معروف في الغالب. ومن بين مراسليه الأكثر إلحاحاً كان صديقه إيف ديشيزيل: كان زميله في جامعة الجزائر، وانضم كلا الرجلين إلى القتال خلال الحرب. بعد أن أسَّس مكتب المحاماة في الجزائر العاصمة، كان ديشيزيل ينتمي إلى الأقليَّة المُحاصَرة من ذوي الأقدام السود الليبراليين، مثل كامو، الذين حاربوا بالنِّيابة عن المجتمعات العربيَّة والأمازيغية. ولم يَكُن مُستغرباً أن يكون ديشيزيل إلى جانب كامو في كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦ عندما ألقى خطابه

في الجزائر العاصمة الذي دعا فيه الى هدنة مدنيَّة. وكان الصديقان يخاطبان بعضهما في رسائلهما بضمير «**نحن**» tu المألوف -وهو أمرٌ نادرٌ بالنِّسبة لكامو، الذي خاطب حتَّى صديقه المقرَّب رينيه شار بصيغة «حضرتكَ» vous الرسميَّة.

وفي أواخر شهر تموز/ يوليو ١٩٥٧، هدَّد قرار محكمة فرنسيَّة بإدانة ثلاثة مقاتلين جزائريِّين بالإعدام بعرقلة المفاوضات المتعثِّرة بين فرنسا وجبهة التَّحرير الوطني. والأهمُّ من ذلك، كما أوضح ديشيزيل، الذي مثَّل الرِّجال، أنَّ الأحكام كانت ذات دوافع سياسيَّة. ويبدو أنَّ أحد الرِّجال، وهو بعداش بن حمدي، بريء من تهمة القتل، في حين لم تحدث أيُّ وَفَيَات في الحالتين الأخريين. وقد أوضح ديشيزيل بشكلٍ مَحموم لكامو أنَّ هاتين القضيَّتين، «**لا تستندان مطلقاً إلى أي مفهوم للعدالة**». وحين أخبر ديشيزل صديقه القديم بأنَّه كان «مهووساً» بعمليات الإعدام و«خائفاً» من عواقبها، فقد صُدم أيضاً لأنَّ القادة السِّياسيين في فرنسا حتَّى لا «**يزعجهم المتطرِّفون الوطنيُّون**» سوف يَسمحون «**بسقوط حفنة من الرُّؤوس**». وسواءٌ بكتابة صحيفة أو بإلقاء خطابٍ عام، أو بالتَّوسُّط لدى الرَّئيس أو أي زعيم سياسي آخر، توسَّل ديشيزيل إلى كامو ليتصرَّف قائلاً: «**يا إلهي، عليك أن تصرخ**».[٦٣]

وبعد يومين من التماس ديشيزيل، تلا ذلك التماسٌ ثانٍ من زميلته جيزيل حليمي، وهي محامية يهوديَّة تونسيَّة كانت قد بدأت مسيرتها المهنيَّة كمحامية للحقوق المدنيَّة امتدَّت لنصف قرن. في عام ١٩٥٦، عندما التقى كامو بحليمي للمرَّة الأولى،

قال لها: «**إذا كان بإمكاني مساعدتك في بعض الحالات، فاتصلي بي**».[٦٤] لم تكن حليمي بحاجة إلى أن تُسأل مرَّتين: كتبت بإلحاحٍ شديد، ولخَّصت الحالات الثلاث، مع **تأملات حول المقصلة** التي استشهد بها كامو كحجَّة لتدخُّله. ولم يكن عليها أن تضيف أنَّ عمليَّات الإعدام ستحدث في سجن بربروس -السجن نفسه الذي شهد فيه والد كامو الإعدام الذي لم يَسِم حياته فحسب، بل حياة ابنه أيضاً. وكما وصفت بيروقراطيَّة الموت بدقَّة من قبل كامو، خَلُصَت حليمي: «**يجب أن تساعدنا**».[٦٥]

وهذا ما فعله كامو -وإن لَم يَكُن بشكلٍ علني، وربما لم يكن دائماً متَّسقاً مع كتاباته الخاصَّة. ولعدم رغبته في كسر صمته بشأن الجزائر، قام كامو بدلاً من ذلك بمراجعة الحالات بعناية -تحتوي أوراقه الخاصَّة على أوصاف طويلة ومفصَّلة كتبها عن كلِّ حالة- وكتبها إلى الرَّئيس رينيه كوتي. وهو منصب شرفي إلى حَدٍّ كبيرٍ في الجمهوريَّة الفرنسيَّة الرَّابعة، ومع ذلك كان للرَّئيس سلطة العفو عن السُّجناء. وقد أوضَحَ كامو في رسالته أساس طلبه: لم يكن أيٌّ من الرِّجال المدانين مذنبا «**سواء بالهجمات العمياء أو الإرهاب البغيض الذي يستهدف السُّكَّان المدنيِّين، سواء كانوا فرنسيِّين أو مسلمين**». ويذكِّر كامو كوتي بأنَّه جزائري فرنسي لا تزال عائلته تعيش هناك، وأنَّ «**الدِّراما الحاليَّة يتَرَدَّد صداها يوميًّا في داخلي**». ويخلص إلى أنَّ احتياطَه العام ربَّما يكون مُبَرِّراً كافياً ليطلب من كوتي أن يفكِّر في العفو عن هؤلاء الرِّجال، ولو لمجرَّد «**الحفاظ على ما تبقَّى من مستقبل الجزائر**».[٦٦]

أقرَّ كوتي باستلامه خطاب كامو، لكنَّه لم يردَّ مباشرةً على طلب كامو. لكنَّ الأحداث اللَّاحقة كانت معبِّرة بما فيه الكفاية. وكما أشار كامو بإيجاز في رسالة وجَّهها إلى رئيس الوزراء غي موليت، فإنَّ كلَّ السُّجناء الذين حاول إنقاذ حياتهم قد أعدِموا.[٦٧] (ولم يكن هذا هو الحال دائماً. ويبدو أنَّ الرسالة بعث بها إلى شارل ديغول في عام ١٩٥٩ نيابة عن ثلاثة رجال مُدانين أثَّرت على الجنرال، الذي قام فيما بعد بتخفيف الأحكام الصَّادرة ضدَّهم). وفي رسائله إلى كوتي وموليت، كما هو الحال مع ديغول بعد وصوله إلى السُّلطة في عام ١٩٥٨، ذكَّر كامو دائماً بزيِّ السُّلطة الهائلة التي يرتديها هؤلاء الرِّجال من خلال مناصبهم المُنتخَبة. وخلف هذه التَّذكيرات، يحوم إصرار كامو على الواقع خلف العبارات الباردة والبيروقراطيَّة. فهو لم يُرِد قطُّ أن يهرب محاوروه أو يختبئوا من عقوبة الإعدام المُطلقة. كان هذا شغله الشاغل عندما كان لا يزال مراسلاً لصحيفة «جزائر الجمهوريَّة». ففي مقال افتتاحي يناشد فيه تدخُّل أقوى مسؤول في الجزائر، في قضيَّة ميشال أودنت، الذي سُجِنَ بتهمة باطلة، تحدَّث كامو كرجلٍ إلى آخر: في حين أنَّنا «**نلمحكَ في المواكب والقوانين والخطب**»، تساءَل: «**أين نجدُ الرَّجل في كل ذلك؟**» إلا أنَّ كامو يشير على الرغم من ذلك إلى أنَّ وراء الأبَّهة والمناظر الطبيعيَّة، هناك **كائنٌ بشريٌّ**: الحاكم العام ليس أكثر من رجلٍ واحد بين آخرين. وهذا الرَّجل من لحمٍ ودم، والذي سيعرف يوماً ما رعب الموت، هو الذي يناشده كامو نيابةً عن أخيه الإنسان. إنَّ إنقاذ حياة فردٍ «**في عالم تضيع فيه إنسانيَّة العديد من الرِّجال الآخرين بسبب العبثيَّة والبؤس... يَرقى إلى**

إنقاذ نفس المرء».[٦٨]

بينما ذكَّر كامو موليت في إحدى رسائله بأنَّه يعترض على عقوبة الإعدام «**كمبدأ عام**» -وهذا، بعد كل شيء، هو ثمرة مقالته **تأمُّلات حول المقصلة**- إلا أنَّ ضغوطاً عاطفيَّة شديدة وزمنيَّة وضعت هذا المبدأ في حيِّز الاختبار. وفي بعض الأحيان، يتَّخذ بوضوح قراراً تكتيكيًّا: فيبدأ في رسالة إلى موليت بالإعلان: «**إنَّه سيترك جانباً العنصر البشري [لعقوبة الإعدام] الذي تعرفه حقَّ المعرفة**».[٦٩] وبدلاً من ذلك، استعرض كامو الأسباب العمليَّة والسياسيَّة لتخفيف أحكام الإعدام، وكلها تشترك في الهدف نفسه: الحفاظ على الجزائر حيث يتعايش الفرنسيُّون والعرب في سلام.

وقد يبدو كامو في بعض الأحيان، لأسباب تكتيكيَّة أيضاً، مستعدًّا لتجاهل العنصر البشري تماماً، كما هو الحال عندما يميِّز بين الأعمال التي لم تودِ بحياة المدنيِّين، «**والأعمال الإرهابيَّة الاعتباطيَّة والعمياء**». وفي الواقع، تروي حليمي في مذكِّراتها إنَّه بعد طلبٍ آخرَ إلى كامو للمساعدة، أجاب: «أنا أحتقر قَتَلَةَ النساء والأطفال». وكتبت في ذلك اليوم، إنَّ كامو «**رفض مساعدتي**».[٧٠]

ولكنَّ الطَّبيعة الدَّقيقة لرفض كامو تظلُّ غامضة. في الواقع، تشير الوثائق الأرشيفيَّة إلى أنَّ المرَّة الوحيدة التي رفض فيها كامو هذا الطلب كانت في شباط / فبراير ١٩٥٨. وكتب إليه الكاتب برنارد كلافيل، سائلاً عن ما إذا كان يقبل قيادة حركة

مدنيَّة لإلغاء عقوبة الإعدام. ولكنَّ سكرتيرة كامو، سوزان آنيلي، أجابت بأنَّه مريضٌ إلى الحَدِّ الذي يجعله عاجزاً عن الرَّدِّ، ناهيك عن تولِّي هكذا مَهمَّة. وما زاد الأمر سوءاً أنَّ كامو، في أعقاب حصوله على جائزة نوبل قبل بضعة أسابيع، بدا عاطفيًّا بقدر ما كان واقعيًّا: فبسبب تعرُّضه لنوبات من الاختناق، تجنَّب كامو المشي في الأماكن العامَّة، وكان يخشى أن يتعرَّف إليه الغرباء.[٧١]

*****

وفي قلب **الأوديسة** لهوميروس هناك لَمَّ شمل بين أب وابنه اللذين لم يعرفا بعضهما. تبدأ الملحمة مع الابن، تيليماخوس، الذي يغادر إيثاكا بحثاً عن أخبار والده الذي يعتقد أنَّه مات بعد عشرين عاماً. بالطبع، عند عودته فقط يجد أوديسيوس على قيد الحياة، وبصحَّة جيِّدة، ويستعدُّ لاستعادة حكمه. ولكن ماذا لو وجد تيليماخوس، بعد سنواتٍ من البحث عن أبيه، على موقعِ دَفنٍ في جزيرة نائية في بحر إيجة نُقِشَ عليه اسم والده وعمره؟ وبضربة قويَّة من الإله، يُدرك تيليماخوس أنَّه عاش فترةً أطول من الأب الذي يقف عند قبره.

وهذا، على الأقل، هو الاختلاف في قصَّة هوميروس التي نجدها في الرَّجل الأول. عندما يزور جاك كورميري المقبرة في سان بريوك ويكتشف شاهد قبر والده، يدرك أنَّه الآن أكبر من والده عندما توفِّي، وهو أبٌ «**توفِّي مجهولاً على هذه الأرض التي عاش عليها فترة قصيرة، كشخصٍ غريب**».[٧٢]

وعلى غرار تيليماخوس، قيل لكورميري إنَّه «**صورةٌ طِبقَ الأصل**» من الأب الذي لم يعرفه قط.[١٧٣١] وعلى غرار تيليماخوس وهو ينطلق لتقفِّي أخبار والده، يقول كورميري لنفسه: «**لم يَفُت الأوان بعد؛ ما زال بإمكانه البحث ومعرفة مَن كان هذا الرَّجل الذي يبدو الآن أقرب إليه من أي كائنٍ آخر على هذه الأرض. بإمكانه أن ...**»

وقد فعل ذلك جزئيًّا ببقائِهِ مُخلصاً لذكرى أبيه الوحيدة التي نُقلت إليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس
التَّمرُّد

في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠، حَلَّ التاريخ على مدينة سيدي بوزيد التُّونسيَّة. في منتصف النَّهار، توجَّه بائع فاكهة اسمه محمد البوعزيزي إلى مكاتب حكومة المنطقة. وإذ كان واقفاً في الشَّارع خارج المدخل، سكب على نفسه علبة بنزين وأشعل عود ثقاب بملابسه. وبحلول الوقت الذي تم فيه إخماد النيران، كانت جثَّة البوعزيزي قد احترقت بالكامل تقريباً. ومع أنَّه عاش ثمانية عشر يوماً أخرى، لم يستيقظ قطُّ من غيبوبته. في الوقت الذي دُفِن فيه في ٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١، كانت الهزَّات الأولى للربيع العربي تمتدُّ من سيدي بوزيد عبر شمال أفريقيا والشَّرق الأوسط.

وفي وقتٍ سابق من ذلك اليوم، قام المسؤولون المحليُّون، بذريعة أنَّ البوعزيزي لم يكن يمتلك رخصة بيع، بإلغاء عربته

وصادروا بضائعه. وليزيدوا الأمر سوءاً، قاموا أيضاً بصفعه والبصق عليه. وكان البوعزيزي العائل الوحيد لأسرة مكوَّنة من ثمانية أفراد، فقيراً للغاية بحيث لم يتمكَّن حتَّى من دفع الرُّشوة المعتادة المطلوبة في مثل هذه الحالات. ولم يَلقَ البوعزيزي أيَّ اهتمام إلا بعد أن سار إلى محطة بنزين قريبة، واشترى ما يكفي من البنزين لغمر ملابسه، وعاد إلى مبنى المحافظة. كان يصرخ: «**كيف تتوقَّعون منِّي أن أكسب عيشي؟**». وكان محمد البوعزيزي يعرف الإجابة بالفعل. لم يكن عود الثقاب الذي أشعله علامة تعجُّبٍ فحسب، بل أيضاً علامة على التَّمرُّد. في الواقع، كان البوعزيزي يسأل: «**كيف تتوقَّعون منِّي أن أقبل الحياة التي تفرضونها عليَّ؟**».

*****

كان جواب كامو واضحاً عن السُّؤال الفلسفي الوحيد الجدير بالطَّرح -ما إذا كان الانتحار ردَّنا على عالَمٍ عبثيٍ بارد وخالٍ من المعنى: لا يمكن ولا يجب أن يكون الانتحار. وإذا كان التَّمرُّد، كما كتب في **أسطورة سيزيف**، «**يعطي الحياة قيمتها**»، فإنَّ الانتحار يعني قبول حقيقة الحياة والعالم الخاليين من المعنى والأهميَّة. وأكَّد أنَّه من الضَّروري:

«أن يموت المرء دون مساومة وليس بمَحضِ إرادته. الانتحار هو رفض/ إنكار. يمكن للرَّجل العَبثيِّ أن يستنزف كل شيء حتى النِّهاية المريرة... والعَبَث هو توتُّره الشديد، الذي يتمسَّك به باستمرار بجهدٍ انفرادي، لأنَّه يعرف أنَّه

في ذلك الوعي، وفي ذلك التَّمرُّد اليومي يعطي الدليل على حقيقته الوحيدة، ألا وهي فعل التَّحدِّي».[١]

وفقاً لكلِّ المقاييس، كان محمد البوعزيزي رجلا رَزينا ومسؤولا، وعلى الأرجح لم يقرأ قصَّة كامو. ولكن لو كان قد فعل ذلك، فهل كان سيشكِّك في ادِّعائه بأنَّ الانتحار هو بمثابة قبول بالأمر الواقع بادرة يأس؟. في روايته الخياليَّة عن البوعزيزي، يحاول الرِّوائي الفرنسي الطَّاهر بن جلُّون إعادة تصوير الصُّور النهائيَّة التي تومِض عبر ذهن الشَّاب: «**المسؤول الذي بَصَقَ عليه، والآخر الذي أهانه..... والدته وأخواته ينتظرن في الصَّفِّ من أجل الماء، رجال الشرطة الذين يضايقونه، شتائم وضَرب وسباب**».[٢] وباختصار، الاعتداءات المتكرِّرَة على كرامته. وبطبيعة الحال، لا نستطيع أن نجزم بما إذا كان الأمر كذلك. ولكن ما نعرفه هو أنَّ الملايين من الشَّباب والشَّابَّات فسَّروا بادرته الأخيرة على أنَّها عمل من أعمال التَّحدِّي والتَّمرُّد، «**بالأمس كان كامو..... واليوم هو البوعزيزي**»، أكَّد مفكِّر تونسي شاب: «**ربَّما لم يَعُد جزءاً من عالمنا، لكنَّه لم يَعُد صامتاً. صرخته حيويَّة: إنَّه يطالب بالحَقِّ في الكرامة وفي العمل. وهو يُطَالب بالحَقِّ في التَّمتُّع بالحقوق التي ينبغي أن يتمتَّع بها جميع البشر**».[٣]

كان كامو يكتب ضدَّ المغالطات القاتلة للشِّيوعيَّة وميلها لتبرير القتل الجماعي والقمع السِّياسي. ولكنَّه كان سيستخدم المصطلحات نفسها أيضاً ضدَّ الجرائم السِّياسيَّة في شمال أفريقيا، وهي بدورها عرضةٌ لأشكال التَّبرير المنطقي التي تصنَّف في أغلب الأحيان

باعتبارها «**واقعيَّة سياسيَّة**». إذ لطالما شَدَّدَ المدافعون عن الدِّول الاستبداديَّة على طول السَّاحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسِّط منذ فترة طويلة على ضرورة النِّظام على حساب الديمقراطيَّة، والوضع الراهن على حساب الشُّكوك التي تكتنف التَّغيير. طُلِب منَّا أن نتغاضى عن فساد ووحشيَّة هذه الدِّول؛ عندما لم يكن لدينا خيار سوى النظر إليها، كنَّا نميل إلى تبريرها بالمصطلحات الأبويَّة نفسها التي استخدمها القادة المصريُّون بينما كانوا يُطرَدون خارجاً: الشَّعب ليس مستعدًّا للدِّيمقراطيَّة.

وكما كتب كامو عن حركات التَّمرُّد في الماضي والحاضر، كذلك كان ردُّ فعل شباب شمال أفريقيا على «**مشهد اللاعقلانيَّة، في مواجهة حالة ظالمة وغير مفهومة**». وبالنِّسبة للشَّباب المصريين تحت حكم طاغية بعمر الثمانين مدعوم من قبل قوات الشرطة القاتلة، والمليارات من المساعدات العسكريَّة الأمريكيَّة، وبالنسبة للشَّباب التونسي تحت حكم حاكمٍ فاسدٍ اعتبرت عائلته الوطن مستودعاً للنهب، وبالنسبة للشَّباب الليبيين تحت حكم مجنونٍ قاتل ينافس حكمه حكم كاليغولا على روما، جاءت اللحظة الأخيرة، كما كتب كامو، «**أن ينتهي الغضب**».[٣]

*****

ومع **الإنسان المتمرِّد**، تحوَّل كامو على ما يبدو من التَّركيز السَّابق في **أسطورة سيزيف**: لقد حَلَّ القَتل في الخلاصة الفلسفيَّة الآن محلَّ الانتحار. ويصرُّ كامو، معلناً أنَّه ومعاصريه يعيشون في

«**عصر القتل العَمد والجريمة الكاملة**»، وعلى أنَّنا «**لَن نعرف شيئاً حتَّى نعرف ما إذا كان لدينا الحَقُّ في قتل إخواننا البشر، أو الحَقُّ في السَّماح بقتلهم**».[٤]

في حين أنَ كامو لا يربط المقال السَّابق بحقائق عصره -على الأقل إذا كان يتوقع نشره تحت أعين الرقابة الألمانيَّة اليَقِظَة- يُواجه المتمرِّد بشكلٍ مباشرٍ الإيديولوجيات التي جعلت تلك الحقبة نفسها ممكنة. وقد يعتقد المرء، كما يقول، إنَّ الفترة «**في غضون الخمسين عاماً، تقتلع أو تَستعبد أو تقتل سبعين مليون إنسان، ينبغي أن تُدانَ فوراً**» ولكنَّه يحذِّر من أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة: يجب أيضاً أن نحاول فهم «**غلطة هذا العصر**».[٥] ويكشف لنا كامو أنَّنا نتحمَّل ذنبنا التاريخي وكذلك الميتافيزيقي عندما نسمح لعقلية التَّمرُّد أن تنمو في الانتقال -أو بالأحرى- التَّحوُّل إلى ثورة.

خلال الأسابيع والأشهر التي أعقَبَت تحرير فرنسا وهزيمة ألمانيا واليابان، ومع تعمُّق الهُوَّة بين الولايات المتَّحدة وروسيا السُّوفييتيَّة، كان كامو قد بدأ بالفعل في استكشاف الفارق ما بين المتمرِّد والثوري. في سلسلة المقالات الافتتاحيَّة التي كتبها عام ١٩٤٦ بعنوان «**لا ضحايا ولا جلَّادون**»، أعلَنَ كامو أنَّ الإرهاب صَعَقَ العالم. لماذا؟ لأنَّ:

«الإقناع لم يَعُد مُمكناً، لأنَّ الإنسان قد وُلِدَ بالكامل إلى أيدي التاريخ - لأنَّنا نعيش في عالم من التَّجريد، وعالم من البيروقراطيَّة والآليَّة، وعالمٍ من الأفكار المُطلقة، عالم بلا

اتجاه. إنَّنا نتلهَّف للهواء بين الناس الذين يعتقدون أنَّهم على حَقٍّ تماماً، سواء كان ذلك في آلاتهم أو أفكارهم».[٦]

وبطبيعة الحال، لم تكن روسيا الشِّيوعيَّة تحتكر الآلات ووسائل الإنتاج، والأفكار التَّجريديَّة والبيروقراطيَّة. كان كامو مشغولاً بشدَّة بهذه الميول في الثَّقافة والسِّياسة الأمريكيَّة. كان صوته، إلى جانب صوت فرانسوا مورياك، هو الصوت الوحيد في الصَّحافة الفرنسيَّة الذي لَم يُسمَع عن أنباء هيروشيما. في مقال افتتاحي نُشِرَ في الفترة القصيرة بين قصف هيروشيما وناغازاكي، وأعلن كامو أنَ «**حضارة الآلة قد حقَّقت أقصى درجات الوحشيَّة**». وبدلاً من الاحتفال بهذا الحدث الذي بدت عليه رائحة «البذاءة»، حَثَّ كامو على التَّفكير مَلِيًّا. ولكنَّه لم يَكُن متفائلاً بشأن نتائج التأمُّل:

«حتَّى قبل الآن لم يكن من السهل التَّنفس في هذا العالم المُعَذَّب. والآن نجد أنفسنا في مواجهة مصدرٍ جديدٍ للكرب، والذي من المرجَّح تماماً أن يكون قاتلاً. من المحتمل أن تكون الفرصة الأخيرة للجنس البشري، وانتهزت الصُّحف هذا الأمر كذريعة لإصدار خاصٍّ: «هناك المزيد! المزيد! اقرؤوا كلَّ شيءٍ عنه!».[٧]

وعلى الرغم من أنَّ التَّهوين من شأن العنف يبعث على القلق، فإنَّ أكثر ما يبعث على القلق هو الجهود المبذولة لإضفاء الشَّرعيَّة عليه. ولهذا السَّبب، شَعَرَ كامو بالصَّدمة إزاء الموقف الذي اتَّخذه بعض الأصدقاء في اليسار الفرنسي الذين كانوا يعتقدون أنَّ الشِّيوعيَّة كانت على الأقل

تبني عصراً أفضل -أو بعبارةٍ ثانية «**أنشودة الغد**». وكان موريس ميرلوبونتي، الذي نشر كتابه «**الإنسانيَّة والإرهاب**» على شكل سلسلة قبل فترة وجيزة من بدء كامو بكتابة «**لا ضحايا ولا جلَّادون**»، رئيس الجوقة غير المرجح أن يكون المسؤول عن هذه العبارة. ميرلوبونتي، العالم الفينومينولوجي الذي أثَّر عمله بعمقٍ على جان بول سارتر، رَفَضَ أن يُغمِضَ عينيه عن الواقع الوحشي للاتِّحاد السُّوفييتي.

وأشار إلى أنَّه كان من الواضح أنَّ الاتحاد السُّوفييتي كان بعيداً كل البُعد عن «**النُّور البروليتاري للتَّاريخ الذي وَصَفَه ماركس ذات يوم**». ومع ذلك، استمرَّ ميرلوبونتي، إنَّ وجود معسكرات العَمَل القسري السوفييتيَّة لَم تَفشَل في تشويه الماركسيَّة فحسب، بل فشلت أيضاً في إدانة التَّجربة السُّوفييتيَّة. والتاريخ وحده هو الذي «**سيعطينا الكلمة الأخيرة فيما يتعلَق بشرعيَّة حالة معيَّنة من العنف**». ولا يقلُّ عن ذلك أهميَّة، بل أكثر مَدعاةً للقلق، هو أنَّ ميرلوبونتي لاحظ أنَّ العنف ينبض في عروق جميع المجتمعات. ولكن هناك فصائل دم مختلفة: كان النَّمط الشِّيوعي مفضَّلاً إلى حَدٍّ على النَّمط الرَّأسمالي. وخَلُصَ ميرلوبونتي إلى أنَّ السُّؤال هو:

> «أين يتناسب شكل من أشكال العنف مع معنى التاريخ، وما إذا كان يحمل في طيَّاته الوعد بإنكار العنف في المستقبل». [٨]

ونستطيع أن نقول باختصار إنَّ دَم الشِّيوعيَّة، على الرغم من احتوائه على مواد سامَّة، كان ينبض في نهاية المطاف عبر جسد سياسي نشط، في حين كان دَم الرَّأسماليَّة في حَدِّ ذاته بمثابة السُّم

الذي يحكم على الجسد بالموت -أو بعبارة أكثر دقَّة، كان بلا معنى. مثل الكثيرين من اليسار الفرنسي -أو في هذا الشَّأن، في أي مكانٍ آخر على الطَّيف الإيديولوجي- لم يَقبل ميرلوبونتي احتمال أنَّ للتاريخ نهايةً، ودون أي أمَل، وأنَّه كان فارغاً من المعنى، ومحروماً من نهاية معيَّنة. إنَّ الماركسيَّة وحدها تستثمر التَّاريخ بمعنًى ونهايةٍ. ولهذا السَّبب، فهي ليست مجرَّد فلسفة تاريخ، بل هي:

«فلسفة التاريخ، والتَّنديد بها هو حفر قبر للعقل في التاريخ. بعد ذلك لن يكون هناك المزيد من الأحلام أو المغامرات».[٩]

لم يَردَّ ميرلوبونتي بشكلٍ مباشر على سلسلة مقالات كامو. ولعلَّه كان من غير الضَّروري أن يفعل ذلك. بعد وقتٍ قصيرٍ من نشر ميرلوبونتي لجزءٍ من كتابه الخاصِّ في مجلَّة «**الأزمنة الحديثة**»، وهي المجلَّة المؤثِّرة الأولى التي حرَّرها سارتر وبوفوار معاً، اصطدم كامو معه في أثناء حفلٍ في شقَّة صديق مشترك. ونشب جدالٌ بين الاثنين حول المقال؛ هَبَّ سارتر للدِّفاع عن ميرلوبونتي، الذي بدا أنَّه فوجِئ بهجوم كامو الغاضب. وانتهت المواجهة فقط عندما غادَرَ كامو الشَّقة بغضب أبيض. وهَرَعَ سارتر خلفه، دون نجاح، حاول إقناع كامو بالعودة إلى المجموعة. على الرغم من أنَّ صداقة كامو مع سارتر نَجَت من الخلاف، إلا أنَّ خطوط المعركة بين ذوي الأقدام السُّود وأصدقائه الباريسيِّين قد رُسِمَت ملامحها.

وفي الواقع، حُفِرَ الخندق بشكل أعمق من قبل إيمانويل دي أستير دي لا فيجيري. وهو أرستقراطي بدأت مسيرته الفكريَّة في

عشرينيَّات القرن العشرين من أقصى اليمين وانتقل بشكل تدريجي إلى اليسار، وخاصَّةً بعد مشاركته في الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة والمقاومة الفرنسيَّة، عندما دخل فلك الحزب الشِّيوعي الفرنسي، ويُعَدُّ دي أستير واحداً من أبرز الشَّخصيَّات في الفيلم الوثائقي المشهور The Sorrow and the Pity لمارسيل أوفولز عن فرنسا الفيشيَّة. مع شعرٍ أبيض يؤطِّر جبهة عالية، وأنبوبة متخفِّية في يده التي تلوح برشاقة، وَصَفَ دي أستير مُقاتلي المقاوَمة بأنَّهم غير أسوياء طبيعيِّين: الرِّجال والنِّساء الذين لم يتمكَّنوا من العثور على مكان لهم في مجتمع السِّلم، ولم يكتشفوا أنفسهم إلا خلال الحرب والاحتلال فقط.

ومع ذلك، وبوصفه مُحَرِّراً لصحيفة التَّحرير في فترة ما بعد الحرب Libération، المَدعومة من قِبَل الحزب الشِّيوعي الفرنسي، بدا دي أستير عازماً على التكيُّف مع نظرة الحزب الخاصَّة إلى العالم. وعند نشر «**لا ضحايا ولا جلَّادون**»، وجَّه دي أستير لكامو لكمةً على الأذن تحت ستار المراجعة. ومن خلال إدانة جميع أشكال العنف الفوري، أنكَرَ كامو أي مبرِّر لوجود المقاومة الثَّوريَّة. وفي استعارة لا بدَّ أن تكون قد أثَّرت بشدَّة على كامو، قال دي أستير إنَّ زميله المُناضل في المقاوَمة قد يدعم حركة تهدف إلى استئصال مَرَض السُّلِّ من دون تزويده بالوسائل اللازمة للقيام بذلك. وبدلاً من ذلك، أصبح كامو بالنِّسبة لدي أستير أكثر قليلاً من مجرَّد مدافع عن اللِّيبراليَّة والوضع الرَّاهن للمجتمعات الغربيَّة. في بعض الأحيان، العنف وحده -كما أعلن

في عنوان مراجعته- يمكن أن ينزع الضحيَّة من قبضة الجلَّاد.[١٠]

وكما أوضح كامو في رَدِّه، فإنَّ مُذَكِّرة دي أستير بشأن العنف السِّياسي أثارت السُّؤال المَطروح. كان كامو يدرك أنَّ العنف أمرٌ لا مَفَرَّ منه: «**لقد علَّمني ذلك سنوات تحت نير الاحتلال**». ولكن ما كان يرفضه دوماً هو الخطأ في تفسير استحالة شرعيَّته. «**العنف لا يمكن تجنُّبهُ ولا تبريره في آنٍ معاً**». ونتيجة لهذا فإنَّ واجبنا يتلخَّص في عزل العنف، وجعل استخدامه استثنائيًّا ومَدروساً، والتَّذكير بأكبر قَدرٍ مُمكِنٍ من الوضوح والحيويَّة بما قد يفعله بكلٍّ من هؤلاء الذين يستخدمونه، وأولئك الذين يُستَخدَم ضدَّهم. قال كامو لدي أستير:

> «لديَّ رعبٌ من العنف السَّهل والمُبَرَّر، لدَّي رعبٌ من أولئك الذين تتجاوز كلماتهم أفعالهم. ولهذا السَّبب أقفُ بعيداً عن تلك العقول العظيمة وعن [أولئك] الذين سأحتقر مناشداتهم للقتل حتَّى يستخدموا هم أنفسهم بندقيَّة الجلَّاد».[١١]

*****

ربَّما كان ميرلوبونتي، الذي استمتع باقتباس عبارة من أنطوان دي سانت إكسوبري -الإنسان هو شبكة من العلاقات، وهذا وحده ما يهمُّه كثيراً- ربَّما كان يفسِّر مواجهته من حيث العلاقات غير المستقرَّة لكامو مع عالم المثقَّفين الفرنسيِّين.[١٢] ومع ذلك، بالنِّسبة لهذه الطبقة العاملة، التي تختلف خبراتها وتوقُّعاتها بشكلٍ كبيرٍ عن دائرة أصدقائه الباريسيِّين، كان هناك شيء آخر، شيء

أعمق يهمُّ البشر، وهو البحث عن معنى للعالم ولحياتنا. أو بعبارةٍ أدَقَّ، هناك الحاجة المُلِحَّة، والمُراوغة، إلى شيءٍ ما أو شخصٍ ما يقف خارج حياتنا وعالمنا، وبالتالي يبرِّرها ويبرِّر وجودنا نحن.

إنَّ العَبَث، أو صَمت العالم في مواجهة مطالبنا، يَكمُنُ في نهاية هذا المَسعى. ولكن على الرغم من أنَّ هذه الغاية مُقَرَّرَة سَلَفاً، فإنَّ استجابتنا ليست كذلك. إنَّ دافعنا العميق، بمجرَّد أن نُدرِكَ أنَّ الصمت لن ينتهي أبداً، هو رَفضٌ لهذه الحالة. أن تصرخ بـ «لا» للعالم كما هو، وأن تصرخ بـ «نعم» للعالم كما ينبغي أن يكون. ويُعلِنُ كامو أنَّ التَّمرُّد:

> «ينشأ عن مشهد انعدام المنطق، أمام وضعٍ جائرٍ مُستَغلَقٍ، ولكنَّ توثُّبَه الأعمى يطالب بالنِّظام وسط الفوضى، وبالوحدة في صميم الزَّائل المتلاشي. إنَّه يصرخ بإلحاح، يريد أن تتوقَّف المهزلة، وأن يستقرَّ أخيراً ما كان يُسَطَّر حتَّى الآن، وبلا انقطاع على صفحة البحر». [١٣]

كانت المشكلة أنَّ العديد من الرِّجال والنِّساء، العاجزين عن التعايش مع هذا الغضب الدَّائم الذي يعتمل داخل عقولهم الذَّكيَّة، قد اتَّخذوا السَّراب والأوهام على أنَّها حقيقة واقعة. وحيث لا يمكن اكتشاف المعنى، فقد فُرِضَ ببساطة على فوضى التَّاريخ. وعلى الرغم أنَّ **المعنى** لا يتطابق مع **الفعل**، كما حَذَّرَت حَنَّة آرنت، كما أنَّه لا يتبلور في العقل البشري إلا بعد إنجاز الأفعال، فإنَّ الإيديولوجيَّات الحديثة قد شوَّشت كِلا المفهومين. [١٤] وكان ذلك هو الحال بشكلٍ

خاصٍّ مع الشِّيوعيَّة، التي أكّدت أنَّ نهاية التَّاريخ ستصل مع انتصار الطَّبقة العاملة، وولادة المجتمع غير الطبقي. إنَّ صنع هذا التَّاريخ يستلزم حتماً كَسرَ عددٍ لا يُحصى من الرِّجال والنِّساء. ولكن كما يتساءل كامو بتجهُّم، وما أهمِّيَّة ذلك:

«في القدس الجديدة هذه، التي تردِّد صدى الآلات المعجزة، من سيتذكَّر صرخة الضَّحيَّة؟». [١٥]

ومن بين الأمثلة الرائعة والمتناقضة استعداد ميرلوبونتي ذاته للالتزام بجرائم الشِّيوعيَّة من أجل إنقاذ المعنى. وعلى غرار إيمانويل كانط، الذي خاف من أنَّ التَّاريخ، من دون الاعتقاد بأنَّ التَّقدُّم موجود، كان «**مساراً بِلا معنى للشؤون الإنسانيَّة**»، أو لوحة حزينة من «العشوائيَّة الكئيبة»، فقد شعر ميرلوبونتي بالخزي إزاء الاحتمال نفسه. ولمنع التَّاريخ من الانزلاق إلى مَهزَلَة، راهَنَ ميرلوبونتي على أنَّ العقل، المُقَنَّن بالماركسيَّة، والذي يَضمَن معنىً للتَّاريخ -أو الذي يرقى، بالمقدار نفسه، إلى تحقيق غاياته. يرى كامو أنَّ الشِّيوعيِّين وزملاءهم الأُميِّين كانوا حريصين على دَفن عزلتهم أو وحدتهم:

«في حضن الجماهير المُسَلَّحة، مُغَطِّين فَراغ رفضهم بمذهب مَدرسي عنيد، ولكنَّه موجَّهٌ نحو المستقبل، الذي جعلوا منه إلههم الوحيد، لكنَّه مفصولٌ عنهم من قبَل العديد من الأمم التي ينبغي الإطاحة بها والقارات التي يجب السَّيطرة عليها». [١٦]

*****

وبصفته مُحَرِّراً في صحيفة كومبا، أصَرَّ كامو على ضرورة الانتقال من عمل المقاومة ضدَّ الألمان إلى عمل الثورة ضدَّ نظامٍ اجتماعيٍ واقتصاديٍ غير عادل. وكما ذكَّر قرَّاءه في الأسابيع التي أعقبت تحرير فرنسا، فإنَّ الثَّورة ليست تمرُّداً:

«ما حافظ على المقاومة لمدَّة أربع سنوات كان التَّمرُّد. أو بعبارةٍ أخرى، كان الرَّفض التَّام والعنيد، شبه الأعمى في مستهل الأمر، لقبول الأمر الذي كان يُجبِرُ البشر على الركوع. يبدأ التَّمرُّد بالقلب. ولكن يأتي وقت ينتقل فيه إلى العقل، عندما يتحوَّل الشُّعور إلى فكرة، ويبلغ الحماس العفوي ذروته في العمل المتضافر. إنَّها لحظة الثَّورة». [١٧]

وقبل بضعة أشهر فقط، في ١٥ آذار/ مارس ١٩٤٤، بدأ «برنامج CNL» بالانتشار في فرنسا المحتَّلة من قبل النَّازيِّين. كانت الوثيقة من عمل المجلس الوطني للتَّحرير، وهو تجمُّعٌ من ممثِّلي حركات المقاومة في البلاد والأحزاب السِّياسيَّة، الذي كانت مهمَّته الفوريَّة تنسيق تحرير فرنسا مع الحلفاء والجنرال ديغول الفرنسيِّ الحُرِّ. وكان الميثاق، كما أطلق عليه «البَرنامج» في وقتٍ لاحق، بمثابة جهد بطولي لرَبط التَّحرير الوشيك لفرنسا بسلسلة من الأحداث التي بدأت لأوَّل مرَّة مع الاستيلاء على سجن الباستيل. كما أعلنت صحيفة سرِّيَّة أخرى، Les Cahiers politiques، أنَّ المقاومة في فترة ما بعد الحرب «**ستستعيد الخيط الذي انقطعَ عام ١٧٨٩**». ولم يكن يعني ذلك أقل من:

«ديمقراطيَّة حقيقيَّة، مُتَحَرِّرَة من حكم المال، قُوَّة مُستَمَدَّة من الشَّعب ولكنَّها مستقرَّة، وقُدرة الأمَّة على التَّصرُّف العادل في ثرواتنا المشتركة، وحياة كريمة للعمَّال الأحرار، وتقاسم المسؤوليات الاقتصاديَّة من قبل الجميع، وليس من قبل قلَّة فقط». [١٨]

وقد رَدَّدَ الميثاق صدى هذه المثاليَّة وقَنَّنَها. وأكَّدَ مؤلِّفوه في ديباجته على أنَّ الكفاح ضدَّ النَّازيِّين سيستمرُّ ضدَّ القوى الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة القمعيَّة التي كانت راسخة في فرنسا قبل الحرب. وعندئذ فقط يمكن للأمَّة أن تستعيد «**توازنها الأدبي والاجتماعي وأن تكشف للعالم مرَّة أخرى عن عظمتها ووحدتها**». ولتحقيق هذه الغاية، اقترح الميثاق مجموعة من القوانين الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة. وهناك مطالب عدَّة ، مثل «**احترام الإنسان**»، و«**المُساواة المُطلَقَة بين جميع المواطنين أمام القانون**»، تشير مباشرةً إلى الواقع الدَّموي للاحتلال. كما دعا الميثاق إلى «**إقامة ديمقراطيَّة اقتصاديَّة واجتماعيَّة حقيقيَّة**»، و«**عودة الاحتكارات الكبرى إلى الأمَّة**»، و«**التَّنظيم العَقلاني للاقتصاد الذي يضمن امتثال المصالح الخاصَّة للمَصلحة العامة**»، و«**مشاركة الموظَّفين في إدارة شركاتهم**». وعلاوةً على ذلك، طالب الميثاق بإنشاء ضمان اجتماعي كامل، بما في ذلك التَّأمين الصِّحِّي والمعاشات التَّقاعديَّة، إلى جانب تحديد أجور عادلة. [١٩]

وقد تماشى الميثاق مع العديد من المطالب الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة التي أطلقها كامو في افتتاحيَّاته بصحيفة كومبا. ويصرُّ

ميشيل أونفرا في سيرة كامو الذَّاتيَّة على أنَّ فهم كامو بشكلٍ كاملٍ من دون الاعتراف أولاً بتبنِّيه لتقاليد فرنسا المتمثِّلة في النِّقابيَّة الرَّاديكاليَّة، وخاصَّةً في أعمال منظِّر القرن التَّاسع عشر جان بيير برودون، الذي زَعَمَ أنَّ تعاونيَّات العمَّال وحدها قادرة على توفير الأساس لمجتمعٍ عادلٍ ومُنصِفٍ. لا شَكَّ أنَّ كامو لَمَّحَ إلى مستقبلٍ أفضل في عالمٍ مُنظَّمٍ ومنطقيٍّ على هذا النَّحو. فقد أعلَنَ:

«أنا لستُ اشتراكيًّا حقًّا [بل أنا] أتعاطف مع الأشكال الرَّاديكاليَّة للنقابيَّة».[٢٠]

وقد نَدَّدَ كامو مِراراً وتَكراراً بدور المال: حيث حذَّرَ من أنَّ المقاومة «**لن تتمكَّن من إنجاز سوى جزءٍ ضئيلٍ للغاية من مهمَّتنا إذا عثرت الجمهوريَّة الفرنسيَّة غداً على ذاتها، على غرار الجمهوريَّة الثَّالثة، تحت السيطرة الصَّارمة للمال**». ودعا كامو بدلاً من ذلك إلى «**ديمقراطيَّة شعبيَّة حقيقيَّة**»، مُصِرًّا على أنَّ:

«أيَّ نظام سياسي يَعزل نفسه عن الطَّبقة العاملة لا طائِلَ منه، وأنَّ فرنسا الغد ستكون ما ستصبح عليه الطَّبقة العاملة».[٢١]

ولكن كما يعترف أونفرا ذاته، فإنَّ إشارات كامو إلى برودون نادرة، مثلها كمثل إشاراته إلى النِّقابيَّة الثَّوريَّة في القرن التَّاسع عشر.[٢٢] كان كامو ثوريًّا، نوعاً غريباً من الثَّوريِّين، أقلَّ برودونيًّا أو ماركسيًّا منه أخلاقيًّا. وعندما تساءَل أحد زملاء دي أستير عن مدى إلمامه بكتابات ماركس، ولا سيما تحليله للحريَّة، كان رَدُّ كامو عميقاً وفخوراً، وكان من المُحتَّم أن يُغضِبَ مُنتقديه أكثر:

«هذا صحيح. لقد كان البؤس هو ما علَّمني عن الحرِّيَّة. لكنَّ أغلبكم ليس لديه فكرة عن ما تعنيه هذه الكلمة».[٢٣]

بعد أن عاش حياته بين المستفيدين ظاهريًّا من الشِّيوعيَّة، لم يَكُن لدى كامو أيُّ صَبرٍ على النَّظريَّة وممارسيها. وكما هي الحال مع بوتشو وصديقه الألماني، كذلك الحال مع المُنظِّرين الإيديولوجيِّين للحرب الباردة من اليمين واليسار: «**إنَّهم يفتقرون إلى الخيال عندما يتعلَّق الأمر بموت أشخاصٍ آخرين**».

كان كامو منزعجاً إزاء المَهَمَّة التي استرشدت بها السِّياسة الخارجيَّة الأميركيَّة. فمن ناحية، كان كامو يحترم روزفلت بشدَّة، حيث كان يرى فيه زميلاً مقاوِماً résistant يخوض حَرباً ضدَّ المَرَض الشخصيِّ، والإيديولوجيَّات القاتلة: «كانت ضحكاته تتمثَّل في الصَّفاء الذي ناله بشِقِّ الأنفُس، ذلك النُّوع الذي نجده بعد التَّغلُّب على العجز والضعف»، ولم تَكُن «**سعادته الظاهرة سعادة راحة، ولا سعادة عقل محدود لا يمكنه تصوُّر محِنَة الجنس البشري**».[٢٤]

ولكنَّ كامو كان أيضاً يشعر بالقلق إزاء الإجهاد الذي ينهِكُ النَّزاهة الأمريكيَّة، وكان يكره أن يرى فرنسا على غرار أمريكا كما هي الحال مع روسيا.[٢٥] وعندما زار نيويورك لفترة وجيزة في عام ١٩٤٦، صدمته العفويَّةُ والكَرَمُ الأمريكيَّان. وفي نهاية محاضرته في جامعة كولومبيا، التي حملت العنوان المناسب «**الأزمة الإنسانيَّة**»، أعلن أنَّ الأموال المُخَصَّصَة لبيع التَّذاكر للأطفال الفرنسيين قد

سُرِقَت. وَرَدًّا على ذلك، لم يجمَع الجمهور الكمِّيَّة المَطلوبة من المال فقط، بل زادها. وفي الوقت نفسه، خَدَّرت «صحراء الحديد والإسمنت هذه» كامو، كما خَدَّرَه التَّفاوت الصَّارخ في الثَّروة.[٢٦]

فكتب كامو في مذكِّراته:

«ليلة على نهر باوري. الفقر - ويريد الأوروبي أن يقول: «وأخيراً، الواقع». هناك المتشرِّد المُهمَل والمَنسيُّ تماماً... وعلى بعد خطواتٍ عدَّة فقط، أروع محلَّات فساتين الزِّفاف يمكن للمرء أن يتخيَّلها».[٢٧]

وممَّا يزيد الطين بلَّةً أنَّ كامو كان مُنزَعِجاً إزاء البَراءة المُتَعَمَّدَة والمَحضَة للأمريكيِّين. في لقاء مع مجموعة من الطُّلاب في كليَّة فاسار -ما يفعله الشَّباب هنا يستحقُّ التَّذكُّر- فقد لاحظ كامو أنَّهم عانوا من نوعٍ من الحنين في غير محلِّه:

«في هذا البلد الذي يُبذَل فيه كلُّ شيء لإثبات أنَّ الحياة ليست مأساويَّة، يشعرون أنَّ شيئاً ما ينقصهم».[٢٨]

ولا شَكَّ أنَّ إصابة كامو بالسُّلِّ مرَّةً أخرى خلال زيارته القصيرة أثَّرت في ملاحظاته الكئيبة، لكنَّ أمراً أعمَق كان له تأثيرٌ أيضاً. كان يحدِّق من نافذة القطار وهو يسافر إلى مونتريال، وقد انبَهَرَ، وانزعج من:

«هذا البلد الكبير، الهادئ والبطيء. يشعر المرء أنَّه لم يكن على عِلمٍ تماماً بالحرب. وفي غضون بضع سنوات،

تقدَّمت أوروبا، التي كانت متقدِّمة قرونًا عدَّة في المعرفة، قرونًا عدَّة في الوَعي الأخلاقي».[٢٩]

ولا شَكَّ أنَّ ملاحظاته في دفاتر المذكِّرات تميل إلى التَّصوير في كثيرٍ من الأحيان بقدر ما تتَّسم بالإيجاز. والواقع أنَّ التَّقرير الذي قدمه كامو عن «المعرفة» المتفوِّقة في أوروبا كان مُحَيِّراً بقدر ما كان ساخراً، في حين أنَّ الوعي الأخلاقي الأعمق في أوروبا ظاهريًّا، بفضل الحرب والمَحرَقة، لم يفعل شيئاً يُذكَر لمنع حروبها اللاحقة المتمثِّلة في إنهاء الاستعمار في الخارج والإبادة الجماعيَّة في الدَّاخل. إلا أنَّ ملاحظات كامو التوبيخيَّة وتصريحاته عن أمَّةٍ لا يعرفها إلا قليلٌ ليس منطقيًّا أكثر من رفض تاسيتوس بسبب تصريحاته، الشَّاملة والمُعمَّمة بالقدر نفسه، التي تحدَّث بها عن القبائل الجرمانيَّة التي لم يرها قط. لم يَكُن أيٌّ من الكاتبين مؤرِّخاً؛ بدلاً من ذلك، كانا أخلاقيَّيْنِ اتَّخذا من الأمازيغ الماثِلين أمامهم كأمثلة ثمينة لفهم حضاراتهم -أو انتقادها- بشكلٍ أفضل.

لعلَّ هذه البراءة نفسها هي التي جَعَلت الأمريكيِّين مُحَصَّنين إلى حَدٍّ كبيرٍ ضدَّ إغراءات الشِّيوعيَّة. (ولكنَّهم كانوا مُنشغلين: لقد تأخَّر كامو ساعات عدَّة في جمارك نيويورك بسبب آرائِهِ السِّياسيَّة على الأرجح، في حين قرأ جاي. إدغار هوفر بعناية كبيرة المقالات عن كامو وزملائه «الوجوديِّين» التي كانت ترسلها حنَّة آرنت إلى مجلَّة Nation من أوروبا).[٣٠]

ومن اللَّافت للنَّظر أنَّه في المجلَّة نفسها التي احتفظ بها في نيويورك، استمرَّ كامو في التَّفكير في العِلَل الأيديولوجيَّة التي

تَكتَنف أوروبا، وخاصَّةً الشِّيوعيَّة. فقد كتب: «**إنَّ فكرة المسيحيَّة هي أساس كلِّ تعصُّب**».[٣١] وقبل فترة طويلة من شيوعيته، كَشَفَ كامو عن العنصر الألفي لما سمَّاه «**مملكة النِّهايات**».[٣٢] لقد استغلَّ أسباب جاذبيتَّه، كما استغلَّ خَطَره. فقد زَعَمَ أنَّ الشّيوعيَّة كانت تستند إلى القناعة بأنَّ التَّاريخ يتدفَّق نحو يوم دينونةٍ علماني، يوم بَلَغَ ذروته بالخلاص الأرضيِّ للطَّبقة العاملة، «**فما يَهُمُّ حقًّا تضحية الأفراد ما دامت تساهم في خلاص البشريَّة جَمعاء.....سيتوقَّف التَّقدُّم عن ممارسة التَّعذيب بعد نهاية العالم الصِّناعي عندما يأتي يوم المُصالحة**». أمَّا بالنِّسبة للبروليتاريا، «**فمن خلال معاناتها وصِراعاتها، فإنَّ المسيح في صورة بشريَّة سيفدي خطيئة الاغتراب الجماعيَّة**».[٣٣]

والآن أصبح عدد الشِّيوعيين الذين ينتظرون نهاية الأيَّام أقلَّ من عدد المسيحيِّين الذين ينتظرون نهاية أيَّامهم. ولكن لم تكن هذه هي الحال حتى الآن في أوروبا ما بعد الحرب تحت عبوديَّة الشِّيوعيَّة السُّوفييتيَّة. قَرَّر كامو أن يصبح، على حدِّ تعبير توني جوت، «**المُتَحَدِّث باسم الواضح**».[٣٤] ولكنَّ المشكلة بطبيعة الحال تَكمُن في أنَّ قلَّةً من النَّاس على اليسار في ذلك الوقت كانوا يعتقدون أنَّه واضح. ولعلَّ قوَّة الهجوم الذي شَنَّه كامو على إيديولوجيا مارَسَت تأثيراً ونفوذاً هائلين على السِّياسة الفرنسيَّة، فضلاً عن سياسات الضِّفَّة اليسرى، كانت راجعة إلى انشغاله شخصيًّا بالشِّيوعيَّة كطالبٍ في الجزائر العاصمة. وربما دفعه عَدَمُ رضاه عن هذا الفصل من ماضيه الى كتابة الفُصول التَّالية التي لم

تُكتب بعد بأكبر قَدرٍ من الأمانة والصِّدق.

ولكن ببساطة أكثر، وكما يقترح جوت، كان كامو مَدفوعاً «**باهتمامه المستمرِّ بالعدالة**».[٣٥] فلم يَكُن الأمر أنَّه سعى إلى عالمٍ لا يَقتل فيه النَّاس بعضهم بعضا -لا يمكن لأيِّ شخصٍ عاقلٍ أن يسعى إلى ذلك كهدف- ولكن بدلاً من ذلك «**عالم لا يتم فيه تبرير القتل**». وكان هدفه «**المُتواضع**»، نتيجةً لذلك، هو «**إنقاذ الأجساد**» -وفي الواقع، أجساد كافية «**للحفاظ على إمكانيَّة مفتوحة للمستقبل**».[٣٦] وإذا ما كان لهذا الهدف أن يتحقَّق، اعتقد كامو أنَّه كان عليه أن يوضِّح، لنفسه وللعالم، الفرق بين التَّمرُّد والثَّورة.

*****

«لطالما كان لدى نيمسيس صديقة معها اسمها إيدوس. في يوم من الأيَّام سيُتَرجَم اسماهما إلى انتقام وعار، ولكن في ذلك الوقت الذي نتحدَّث عنه، عندما خرجتا للتَّوِّ من السَّحابة السَّوداء، كانت طبيعتهما أكثر تعقيداً وتنوُّعاً بكثير. ما القواسم المشتركة بينهما؟ إنَّ مفهوم الإهانة أو العار/ أيدوس Aidos منع البشر من إهانَة الآخرين. أمَّا مفهوم الانتقام Nemesis فيمثِّل العواقب الحتميَّة للإهانة. لقد اتَّحدا في رؤية للحياة كشيءٍ يُجرح ثُم يتلوَّى».[٣٧]

يُذكِّرنا روبيرتو كالاسو، في مجموعته عن الاختلافات في الأساطير اليونانيَّة، بأنَّ الفنَّانين اليونانيِّين، من الملاحم مروراً بالمآسي، فكَّروا باستمرار في مفهوم الحَدِّ، وأعادوا صياغته دون

مراجعة شخصيَّته الأساسيَّة. وهكذا، يروي هوميروس كيف أنَّ الخاطبين في إيثاكا، بعد أن ازدروا أيدوس بانتهاك قواعد الضِّيافة/ زينيا xenia، ذُبِحوا على يد نيمسيس في شكل أوديسيوس. بعد قرون، أعطى پروميثيوس إسخيليوس الإنسان هِبَة النار، متجاوزاً الحدود التي فرضها زيوس، والذي سرعان ما جُندِلَ إلى صخرة للأبد.

لم يخرج نيمسيس مع دخول العقل إلى اليونان في القرن الخامس؛ إنَّما تغيَّر مظهره ببساطة. لقد تحوَّل من ألوهة إلى مبدأ. وهذا هو الحال على وجه الخصوص مع المؤرِّخين، الذين حكموا في نظرهم تدفُّق الأحداث. وفي رواية هيرود عن الحروب الفارسيَّة، ينصح أحد مستشاري أحشويرش بعدم غَزو اليونان: «أترى كيف أنَّ الكائنات الحيَّة التي تفوق غيرها حجماً التي يضربها الإله بالبرق دون أن يسمح لها بإظهار عظمتها، في حين أنَّ الكائنات الصَّغيرة لا تَخِزُ خاصرة الإله للفعل؟». [٣٨] وبالطبع، يُصغي أحشويرش لنصيحة مستشاره، وزحف غرباً لجَرح اليونانيِّين، فَجُرِحَ هو بدوره.

يشير كامو في **الإنسان المتمرِّد**، لفترةٍ وجيزة إلى «جَرح» أحشويرش المذهل لليونانيِّين -أي غزوه لشبه الجزيرة، وحرق أثينا- تلاه جرحٌ قاتلٌ تلقاه في المقابل: تدمير أسطوله، والتَّراجع إلى بلاد فارس. والمناسبة التي يرويها كامو هي ضرب أحشويرش لمضيق البوسفور عندما أَخَّرَت عاصفة هوجاء غزوه لليونان:

«إنَّ القَدَر الإغريقي نفسه هو قوَّة عمياء يُخضَعُ لها مثلما يُخضَع للقوى الطَّبيعيَّة. ومُنتهى الجنون بنظر الإغريقي أن يُجلَدَ البحر بمِقرَعَة، إنَّه جنونٌ يليق بالبرابرة». [٣٩]

ولكن بدلاً من مواصلة قصة الإنسان المتمرِّد، والانتقال من الحروب الفارسيَّة إلى الحرب البيلوبونيزيَّة، قام كامو بدلاً من ذلك بصَقلها في روايته **الطاعون**، وهي جزء من الدَّورة البروميثيَّة نفسها التي سَطَّرها في مقاله.

قرأ كامو ثوسيديدس، خليفة هيرودوت، بعناية واهتمامٍ خاصَّين عندما كان يعيش في شامبون سور لينيون في أواخر عام ١٩٤٢. وكان قد ذهب إلى هذه القرية الجبليَّة لإراحة رئتيه المُنهَكَتين، ولكنَّه وجد الوقت والمسافة الكافية للتأمُّل في حدود هذا العَبَث، ولو كقاعدة للعمل في عالمٍ تحاصره قوى استبداديَّة طاغية. بدأ في رسم العمل الذي من شأنه أن يصبح روايته عن مدينة مُحاصَرَة بالطاعون وكيف يستجيب سكَّانها له، ثمَّ نُشِرَت في عام ١٩٤٧. هناك شخصيَّة في واحدة من المُسَوَّدات الأولى، مُدَرِّسٌ كلاسيكي يُدعى ستيفان، يُدرِكُ **«أنَّه لم يَفهَم ثوسيديدس حتى أصيبَ هو نفسه بالطَّاعون»**. [٤٠] وينطبق الأمر نفسه على كامو.

تحوم الرِّواية حول تأليف ثوسيديدس عن الطَّاعون الذي اجتاح أثينا بعد وقتٍ قصيرٍ من بداية الحرب مع أسبارطة. وبالإضافة إلى عشرات المعارك البرِّيَّة والبحريَّة والحصار والنَّهب

التي امتدت عبر رُبعِ قَرنٍ من الحَرب، كان الطَّاعون، كما أعلَنَ ثوسيديدس في بداية عمله، هو الذي تَسَبَّبَ في أكبر قدرٍ من المعاناة.[٤١] وقد تأثَّر كامو كثيراً بهذا التَّقييم اللافت للنَّظر. ولم يكتفِ بتبنِّي مَراحل الحَدَث التي وَصَفَها المؤرِّخ الأثيني، بل اقتبس أيضاً أسلوب ثوسيديدس الصَّارم والموضوعي ظاهريًّا.

أكثرُ ما يُلفِت النظر في رواية ثوسيديدس عن الطَّاعون هما السُّرعة والقوَّة اللتان طَوَى بهما القانون والتَّقاليد الأثينيَّة. فقد انهارت مؤسَّسات أعظم ديمقراطيَّة في التَّاريخ على الفور تقريباً تحت وَطأة هذا الحدث غير المُتَوَقَّع وغير المَسبوق، بالنَّظر إلى التَّعبير البالغ الذي عَبَّرَ عنه بريكليس في خطبته الجنائزيَّة. في غضون أيَّام، تحوَّلت آليَّة المرحلة المعقَّدة في الحياة المدنيَّة والسِّياسيَّة في أثينا إلى فوضى عارمة. أُلقِيَت الجثث بلا مبالاة في مقابر جماعيَّة، وتجاهلت الأسَر مناشَدات الأقارب المرضى، وكانت المعابد المليئة بالجُثَث يجري اجتياحها من قِبَل الرِّجال والنِّساء الذين طلبوا المساعدة الإلهيَّة، والمواطنون الذين استنتجوا أنَّ الآلهة قد تَخَلَّت عنهم انخرطوا الآن في أكثر أشكال السُّلوك ترويعاً وإجراماً. باختصار، سادت حالة الأنوميا، أو انعدام القانون، في أثينا -وهي توصيف لحالة قديمة للفراغ الأخلاقي والفكري، يشبه الى حَدٍ كبيرٍ عبثيَّة كوننا.

لكنَّ الأنوميا انتشرت مثل النَّار في الهَشيم تحت أسوار أثينا المُبتَلاة وما وراءها. فبعد أن تَحَرَّرَ الأثينيُّون من القوانين والقيم التَّقليديَّة التي بَدَت الآن وهميَّة، اعتنقوا ما يسمِّيه العديد من

المنظِّرين بالواقعيَّة السِّياسيَّة، ولكنَّهم في الواقع يعتنقون شكلاً من أشكال العدميَّة. وكما يقول فيكتور ديفيس هانسون، دفع الطَّاعون المدينة إلى ما وراء العَتَبَة الأخلاقيَّة:

«بمجرَّد أن انحَدَر الأثينيُّون إلى مثل هذا الدَّرَك، كان من المستحيل تقريباً استعادة بوصلَتهم الأخلاقيَّة في السَّنوات اللاحقة».[٤٢]

ولقد كانت الوَفَيات البائسة والاستجابات المروِّعة التي سبَّبها الطَّاعون مجرَّد «**النُّذُر غير القانونيَّة**»، على حَدِّ تعبير هانسون، للسِّياسات المُتَعَمَّدَة والمَدروسة التي نفَّذها «**الصَّديق الألماني**» الذي وَجَّهَ إليه كامو رسائله في زمن الحرب.

لا يوجد حَدَث يصوِّر هذا الانحطاط الأخلاقي بشكلٍ أفضل من الحَدَث الذي بدا -من منظورٍ استراتيجي- أفضل أكثر بقليل من مجرَّد عَرضٍ جانبيٍّ. في عام ٤١٦ قبل الميلاد، هبطت قوَّة بحريَّة أثينيَّة كبيرة على نحوٍ غير عاديٍ على جزيرة ميلوس، وهي جزيرة صغيرة حافظت على حيادها طوال فترة الصِّراع الذي دام خمسة عشر عاماً بين أثينا وأسبارطة. وأعلَنَ القادة الأثينيُّون أنَّ ذلك لم يَعُد خَياراً مُتاحاً. فبدءاً من اليوم، أنتم إمَّا معنا أو ضدَّنا. اختَر الخَيار الأوَّل، وسوف تتقاسم معنا فوائد وأعباء الحليف؛ اختَر الخَيار الثاني، وسوف ندمِّرك. احتجَّ الميليُّون المذعورون على الظُّلم الذي سبَّبه هذا الإنذار النهائي والجائِر -ولكن دون جدوى. وسرعان ما أوقفهم الأثينيُّون بردِّهم:

«إنَّ معيار العدالة يعتمد على المساواة في القوَّة للإكراه، وإنَّ الأقوياء يوظِّفون ما لديهم من القوَّة ليَفعلوه، ويقبل الضُّعفاء ما عليهم أن يقبلوه». [٤٣]

وكما سخر الأثينيُّون من الآمال التي يُعَلِّقها الميليُّون على شفاعة الآلهة أو الإسبارطيِّين، معتبرين إيَّاها «تَرَفاً باهظاً». وعندما استنفدوا جميع حججهم، رفض الميليُّون الاستسلام. يستنتج الأثينيُّون، الذين يعيشون في وطنهم في عالَمٍ خالٍ من المبادئ الاخلاقيَّة:

«أنتم فريدون جدًّا في مقدرتكم على اعتبار المستقبل شيئاً أكيداً أكثر ممَّا هو أمام أعينكم، وعلى اعتبار الشُّكوك حقائق واقعيَّة، لمجرَّد أنَّكم تريدون أن تكون كذلك». [٤٤]

ويعود الأثينيُّون إلى سفنهم ثلاثيَّة الصَّواري، ويبدؤون حصارهم، ويَستَولون في نهاية المطاف على المدينة، ويقتلون جميع الرِّجال، ويَستَعبدون النِّساء والأطفال.

وعلاوة على ذلك، عَكَسَت الأحداث التي وقعت في ميلوس القناعة العَدَميَّة والكَفاءة الوَحشيَّة للقوَّات الألمانيَّة التي اجتاحت ما تبقَّى من «**المنطقة الحرَّة**» في فرنسا بينما كان كامو يدرس ثوسيديدس في لو بانيلييه. هل من الممكن، عندما يقول المبعوثون الأثينيُّون للميليِّين إنَّ «**كَراهيتكم لنا هي دليلٌ على قوَّتنا**» ويُنَفِّذون الإنذار بشكلٍ منهجيٍّ بمجرَّد أن يسيطروا على ميلوس على الأرجح عن طريق صَفِّ السُّجناء الميليِّين وقطع حناجرهم

تُذَكِّر كامو بسياسة الإرهاب النّازيَّة في فرنسا المحتلَّة؟ لا يمكننا أن نعرف قطعاً. ولكن يبدو كأنَّ كامو يجيب في الرِّسالة الأولى الموجَّهَة إلى «**صديقه**» على الأثينيِّين والألمان على حَدٍّ سواء:

«لا أستطيع أن أصدِّقَ أنَّ كلَّ شيءٍ يجب أن يَخضَعَ لغاية واحدة. هناك وسائل لا يمكن تَبريرها والتَّغاضي عنها».[٤٥]

*****

كان من بين ممتلكات كامو صفحة مُهتَرِئة وصفراء، مُمَزَّقة على ما يبدو من كتابٍ روسيٍّ، تحمل صورة بالأبيض والأسود لإيفان كاليائيف. ربَّما صورة مُلتَقَطَة مِن قِبل الشُّرطةِ القيصريَّة. كان كاليائيف أحد أعضاء الحزب الثَّوري الاشتراكي، وهو حركة راديكاليَّة كانت مُلتزمة بالإطاحة بالنِّظام القيصري، فألقى قنبلة على عربة كان يسافر فيها الدُّوق الأكبر سيرغي في عام ١٩٠٥. دفع الانفجار أشلاءً من جسد الضَّحيَّة في جميع الاتجاهات؛ شُنِقَ مُرتكب الجريمة الذي لم يُحاول الفرار بعد بضعة أشهر. إنَّ وَجهَ كاليائيف الدَّائري وغير الاستثنائي، المُزَيَّن بلحية وقبَّعة من الصُّوف، يواجه الكاميرا بنظرة صافية وهادئة، يبدو بطلاً غير مُحتَمَل -حقيقة ربَّما اعترفت بها مسرحيَّة «القتلة العادِلون» Les Justes لكامو في باريس سنة ١٩٤٩، حيث لعب سيرج ريجياني، الممثِّل الايطالي الفرنسي الوسيم، دور القاتل.[٤٦]

وعند مغادرة مسرح هيبرتو، حيث افتتحت المسرحيَّة، سمع أحدُ النُّقَّاد صدفةً تنهُّدات أحد زملائه في المسرح: «خمسة

فصول حول ما إذا كان ينبغي للمرء قتل الأطفال الصِّغار أم لا».[٤٧] كانت الاستجابة للمسرحيَّة، كما هو الحال مع أعمال كامو المسرحيَّة الأخرى، مختلطة بالتأكيد. تأثَّر البعض بشدَّة بتصوير المسرحيَّة لكاليائيف وزملائه الثُّوَّار وهم يناقشون أخلاقيَّات قتل رجلٍ اليوم بحيث يعرف جميع الرِّجال والنِّساء غداً أفضل، في حين شعر آخرون بالإحباط بسبب افتقار الشَّخصيَّات إلى العمق النَّفسي وحوارهم التَّعليمي. وهنا، كما هو الحال مع مسرحيَّاته الأخرى، رثي كامو، في بعض الأحيان بشكل يشهد، أنَّه قد أسيء فهمه.[٤٨]

ولكنَّ إحباطه، إن لَم يكن مُبَرَّراً بشكلٍ كامل، إلا أنَّه مفهوم. وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ هناك من يقول عن **هاملت**: خمسة فصول بشأن ما إذا كان ينبغي للمرء أن يقتل نفسه أم لا. بالطبع، لم يكن كامو شكسبير، لكنَّه لم يتظاهر بذلك قط. ولم يكن هدفه خلق صورة نفسيَّة، بل كان يهدف بدلاً من ذلك إلى إعادة خلق حَدَثٍ تاريخي، وكما فعل أحباؤه التراجيديُّون اليونانيُّون القدماء، عارَضَ منظورين أخلاقيِّين لهما القوَّة الإجباريَّة نفسها.[٤٩] وفي المسرحيَّة، يضع كامو كاليائيف أمام أحد المتآمرين، ستيبان فيدوروف، في صراع شَرسٍ حول السُّؤال نفسه الذي سيطرحه كامو، بعد عامين، في بداية **الإنسان المتمرِّد**: هل يمكننا تبرير القتل؟

إنَّ موقف كاليائيف هو «نعم، ولكن». أطلق عليه رفاقه لقب «الشَّاعر» لاستجوابه وأسلوبه اللَّيِّن، وقال لدورا، وهي رفيقة مُمَزَّقة بين واجبها كثوريَّة وحبِّها لكاليائيف: «**الثَّورة، بالطَّبع**.

ولكنَّ الثَّورة من أجل الحياة لإعطاء الحياة فرصة، إذا فهمتم ما أعنيه». عندما رَدَّت دورا بالحقيقة البسيطة بأنَّهم لا يقدِّمون حياةً، بل يسلبونها، يحاول كاليائيف أن يشرح لها:

«عندما نَقتُل، فإنَّنا نَقتُل لكي نَبني عالماً لن يكون فيه مزيدٌ من القتل بعد الآن. ونحن نوافق على أن نكون مجرمين حتى يَرِثَ الأرضَ الأبرياءُ في النِّهاية، وهم وحدهم».[٥٠]

ولكن مجرَّد الموافقة على التَّحوُّل إلى مجرِم لا تكفي، ولا يكفي التَّمييز الدَّقيق في فعل الإرهاب. ولتبرير فعل قتل الدُّوق الأكبر، يَخلُص كاليائيف إلى أنَّه يجب أيضاً أن يضحي بحياته. مقتنعاً بأنَّ الدَّولة القيصريَّة أجبرته على أن يُصبح قاتلاً، قال كاليائيف لدورا: **«ثم أذكِّرُ نفسي أنَّني سأموت، أيضاً، وكلُّ شيء سيكون على ما يرام»**. إنَّ منطق المُقايَضَة القاتلة لكاليائيف واضح: فبموافقته على الموت، يعتقد **«الشَّاعر»** أنَّه يُضفي الشَّرعيَّة على قتله للدُّوق الأكبر. ربَّما لأنَّه شاعر، يبدو كأنَّه يَجهَل تماماً الخَلَل المُريع في حجَّته: فالحياة التي ضحَّى بها طواعية لا تساوي حياةً أزهِقَت من ضحيَّة غير راغبة في ذلك.

ولكنَّ دورا أصرَّت على شكوكها، غير قادرة على نسيان أنَّ الحياة التي يتآمَرون لإنهائها هي على وجه التَّحديد، **حياة**. إنَّها ليست تجريدا، بل لحمٌ ودمٌ؛ إنَّها ليست الوسيلة، بل الغاية الوحيدة. تقول: **«الإنسان إنسان»**، محذِّرةً من أنَّ كاليائيف قد يَكتَشِف وهو يهرعُ باتجاه العربة أنَّه ربما **«لدى الدُّوق الأكبر عينان رقيقتان، ربما ستراه يبتسم لنفسه ويحكُّ**

أذنه. ربَّما - مَن يدري؟ سترى ندبة صغيرة على خدِّه حيث جرح نفسه وهو يحلق ذقنه، وإذا نَظَرَ إليك، في تلك اللحظة.....» يتلمَّس كاليائيف الإجابة، ويصرُّ على أنَّه لا يقتل رجلاً، بل الاستبداد، ومع ذلك يدرك بسرعة عدم كفاية هذا الرَّدِّ. كل ما يمكن أن يأمله، كما يقول لدورا، أنَّ كراهيته لكلِّ ما يمثِّله الدُّوق الأكبر سوف يعميه عن الرَّجل عندما يحين الوقت لإلقاء القنبلة.

ونكتشف أنَّ كراهيَّته عنيفة بما فيه الكفاية لتعميه عن الدُّوق الأكبر، ومع ذلك انتقائيَّة. وبينما يركض نحو العربة، يلتفتُ ليُلقي القنبلة من النَّافذة، يلمح كاليائيف طفلين، ابن شقيق الدُّوق وابنة أخيه، يجلسان قبالة بعضهما. وعندما أخبر رفاقه الذين يشعرون بالقلق عند عودتهم إلى منزلهم الآمن، كان الطفلان:

«يحدِّقان في الفراغ، ويحافظان على استقامتهما. وكم بديا حزينين! يرتديان أفضل ملابسهما وأيديهما مربوطة على أفخاذهما، وكل شيء سار بسرعة. هذان الوجهان الصغيران اللطيفان، وفي يدي ذلك الوزن البَشع. كان يجب أن أرميها عليهم. ببساطة! مباشرة عليهم. لا، أنا لَم أستطِع السَّماح لنفسي بذلك.....»[٥١]

ولكن كما نتعلَّم من ستيبان، الذي يُنصِتُ بغضبٍ متزايد إلى قصَّة كاليائيف، فإنَّ الطِّفلين كان من الواجب قتلهما أيضاً. وبدلاً من إنقاذ روحي هذين الطفلين، يصرخ قائلاً: **«إنَّ الجهود التي يبذلها كاليائيف للتَّمييز بين الأهداف البريئة والمُذنبة تَضمَنُ الحكم**

على آلاف الأطفال الرُّوس بالموت جوعاً لسنوات قادمة.... الموت بقنبلة موتٌ مريحٌ بالمقارَنة مع ذلك». وبينما يُنصِتُ كاليائيف في صَمتٍ، يصرُّ ستيبان على أنَّنا لن ننتصر في الثَّورة إلَّا عندما «**نتوقَّف عن التَّفكير العاطفي في الأطفال، ونصبح أسياد العالم**». يحتجُّ كاليائيف بأنَّ مثل هذا المنطق لا يقلُّ استبداداً عن النِّظام الذي يَسعون إلى تدميره، ولكن رَدَّ دورا المُزدَري على ستيبان هو الذي يخترق قلب المواجهة: «**عندما يأتي ذلك اليوم، ستكون الثَّورة مَكروهة ومَمقوتة من قِبَل الجنس البشري بالكامل....**» وتتابع قائلةً إنَّ سبب هذه الكراهية الشَّاملة واضحٌ: «**حتَّى في طريقة الهلاك، هنالك طريقٌ صائبٌ وطريقٌ خاطئ -وهناك حدود**».[٥٢]

وعندما يصل خبر مرور عربة الدُّوق الأكبر مرَّةً أخرى في غضون أيام قليلة، يحصل كاليائيف على فرصةٍ ثانية. وهذه المرَّة ينجح: يفجِّر عربة الدُّوق الأكبر، الذي يسافر وحده، ثم يستسلم للشُّرطة. كل هذا يرتبط بشكلٍ وثيقٍ إلى السِّجلِّ التَّاريخي، وكذلك زيارة الدوقة الكبرى الأرملة لكاليائيف المسجون. جعلها كامو تخبر كاليائيف بأنَّها وصلت إلى مكان اغتيال زوجها بعد لحظاتٍ من انفجار القنبلة: «**لقد وضعت في النعش كلَّ ما استطعت جمعه. يا لكمِّيَّات الدَّم!**»، مع رَدِّ فعلٍ من حزنٍ شديد أو حتَّى من سادية أكبر، أخبرت كاليائيف أنَّ زوجها كان «**نائماً قبل ساعتين فقط. فهو يجلس على كرسي وقدماه مرفوعتان على كرسيٍّ آخر، كما كان يفعل في أغلب الأحيان**». أمَّا بالنِّسبة للطِّفلة التي عفا عنها كاليائيف في وقتٍ سابق، فتكشف الدُّوقة أنَّها طفلة شقيَّة وقاسية:

«عندما يُطلب منها إعطاءُ شيءٍ للفقراء، تَرفض. إنَّها لن تقترب منهم».

وفجأةً، تنهار تجريدات الاستبداد والبَراءة في التَّفاصيل الصعبة والمُتَّسخة للحياة اليوميَّة. اهتزَّ في البداية من كلام الدُّوقة الكبرى -الاختيار السَّيِّئ للكلمات، في الواقع، لأنَّنا نعرف دائماً أنَّ الطُّغاة والأطفال هم جميعهم بشرٌ أيضاً- يؤكِّد كاليائيف من جديد إيمانه بالقضيَّة التي قَتَلَ وسوف يَقتُلُ من أجلها. يناشد الدُّوقة الكبرى أن لا تَطلُبَ العَفو عنه عندما تهدِّده؛ في نهاية المسرحيَّة، عَلِمَ رفاقه أنَّه مَشَى بهدوءٍ وثباتٍ إلى السَّقَّالة. وكانت إحدى آخر إيماءاته هي «**التَّخلُّص من بقعة الطِّين التي استقرَّت على حذائه**» افعلُ رَجلٍ رَفَضَ أن يكون بطلاً، على ما يبدو، وأصَرَّ بدلاً من ذلك على البقاء إنساناً.

ولكن هل يتخلَّص كاليائيف أيضاً من ذنبه؟ هل نجح كاليائيف، بمبادلة حياته بحياة الدُّوق الأكبر من أجل خَلقِ عالَمٍ أفضل، مُبَرِّراً جريمة القتل العَمَد التي ارتكبها؟ وعكس إجابة الثَّوريِّين، يجيب كامو «**لا، ولكن**». لقد رَفَضَ الادِّعاء بأنَّ الرَّغبة في فقدان حياة شخصٍ عند قتل شخصٍ آخر متكافئة أخلاقيًّا. وقد كتب كامو أنَّ منطق كاليائيف «**خاطئٌ، ولكنَّه مُحتَرَم**».[٥٣]

ونستطيع القول إنَّ الاستعداد للموت على هذا النَّحو يشكِّل ضَرورة، ولكنَّه ليس مُبَرِّراً كافيًا لاغتيال طاغية. يقترح كامو أنَّه إذا كان للقتل السِّياسي أن يكون شرعيًّا، يجب أولاً تحقيق معايير معيَّنة

أخرى. ولا يجب أن يقبل القاتل المسؤوليَّة، وأن تكون الضَّحيَّة مُستَبِدَّة فحسب، بل يجب أن يقتصر الفعل الذي يُتَّخذ في حالة عدم وجود بدائل على الطَّرَف «المُذنِب» حصراً.[٥٤] ولا يجب إزهاق أرواح الأبرياء، ويجب على القاتل أن يتخلَّى عن حياته، كما يذكِّرنا كامو في مسرحيَّة «**القَتَلَة العادلون**» عام ١٩٥٠. ويصرُّ كامو على أنَّ:

«التَّمرُّد لا يمكن أن يؤدِّي، من دون أن يتوقف عن التَّمرُّد، إلى المواساة ووسائل الرَّاحة التي تتَّسم بها العقيدة».[٥٤]

كان جون فولي محقًّا حين أشار إلى أنَّ كاليائيف لا يبرز باستعداده للموت بقَدر ما يبرز بحاجته إلى تذليل الشُّكوك. وما يجعل كاليائيف ورفاقه استثنائيِّين إلى هذا الحَدِّ ليس إيمانهم بأهدافهم -أي فلَّاحون تمَّ إنقاذهم من البؤس والعبوديَّة، أو أمَّة انجرفت نحو مستقبلٍ أفضل- بل شكوكهم المستمرَّة حول شرعيَّة وسائلهم. إنَّ الجذور اللاتينيَّة لكلمة «نزيه جدًّا في أفعاله» تصف موقف كاليائيف على أفضل وجه، كما تصف منظور كامو الأخلاقي ذاته. بالنِّسبة إلى الرُّومان، كانت النَّزاهة، أو فعل ما هو صالح **scrupulus** حجراً صغيراً وحادًّا عالقا في نَعل المرء، ممَّا يجعل المشي عَمَلاً مُسَلَّمًا به دون أن نفكِّر فيه أبداً -ازعاجاً مستمرًّا.

ومع كلِّ خطوة، يذكِّرنا عدم انزعاجنا بأنَّنا اتَّخذنا للتَّوِّ خطوة. ومن المؤكَّد أنَّ كامو يقول إنَّ الثَّوري المُلتزم بالقتل كوسيلة لتحقيق غاية عظيمة وسعيدة لا بدَّ أن يُعَرقَل، فكريًّا وأخلاقيًّا، قبل وقوع الفعل وبعده. فالقتل بسهولة ودون تفكير -الافتقار إلى

الخيال الأخلاقي، مثل بوتشو، لفهم ما يحدث عندما تأمر بقتل الآخرين- هو بالضَّبط ما كان يخشاه كامو أكثر من غيره. وأعلَنَ أنَّ كلَّ ما أتمنَّى القيام به هو «**تفنيد جريمة القتل المشروع، ووضع حَدٍّ واضحٍ لمشاريعه المجنونة**».[٥٥]

*****

يعتقد كامو أنَّ الفكر اليوناني كان قائماً على فكرة الحدود:

«لم يصل أيُّ شيء إلى حَدِّ التَّطرُّف، لا الدِّين ولا العقل، لأنَّ الفكر اليوناني لم يُنكِر أيَّ شيء، لا العقل ولا الدِّين. أعطى كل شيء نصيبه، موازنة الضَّوء مع الظِّلِّ. ولكنَّ أوروبا التي نعرفها، والمتلهِّفة إلى غزو الكلِّ، هي ابنة التَّجاوزات والإفراط... في جنوننا، ندفع الحدود الأبديَّة، وفي الوقت نفسه ينقضُّ علينا الظَّلام الدَّامس ليدمِّرنا. نيمسيس، إلهة الاعتدال، وليس الانتقام، تراقبنا. إنَّها تعاقب بلا رحمة كلَّ أولئك الذين يتجاوزون الحدود».[٥٦]

يربط سوفروسين، وهو النَّموذج اليوناني لضَبط النَّفس، بين التَّمرُّد والثَّورة. فكما يشير مصطلح ضبط النَّفس إلى التوتُّر المستمر بين قوَّتين متعارضتين -توتُّرٌ في اتِّجاهين في مركزهما مساحة للخلق والتَّقدُّم- فإنَّ فعل التَّمرُّد ينمو ويزدهر عند ضغطٍ مماثل. في حين أنَّ الشُّعراء اليونانيِّين المَلحَميِّين والمأساويِّين صوَّروا هذا التَّوتُّر من خلال شخصيَّتين متميِّزتين -بينيلوبي وهيلين في هوميروس، بروميثيوس وزيوس في إسخيلوس، أو أجاكس وأوديسيوس في

سوفوكليس- يدمجه ثوسيديدس في شخصيَّة واحدة، بريكليس. وطبقاً للمؤرِّخ فإنَّ الجنرال الأثيني كان يتمتَّع بمزيجٍ من الجرأة والحِكمَة أكثر من أيِّ زعيمٍ آخر. وما قاله عن أثينا في خطبته الجنائزيَّة كان في الواقع صورة شخصيَّة:

«نحن قادرون في الوقت نفسه على خوض المجازفات وتقديرها مُسبقاً. وهناك آخرون شجعان بدافع الجهل؛ وعندما يتوقَّفون عن التَّفكير يبدؤون بالخوف. ولكنَّ الرجل الذي يمكن اعتباره شجاعاً حقًّا هو الذي يعرف جيِّداً معنى ما هو حُلوٌ في الحياة وما هو فظيعٌ، ثمَّ يخرج دون رادِعٍ لتلبية ما سيأتي». [٥٧]

وفي حين لا يشير كامو أبداً إلى الخطاب، إلا أنَّه يعكس وربما يوضِّح فكرته عن التَّوتُّر الإبداعي. كان العالم، في نظر كامو، مسرحاً لنوعين من العبثيَّة: النَّوع الميتافيزيقي القائم على رفض العالم لإعطاء المعنى المطلوب للجنس البشري؛ والعبثيَّة السِّياسيَّة، النَّاتجة عن إصرار الدولة على إعطاء معنى للمعاناة غير المُبَرَّرَة التي تفرضها على مواطنيها. ويؤكِّد كامو أنَّ المتمرِّد يرفض كِلا النَّوعين من العبثيَّة. إنَّها لا تقول «لا» فقط لحاكمٍ ظالم، ولكن أيضاً أن تقول «لا» لعالَمٍ صامتٍ. منذ خطوته الأولى، يرفض المتمرُّد السَّماح لأيِّ شخصٍ بالمَساس بما هو عليه. إنَّه يقاتل من أجل سلامة جزءٍ واحدٍ من كيانه. إنَّه لا يحاول، في المقام الأوَّل، أن يغزو وينتصر، بل ببساطة أن يفرض. أن يفرض نفسه على عالمٍ خالٍ من المعنى: «فالمتمرُّد لا يطلب الحياة، بل أسبابا للعيش». [٥٨] ولكن أيضاً

فرض نفسه على أولئك الذين يسعون إلى إنكار إنسانيَّته:

«إنَّه يواجه نظاماً من الأشياء التي تَقمعه بالإصرار على نوعٍ من الحَقِّ في أن لا يُقهَر أو يُضطَهَد بما يتجاوز الحَدَّ الذي يمكن أن يتحمَّله». [٥٩]

بيد أنَّ الأمر الأكثر أهمِّيَّة هو أنَّ المتمرِّد يسعى إلى فرض حَدٍّ لنفسه. التَّمرُّد عملٌ دفاعيٌّ، وليس هجوماً؛ إنَّه اتزان؛ تكافؤ، وليس تهمة مجنونة ضد الخصم. في نهاية المطاف، مثل مفهوم فايل عن الاهتمام، فهو يقظة نشطة فيما يتعلَّق بإنسانيَّة الآخرين وكذلك الذَّات. ومثلما لا يسمح العَبَث باليأس، ناهيك عن العدميَّة، فإنَّ تصرُّفات الطَّاغية لا تسمح للشَّخص بالتَّحوُّل إلى مستبدٍّ في المقابل. المتمرِّد لا ينكر سيِّده كإنسان؛ إنَّه يُنكره بصفته سيِّده. يُنكر المتمرِّد أولئك الذين عاملوه على أنَّه أقلُّ من مُكافئ لهم، ولكنَّه ينكر أيضاً الإغراء الحتمي لتجريد مضطهده السَّابق من الإنسانيَّة:

«إنَّ العَبد يَهُبُّ في الحقيقة لنَصرة الجميع، في الوقت نفسه، وذلك حينما يعتقد بأنَّ هذا الأمر الصَّادر إليه يُنكر شيئاً لا يخصُّه وحده فحسب، بل هو محلُّ مشتركٌ يجد فيه النَّاس جميعاً، حتَّى ذاك الذي يَشتم هذا العَبد ويضطهده، رابطة جاهزة». [٦٠]

والواقع أنَّ فيسبوك وتويتر، اللذين كانا يشكِّلان عاملاً حيويًّا مهمًّا لنجاح الرَّبيع العربي في عام ٢٠١١، لم يكونا في واقع الأمر أكثر من وسيلة تكنولوجيَّة للوصول إلى أقدم الغايات البشريَّة. وكما أدرك كامو، فإنَّ التَّمرُّد ينتقل دوماً من الاستجابة الفرديَّة إلى

الاستجابة الجماعيَّة. وكما صاغ لحظة الوعي الجماعي هذه، يلعب التَّمرُّد الدَّور نفسه في نضالنا اليومي «**كما يفعل الكوجيتو في عالم الفكر..... أنا أتمرَّد، إذن نحن موجودون**».[٦١]

إنَّ تصريح كامو لا يتمتَّع بالأناقة المنطقيَّة لصياغة ديكارت، ولكنَّ صداه يتردَّد مع الحقيقة العميقة التي طالما عرفناها: عبر الزَّمان والمكان، ففي التَّمرُّد:

«يُجاوز الفرد ذاته في الآخرين، ومن وجهة النَّظر هذه، يُعتَبَر التَّضامن البشري تضامناً ماورائيًّا... [إنّه] البدهيَّة الأولى التي تنتشل الفرد من عزلته. إنَّها محل مشترك يرمي القيمة الأولى على البشر جميعاً».[٦٢]

ويستند هذا العمل الجماعي إلى صفاتنا الجديرة بالإعجاب، ولكنَّه يكشف أيضاً عن حالتنا المأساويَّة. وفي هذا الصَّدد، يشبه التَّمرُّد الحقيقي الأثينيِّين البيركليين: لا يمكن أن تدوم لحظة التوازن الدَّقيق بين الجرأة والحذر؛ وعاجلا أم آجلا، سوف تنهار إمَّا إلى طغيان أو رَداءة. لا شَكَّ أنَّ ثوسيديدس كان سيتعرَّف إلى أفكاره في كتاب كامو pensee de midi، أو أفكار الظهيرة، التي يقترح فيها « فلسفة الحدود «. واستناداً إلى الدَّليل على أنَّنا لا نستطيع أن نعرف كلَّ شيء، تخلص الفلسفة إلى أنَّه لا يمكننا أن نفعل ما نشاء أو ما نرضيه للآخرين. فالتَّمرُّد، على عكس الثَّورة، «**يطمح إلى القريب ولا يمكنه إلا أن يَعِدَ بكرامة مضمونة مقترنة بعدالة نسبيَّة. وهي تفترض الحَدَّ الذي يتأسَّس عنده مجتمع الإنسان**»، وبالتالي،

تأتي الثَّورة بسهولة، بينما التَّمرُّد «**ليس سوى توتُّر خالص**». [٦٣]

والواقع أنَّ هذا التوتُّر لا يمكن أن يستمرَّ إلى ما لا نهاية؛ عاجلاً أم آجلاً، سوف تنهار المُثُل العليا، وسيزداد خداع القادة، ويصاب الأتباع بخيبة أمل. ومع ذلك، يؤكِّد كامو أنَّ هذا التَّوتُّر هو أفضل ما يمكن أن يحصل للبشريَّة. ويرى مؤلِّف كتاب «**الإنسان المتمرِّد**» أنَّ أولئك الذين يرغبون في البقاء في حزب الإنسانيَّة، لا خيار لهم سوى أن يعيشوا حياتهم في ظلِّ هذا التَّوتُّر. وفي حين أنَّه من الممكن دائماً أن تبرِّرَ الغاية الوسيلة، فإنَّ المتمرِّد لا يفشل أبداً في الرَّدِّ بأنَّ الوسيلة وحدها تبرِّرُ الغاية. وفي نهاية مقالته، خلص كامو إلى أنَّ منطق المتمرِّدين هو «**خدمة العدالة حتى لا تزيد من ظلم الحالة الإنسانيَّة، والإصرار على لغة واضحة حتى لا يزيد من الكذب العالمي، والرِّهان على السَّعادة، على الرَّغم من كل البؤس البشري**». وعندما ظهر الكتاب لأوَّل مرَّة، رُفِضَت هذه العبارة باعتبارها خرافة سَهلة تخفي فراغاً أخلاقيًّا داخلها. وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحنا الآن أمام حقيقة مفادها أنَّه لا يوجد شيء سهل على الإطلاق حسب ادِّعاء كامو، ناهيك عن كونه أجوفَ. بدلاً من ذلك، فإنَّه يعترف بالشكوك واليأس التي تملأ أيَّ جهدٍ للتَّمرُّد الحقيقي. إنَّه يتطلَّب منَّا أن نتعايش مع النتائج المؤقَّتة والمزاعم النِّسبيَّة، مع البقاء أحياءً حتى النهاية القصوى: أن لا نسمح أبداً لتَمرُّدنا بالتَّحوُّل إلى ثورة.

*****

«**خلال الأيّام الأولى للثّورة يجب أن تقتلوا، إنَّ إسقاطَ أوروبيٍّ يعني قَتلَ عصفورين بحجرٍ واحد، والقضاء على الظَّالم والمُضطهَد في الوقت نفسه: يبقى هناك رجلٌ ميِّت ورجلٌ حرٌّ؛ يشعر الناجي، للمرَّة الأولى، بتربة وطنيَّة تحت قدمه**». في مقدِّمة كتاب فرانز فانون **مُعَذَّبو الأرض**، أوضح جان بول سارتر أنَّ العنفَ غيرَ المَضبوط، وليس حدوده، واليقينَ المطلقَ، وليس الشَّكَّ، هما السِّمتان السَّائدتان اليوم. نُشِر الكتاب في عام ١٩٦١، بعد مرور عام على وفاة كامو -صديقه السابق الذي أصبح خصمه- في حادث سيَّارة، استُقبِلَت نصيحة سارتر باحتفاء «المَشاريع المجنونة» نفسها التي كانت تلقي بظلِّها الثقيل على الكاتب الأسود.

كان كامو سيُصاب بالصَّدمة، ولكنَّه لم يندهش إزاء دفاع سارتر عن أولئك الذين قتلوا المدنيين كوسيلة للتحرُّر الوطني وتحقيق الذات. في كتاب **القتلة العادلون**، كان ستيبان فيدوروف قد مَنَحَ بالفعل صوتاً مسموعاً لهذا النَّوع من الثَّورة: «**لا حدود!**». قبل وقتٍ قصيرٍ من إطلاق جبهة التحرير الوطني (FLN) تمرُّدها في يوم جميع القدِّيسين في عام ١٩٥٤، كتب كامو في دفتر ملاحظاته:

> «في اللحظة نفسها بعد بذل الكثير من الجهود، وَضعتُ الحدود، وإيماناً منِّي بأنَّني قادرٌ على التوفيق بين ما لا يمكن التوفيق بينه، انفَجَرت الحدود وسقطتُ سريعاً في تعاسة صامتة». [٦٤]

ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ كامو كان يصف حالته العقليَّة، التي أنهكتها الشُّكوك الفكريَّة والفنيَّة التي أثارتها ردَّة فعل اليسار الفرنسي الانتقاديَّة إزاء التَّمرُّد. وهناك أيضاً حياته المنزليَّة المريعة على نحوٍ متزايد، والتي كان له دورٌ كبيرٌ فيها: فقد عانت زوجته فرانسين من نوبات متكرِّرة من الاكتئاب الانتحاري، والتي تفاقمت بلا شَك بعلاقة كامو مع ماريا كاساريس، الممثِّلة التي لعبت دور البطولة في فيلم **القتلة العادلون**.

ومع ذلك، سواء عن قصد أو عن غير قصد، كان كامو أيضاً يعمل على تنظيف قماشٍ أكبر كانت خلفيَّته الجزائر مسقط رأسه، والتي تحوَّلت إلى ساحة لثورة لم يعترف أيٌّ من الجانبين بالحاجة إلى وَضع حدود. وبحلول نهاية عام ١٩٥٦، عندما أصبحت الجزائر ساحة معركة بين الجيش الفرنسي وجبهة التَّحرير الوطني الجزائريَّة، داس كلا الطرفين على قواعد الحرب وتخلَّوا عنها. ولأسباب استراتيجيَّة وتكتيكيَّة، أصبح الإرهاب هو النِّظام السَّائد في جبهة التَّحرير الوطني -وهي سياسة تستهدف حتماً السُّكان المدنيِّين. كما أشار أحد قادتها، رمضان عبان:

«جثَّة واحدة في سترة تساوي دائماً أكثر من عشرين جثَّة في الزِّيِّ الرَّسمي». [٦٥]

تمَّ تبنِّي هذه السِّياسة في ٣٠ أيلول/ سبتمبر، عندما انفجرت قنابل زرعها عناصر من جبهة التَّحرير الوطني في حانتين شعبيَّتين في الجزائر العاصمة، ممَّا أسفَرَ عن مقتل وتشويه العشرات من

المدنيِّين الفرنسيِّين، بما في ذلك العديد من الأطفال. وفي المقابل، أصبح التَّعذيب ممارسة شائعة مع الجيش الفرنسي الذي كانت مهمَّته وضع حَدٍّ للتفجيرات وإخماد الثَّورة.[٦٦] وبَرَّرَ دُعاة الإرهاب والتَّعذيب ممارساتهم بأنَّها شَرٌّ لا بدَّ منه، ولكنَّها وسيلة ضروريَّة لتحقيق غايات خيِّرة؛ لكنَّ غاياتهم «الحَسَنَة» المُتعارِضَة كانت أوَّل مشكلة من بين العديد من المشاكل.

أعلَنَ كامو أنَّ **الإنسان المتمرِّد** كان علامة على جهوده «**لمواجهة واقع الحاضر**». وبعد نشر الكتاب، وصفه بأنَّه يتَّخذ «موقفاً من الأحداث الجارية». في الوقت الحاضر، كان «كامو» يعني الحرب الباردة؛ من خلال الأحداث الجارية، فَهِمَ صعود الشُّموليَّة. ونتيجة لذلك، كان سياق المقال عبارة عن عالَمٍ مُمَزَّقٍ بين الدِّيمقراطيَّات الليبراليَّة في الغرب والأنظمة الشِّيوعيَّة في الشَّرق. إلا أنَّ تحليله للثَّورة لم يقتصر على الاتِّحاد السوفييتي فحسب، بل شمل جبهة التَّحرير الوطني أيضاً. كان كامو قد نَدَّدَ بلا كَلَلٍ بالسِّياسات الاستعماريَّة التي حَوَّلَت العرب والأمازيغ إلى غرباء في أرضهم: حَذَّر في عام ١٩٤٥ قائلاً:

«هؤلاء النَّاس ليسوا أدنى شأناً إلا فيما يتعلَّق بالظُّروف التي يتعيَّن عليهم أن يعيشوا في ظلِّها، وعلينا أن نتعلَّم منهم بقدر ما يتعلَّمون هم منَّا. والواقع أنَّ العديد من الفرنسيِّين في الجزائر وأماكن أخرى من العالم يتصوَّرون العرب باعتبارهم جماهير بلا شَكلٍ ولا اهتمامات».[٦٧]

ثم خاطَبَ رفاقه من ذوي الأقدام السُّود مُحَذِّراً ومعتبراً:

«عَرَب الجزائر ككتلة، وكأمَّة من القَتَلَة. والغالبيَّة العظمى منهم، الذين تعرَّضوا لكلِّ مرضٍ محتمل، عرفوا نوعاً من الضِّيق يمكنهم وحدهم التَّعبير عنه».[٦٨]

ولكن لا أحد كان يصغي. فقبل أن يلتفَّ في صمته إزاء أهوال الحرب الأهليَّة المُتَصاعدة، استمرَّ كامو في طرق الجرائم التي ترتكبها فرنسا في إطار جهودها المشؤومة للإبقاء على وضعها الرَّاهن الذي دام قرناً من الزمان في الجزائر. في مقدِّمة مقالاته الجزائريَّة، التي نُشِرَت في أعقاب معركة الجزائر، قال كامو بصراحة: «**الانتقام ضدَّ السُّكَّان المدنيِّين وممارسة التَّعذيب هي جرائم نحن متورِّطون فيها جميعاً**». إنَّ مسؤوليَّة الفرنسيِّين من الرِّجال والنِّساء عن مثل هذه الأفعال «**هي إهانة يتعيَّن علينا أن نواجهها من الآن فصاعداً**». وفي غضون ذلك، أعلَنَ، «**يجب أن نرفض أيَّ، وكلَّ المُبَرِّرات، حتى تلك المتعلِّقة بالفعاليَّة، لهذه الأساليب**». وفي اللحظة التي نتظاهر فيها بإمكانيَّة تبريرها، «**لن توجد قواعد أو قيم، وستكون جميع القضايا متساوية، وستُكرِّس حربٌ لا يحكمها القانون انتصار العدميَّة**».[٦٩]

وما أثار فزع واستياء الأصدقاء والأتباع السَّابقين في اليسار الفرنسي، أنَّ كامو لم يكن أكثر رفقاً بجبهة التَّحرير الوطني. في حين أنَّه ربَّما كان ساذجاً في قناعته بأنَّ الحَلَّ السِّياسي الذي لا يرقى إلى الاستقلال الكامل لا يزال قائماً في خمسينيَّات القرن العشرين،

فقد تنبَّأ كامو بمستقبل الجزائر تحت قيادة جبهة التَّحرير الوطني. وأكَّد أنَّ الرَّغبة العربيَّة في الحرِّيَّة والمساواة كانت عادلة، ولكن الوسائل والأساليب التي اعتمدتها جبهة التَّحرير الوطني كانت جائرة وغير عادلة بشكلٍ قاتل. وكان عداء كامو الرَّاسخ تجاه جبهة التَّحرير الوطني مَدفوعاً باستعداد الحَركة لاستخدام جميع الوسائل لتحقيق غاياتها. لم يكن هدفها باستقلال الجزائر هو ما أدَّى، بالنِّسبة لكامو، إلى استبعاد جبهة التَّحرير الوطني كممثِّلٍ للشَّعب الجزائري. وبدلاً من ذلك، كما يشير ديفيد كارول، فإنَّ:

«طبيعة المنظَّمة ذاتها والحملة الإرهابيَّة التي شنَّتها ضدَّ مختلف فئات السُّكَّان المدنيِّين في الجزائر منذ عام ١٩٥٤ قد أفقَدَتها شرعيَّتها». [٧٠]

لا يمكن لأهداف جبهة التَّحرير الوطني، بصرف النَّظر عن مدى رغبتها في ذلك -وكان كامو محقًّا في خوفه من أمَّة محكوم عليها بدولة استبداديَّة شموليَّة يحكمها حزبٌ واحدٌ، أن تبرِّر أبداً نظام الرُّعب الذي أقاموه ضدَّ المدنيِّين من ذوي الأقدام السُّود والعرب. ماذا كان كاليائيف ليفعل؟ كانت الإجابة في رأي كامو بسيطة وواضحة: هو ورفاقه الثوريُّون «كانوا سيفضِّلون الموت -لقد قدَّموا لنا الدَّليل- على الانحطاط بأنفسهم» إلى مستوى قتل الأبرياء. [٧١] وقد يكون ازدهاراً رومانسيًّا، أو من المحتمل أن يكون مبدأً غير عمليٍّ؛ لكنَّه الأساس الوحيد لأخلاقيَّات تستحقُّ اسمها، وسيتَّفق معنا محمد البوعزيزي بشأن ذلك.

خَاتمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

خلال معظم فترة الخمسينيَّات من القرن الماضي، كافح كامو تحت وطأة سمعته العامَّة. كتب في مذكِّراته: «**أنا رجلٌ عادي، [و] القيم التي يجب أن أدافع عنها وأوضِّحها اليوم قيم عادية. إنَّها تتطلَّب موهبة أشكُّ في أنَّني أمتلكها**». وكما ظهرت ردَّة فعل التَّواضع الفكري هذه في مقابلةٍ قُدِّرَ أن تكون الأخيرة لكامو، أُجرِيَت قبل شهرٍ من وفاته. عندما أشار المُحاوِر إلى أنَّ كامو كان مُرشِداً لجيله، كان رَدُّه واضحاً وفوريًّا: «**أنا لا أتكلَّم باسم أحد: لديَّ صعوبة كافية في العثور على كلماتي الخاصَّة. أنا لا أُرشِدُ أحداً: أنا لا أعرف، أو أعرف إلى حَدٍّ ما، إلى أين أنا ذاهب**».[1]

لا شَكَّ أنَّ كامو صَقَلَ شخصيَّته العامَّة حتى عندما سَخِر من أوراق اعتماده أو أنكرها كشخصيَّة عامَّة. في مذكِّراته الخاصة، هناك أكثر من بضع لمحات من التَّواضع الزَّائف والمواقف العبثيَّة. ربما كان قد تأثَّر بالشهرة ولقاء المشاهير، لكنَّ كامو لم يَكُن مفكِّراً

عامًّا عَرضيًّا. وبصفته صحفيًّا ومُحَرِّراً، وروائيًّا وكاتباً، ومسرحيًّا ومخرجًا، سعى كامو باستمرار إلى جذب انتباه الجمهور. وبينما كان يشكُّ أحياناً في أنَّه يستحقُّ كلَّ هذا الاهتمام، ولا سيما خلال العقد الأخير من حياته، إلا أنَّه كان يُجرَح عادةً عندما يشاركه الآخرون هذه الشُّكوك. وقد كانت اللكمة التي تلقَّاها من سارتر في أثناء خلافهما على كتاب الإنسان المتمرِّد -مزيج الغرور الكئيب والضَّعف عادةً ما يثبِّط النَّاس عن إخبارك بالحقائق الصَّريحة- مؤلمة بشكلٍ عميقٍ لأنَّها تحتوي على بعض الحقيقة.[٢]

ولكنَّ ذلك لا يقلِّلُ من مكانة كامو كرجلٍ أخلاقي. بل على العكس، كان لهذا العيب فضائله بجعله أقرب إلينا. فكثيراً ما كان كامو يشعر بعدم الارتياح إزاء نفسه كغيره من النَّاس معه. في كثيرٍ من الأحيان، كان كامو يتذمَّر مِراراً عندما ينظر إلى صورته العامَّة، «فالفضيلة ليست بغيضة. لكنَّ الخُطب عن الفضيلة. بدون شَكٍّ، لا يوجد فم في العالم، ناهيك عن فمي، يمكن أن يَنطِقَ بها. وعلى نحوٍ مماثل، كلَّما تدخَّل أحدٌ ما للحديث عن صراحتي، ارتجف شخصٌ ما بداخلي».[٣] وليس هناك سبب للشَّكِّ في صحَّة هذه التعبيرات المتكرِّرة والمؤلمة عن الشَّكِّ بالذَّات.

لو كان كامو حيًّا اليوم، لكان لا يزال يرتجف. وكثيرون جدًّا من الكتَّاب، بمن فيهم أنا نفسي، يذكِّرون الآخرين بأسباب إعجابهم بكامو. ولو كان فلوبير حيًّا اليوم لكان من الممكن أن يضيف إلى قاموسه للأفكار المتلقَّاة: «كامو: رجلٌ طيِّب في أوقات مظلمة». ولو كان على قيد الحياة اليوم، فربَّما كان ليرى كيف أخطأ

منذ ذلك الوقت في فهم هذه القضيَّة أو ذلك الحَدَث. ولكنَّنا نحن الذين ما زلنا أحياءً اليوم: فالتوقُّف للحظة يذكِّرنا بمدى صعوبة أن نكون على صواب في ذلك الوقت، ومدى صعوبة أن نكون على صواب اليوم مع كامو أو بالتَّأكيد ضدَّه. يذكِّرنا كامو بهذه النُّقطة في رسالة كتبها الى أحد اصدقائه:

«يَودُّ المَرء أن يكون محبوباً، مَعروفاً، كما هو، ومن الجميع. لكن هذه رغبة مراهقة. عاجلاً أم آجلاً، يجب على المرء أن يشيخ، يوافق على أن يُحاكم، أو يُحكَم عليه، ويتلقَّى هدايا الحُبِّ... الأخلاق لا تساعد فقط، الحقيقة... هي البحث المستمرُّ عنها، وقرار سَردها عندما يراها المرء، على كل مستوى، ويعيشها، ويعطي معنىً، وتوجيهاً لمسيرة المرء. ولكن في عصر سوء النِّيَّة، فإنَّ الرَّجل الذي لا يريد التَّخلِّي عن التَّمييز بين الحقِّ والباطل محكومٌ عليه بالنَّفي إلى نوعٍ معيَّنٍ من المَنفى».[٤]

قد يشير منتقدو كامو الى أنَّه نفسه قدَّم لنا، في أكثر من مناسبة، أسبابَ أهمِّيته. لكن ما الأمر؟ لم يكتسب هذا الحقَّ فحسب، بل وجد الكلمات الصَّحيحة أيضاً. والحقيقة أنَّ خطاب قبوله جائزة نوبل لم يشتمل إلَّا على قدرٍ ضئيلٍ من البَراعة والرَّوعة. وقد أعلن كامو أنَّ الكاتب لا بدَّ أن يَظَلَّ مخلصاً، ليس فقط لفنِّه، بل أيضاً لإخوانه من الرِّجال والنِّساء. الكاتب «لا يستطيع أن يَضَعَ نفسه في خدمة أولئك الذين يصنعون التَّاريخ؛ بدلاً من ذلك، إنَّه يخدم أولئك الذين يتحمَّلونه... ويكفي صمت سجينٍ مَجهول، مَهجورٍ ومُهانٍ في الطَّرف الآخر من العالم، أن ينتزعه من مَنفاهُ في كل مرَّةٍ

يرفض فيها أن يَنسى، في حياته الخاصَّة التي ينعم فيها بالحرِّيَّة والامتياز. هذا الصَّمت يبثُّه من خلال فنِّه». وخَلُصَ كامو إلى أنَّ نُبلَ وظيفتنا سوف يتجذَّر إلى الأبد في حَدَثين يَصعُبُ الحفاظ عليهما: «**رفض الكذب بشأن ما يعرفه المرء، ومقاوَمَة القمع والاضطهاد**».

تساعد هذه الارتباطات المزدوجة في شرح تلك الصِّفات التي تتبَّعناها في هذا الكتاب: وضوح كامو في إدراك حالتنا العبثيَّة، وانتباهه لصمت العالم وسكَّانه، وإخلاصه لحالتنا وظروفنا المشتركة، وإصراره على القياس عندما نتمرَّد على أولئك الذين يُنكِرون إنسانيَّتنا المُشتركة.

ومع ذلك لم تكن هذه ارتباطاته الوحيدة. لقد وصف كامو في ستوكهولم المأزق الذي يعيشه الفنَّان بأنه عالقٌ «**بين الجمال الذي لا يستطيع الاستغناء عنه، والمجتمع الذي لا يستطيع انتزاع نفسه منه**». وباختصار، إنَّ جَمال هذا العالم، وليس مظالِمَه وسوءاته فحسب، يتطلَّب اهتمامنا أيضاً. إنَّ كامو، الذي قُدِّم ككاتب «**يتميَّز بالوضوح والجدِّيَّة، والذي يسلِّط الضوء على مشاكل الضَّمير البشري**»، كان جادًّا أيضاً في احتجاجه. واعترف أمام الحضور: «**لم أستَطِع قَطُّ أن أرفض النُّور، ومتعة الوجود، والحرِّيَّة التي ترعرعتُ فيها**».

مثل تيَّار المحيط، تتدفَّق عبر كتابات كامو موضوعات الجمال والسَّعادة التي وجدها في الطَّبيعة. ومن الأمثلة على ذلك مقالته

«**العودة إلى تيبازة**». كتب كامو المقالة في عام ١٩٥٣، وكان وقتاً عَصيباً بشكلٍ خاص. لم يكن هناك فقط الخلاف العنيف مع سارتر حول **الإنسان المُتمرِّد**، بل كان كامو متخوِّفاً أيضاً من نُضوب احتياطياته الإبداعيَّة، الأمر الذي جعله يشعر بالخيبة والإحباط. طار إلى الجزائر العاصمة حيث استقبلته أمطار غزيرة لأيَّام عدَّة. ولكن بعد ذلك صَفَت السَّماء وذهب كامو إلى تيبازة، كانت تطغى عليه ذكريات زياراته السَّابقة -زياراته المليئة بالبَراءة والثِّقة التي فقدها منذ ذلك الحين.

وبينما كان يتسلَّق نحو الأنقاض الرُّومانيَّة، حمل كامو ندوب المعارك التي خاضها بالنِّيابة عن أولئك الذين لم يتمكَّنوا من خوضها: الأمازيغ الذين كانوا يتضوَّرون جوعاً، أصحاب الأقدام السُّود المضطهدين، ومقاتلي المقاوَمة الذين يتعذَّبون، والسُّجناء السِّياسيِّين المقموعين. لقد سمع أصوات أولئك «**المُهانين**»، لكنَّه بدأ أيضاً يسمع «**الأصوات غير المحسوسة التي شَكَّلَت الصَّمت**» الذي استقبله في البداية: نداءات الطُّيور المَحصورة في الأحراج، وخربشة السَّحالي على الحجارة السَّاخنة، وهَسهَسَة النَّباتات «**والتنهُّدات الخفيفة المُبتَسَرَة للبحر عند أقدام الصُّخور**». وعلى الرغم من تدهور رئتيه، فقد صَعَدَ كامو على الطَّريق الصخري. وفيما كان يصعدُ «**سمعتُ موجات السَّعادة المتصاعدة في نفسي، ولهذا كان يلوح لي وكأنّني أعود مرَّةً أخرى إلى المرفأ للحظة واحدة من الزمن على الأقل، وأنَّ هذه اللحظة المُفعَمَة بالمشاعر لن تنتهي أبدًا**».[٥]

ومن بين الأقواس المُتَداعية -التي كانت في الماضي تشكِّل خلفيَّة مغامرات الشباب مع أصدقائه- عرف كامو الأكبر سنًّا والأكثر انهماكاً حقيقةً بسيطةً للغاية. «**لقد اكتشفتُ هنا أيضاً الجمال القديم، والسماء الفتيَّة..... ولا بدَّ من القول أخيراً بأنَّها هي التي خلَّصتني من الشعور باليأس. ولقد عَرَفتُ أنَّ أطلال تيبازة هي أكثر فتوَّةً من كل أبنية مؤسساتنا الحديثة**». صحيحٌ أنَّ الظُّلم موجودٌ، لكنَّ الشَّمس هي أيضاً مَصدرُ القياس. والواقع أنَّ كامو قاسَ مصيره، فأدرَكَ أخيراً أنَّ «**ذكرى تلك السَّماء لم تتخلَّ عنِّي خلال سنوات جنوننا العصبيَّة**». وهذا ما خلَّصه حقيقةً من الشعور باليأس. «**[ففي] صميم الشِّتاء، يظلُّ في نفسي صيفٌ خَفيٌّ لا يُقهَر**».[٦]

وبالنسبة لهؤلاء الذين أصروا على نقاء الارتباطات السِّياسيَّة والحاجة الماسَّة إلى الالتزام الأخلاقي، كانت رحلات كامو الغنائيَّة في الطَّبيعة مزعجة للغاية. فقد كانوا يبدون تافهين في أفضل الأحوال؛ وفي أسوئها، رجعيِّين. من الواضح أنَّ جورج أورويل قد نجا من الانتقادات نفسها. وهذا أمرٌ مؤثِّرٌ حقيقةً؛ لأنَّ أوجُهَ التَّشابه العديدة بين الرَّجلين تثير الانتباه إلى حَدٍّ ما. فكلاهما كان مُناهِضاً عنيداً للفاشيَّة، ولكنَّهما كانا أيضاً مناهضين للاستبداد؛ فقد خاطر كلاهما بحياتهما في الكفاح ضدَّ الفاشيَّة (أورويل في إسبانيا، وكامو في فرنسا المُحتَلَّة)، وكلاهما كان صحفيًّا وكاتبَ مقالات وروائيًّا؛ وعلى الرغم من أنَّ الرَّجلين كانا مَكروهَين من جانب العديد من اليساريين الأوروبيِّين، فإنَّهما لم يتنازلا قَط عن وَلائهما لقيم الاشتراكيَّة الدِّيمقراطيَّة؛ كِلا الرَّجلين، المُعادِيَين

على قدم المساواة للسِّياسات الإمبرياليَّة لبلديهما، قد عاشا أيضاً في المستعمرات، ورفضا تبسيط واقعهما المُعَقَّد. لا شَكَّ أنَّ كلًّا من الرّجلين كان مُدَخِّناً شَرِهاً أيضاً، ومُصاباً بالسُّلِّ، وكلاهما ماتا في سِنِّ السَّادسة والأربعين، ومنذ ذلك الحين فقط، وللأسف، احتُفِيَ بِهِما كقدِّيسين عَلمانيَّين.

ومع أنَّهما تمَّ تجاهلهما من قِبَل العديد من المُعَلِّقين، إلا أنَّ كِلا الرَّجلين أصرَّا أيضاً على ضرورة الجمال. ففي مقالٍ نُشِرَ بعد فترةٍ وجيزةٍ من الحرب بعنوان «**بعض الأفكار عن العُلجوم المُشترك**»، تَحَدَّثَ أورويل على مَباهج الطَّبيعة الخالدة والضروريَّة. وتساءَل فيها: «**هل من المُستَهجَن سياسيًّا... الإشارة دائماً إلى أنَّ الحياة تستحقُّ العيش بفضل أغنية الشحرور، أو شجرة الدردار الصفراء في أكتوبر، أو بعض المَظاهر الطبيعيَّة الأخرى التي لا تكلِّف مالاً، ولا تحتوي ما يسمِّيه محرِّرو الصُّحف اليساريَّة زاوية الطبقة؟**». وفي الواقع، يقدِّم أورويل مُرادفاً إنجليزيًّا للفلسفة «المتوسِّطيَّة» لكامو -نوعًا من أفكار كوتسفالدز:

> «أعتقد أنَّه عبر الإبقاء على حبِّ المرء الطُّفوليِّ لأشياء مثل الأشجار والسَّمك والفراشات و -بالعودة إلى مثاليَ الأوَّل العَلاجيم- يجعل من مستقبل المرء كريماً وسليماً أمراً أكثر احتمالاً، وأنَّه عبرَ الوَعظ بعقيدة أن لا شيء ينبغي الإعجاب به عدا الفولاذ والخرسانة، يقوم المرء فقط بالتأكيد على أنَّ البشر لن يكون لهم مَنفَذٌ لطاقتهم الفائضة سوى في الكراهية وعبادة القائد». [٧]

لَم تَظهر العَلاجيم في طفولة كامو، لكنَّ أعاجيب دنيويَّة أخرى ظهرت. والرِّمال والبحر، النور والحرارة، الرِّياح والنُّجوم: كانت مصادر سعادةٍ لا تَنضب. فقد لاحظ كامو أنَّ العبثيَّة قد تَنصِبُ لنا كميناً عند ناصية شارع أو على شاطئ مُشمِس. وكذلك الحال بالنِّسبة للجمال والسَّعادة التي ترافقها. وفي أغلب الأحيان، نُدرك أنَّنا لا نكون سعداء إلا عندما لا نكون كذلك. عندما يُطلق ميرسو النَّار على العربي، ينزع نفسه من العالم الذي كان جزءاً منه، وبالتَّالي في حالة وِفاقٍ معه. ومع انفجار المسدَّس، حَطَّم ميرسو «**الصَّمت الاستثنائي للشاطئ حيث كان سعيداً**».

ومثلما انتزع كاليائيف أيضاً نفسه من العالم. ولكن على عكس ميرسو، لقد فعل ذلك عمداً، مدركاً تماماً لتضحيته. عند بداية **القَتَلَة العادلون**، يُطري كاليائيف ودورا على الثياب التنكُّريَّة لبعضهما، والتي ارتدياها لتجنُّب لَفت انتباه الشُّرطة القيصريَّة. وعندما تخبر دورا كاليائيف بأنَّ لباس النبلاء يليق به، يضحك، ثم يردُّ الإطراء، ويخبرها كم هي جميلة في «**ثوبها التَّنكُّري اللافت**». لكنَّها ترفض الإطراء: فبعد كلِّ شيءٍ، يخطِّط الصَّديقان لاغتيال الدُّوق الأكبر، وهو عملٌ من شأنه أن يؤدِّي إلى موتهما. لكنَّ كاليائيف لن يَحصل على أيِّ شيءٍ من ذلك: «**دورا، هناك دائماً هذه النَّظرة الحزينة في عينيكِ. لكن يجب أن تكوني سعيدة... هناك الكثير من الجمال في هذا العالم، الكثير من البَهجة**».

وعند نهاية حياته، ظهر كامو في برنامج تلفزيوني، Gros Plan، ليتحدَّث عن حبِّه للمسرح. يمشي كامو بسهولة على

ممرٍّ مسرح أنطوان حيث كان يُخرِجُ نسخته المسرحيَّة من رواية المهووسين لدوستويفسكي، يخلع كامو معطفه ويتَّجه صوب الكاميرا. يعترف بابتسامة مؤذية: «**اليوم، صارت السَّعادة نشاطاً غريباً، والدَّليل على ذلك أنَّنا نميل إلى الاختباء من الآخرين عندما نمارسها**». ثمَّ يخلص إلى نتيجته قائلاً بأسف: «**في رأيي، يَلزم أن يكون المَرء قويًّا وسعيداً لمساعدة التُّعساء**».[٨]

وخلال زيارته إلى منطقة القبائل في أواخر عام ١٩٣٧، كتب كامو في مذكِّراته: «**أن نُطالِبَ بالسَّعادة ونسعى بصبرٍ إليها..... أن نكون سُعداء مع أصدقائنا، في تناغُمٍ مع العالَم، ونكسب سعادَتنا من خلال اتِّباع مسارٍ يقودنا إلى الموت على الرغم من ذلك**».[٩]

والسعادة، بكلمة واحدة، واجبٌ ومَطلَب. إنَّ تحقيق السَّعادة ليس بالمسألة البسيطة -وهي حقيقة عرفها الابيقوريُّون القدماء ورَدَّدها كامو. في مقاله «**أعراس في تيبازة**»، أعلن كامو أنَّه لا عار على الإنسان أن يكون سعيداً. لكنَّ كامو لم يَخلط بين السَّعادة والكسل؛ إنَّها حالة لا نحقِّقها من خلال الإلهاء أو التَّرفيه، بل من خلال الاهتمام وبَذل الجهد. وحذَّرَ في المقال نفسه: «**ليس سهلاً أن يصير المرء ما هو عليه، أن يعيد اكتشاف أعمق مقاييسه**».[١٠]

وعندما عاد إلى تيبازة بعد خمسة عشر عاماً، لم يَعُد كامو كاتباً مَغموراً يعيش ظروفاً قاسية، بل صار مفكِّراً مَشهوراً ومثيراً للجَدَل، اتَّخذ كامو تدابيره الخاصَّة مرَّةً أخرى. كانت المعارك

السيَّاسية تُسبِّب خسائرَ فادحة، فذكَّرته تيبازة بمطالب أخرى. واختتم قائلاً:

«إنَّ التَّخلِّي عن الجمال والسَّعادة الحسِّيَّة المرتبطة به وخدمة التَّعاسة فقط، يستدعي النُّبل الذي أفتقده».[١١]

وبالطَّبع، ما يؤكِّده كامو ليس الحاجات الحسِّيَّة مقابل الأفعال الأخلاقيَّة، بل التَّوازن الضَّروري بين الاثنين. قياس، بكلمة واحدة. بالنِّسبة لكامو، يكمُنُ النُّبل الحقيقي في القبول الواضح للعالَم، وجماله وحدوده، وأفراحه ومتطلَّباته، وسكَّانه، وقَدَرنا المشترك.

منذ عهد الإغريق القدماء، شعرنا بوجود رابط بين العدالة والجمال -أو، بتعبيرٍ أقلَّ إيجازاً ولكنَّه أكثر دقَّةً، بين حالة المساواة بين البشر ومستوى التناظر بين الأشياء. قال الفيلسوف ستيوارت هامبشاير ذات يوم إنَّ العدالة التَّوزيعيَّة والجمال يتقاسمان، ولو على نحو تناظريٍّ، «**التَّوازن ووَزن كِلا الجانبين**».[١٢] بيد أنَّ هذه الأرضيَّة المشتركة قد تكون لها أسُسٌ أعمق من القياس البسيط. فقد كتبت إلين سكاري، في مقالة كامويَّة عميقة، عن أنَّ انجذابنا الشَّديد نحو التَّناظر، أو الجمال، يدفع شغفنا بالمساواة؛ إنَّ رسوخنا في عالمٍ يَعتَمد جماله المُتَصَوَّر على التَّوازن والتَّناسق يجعلنا متعطِّشين للعدالة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة. بالنِّسبة لتلك المجتمعات البشريَّة «**الأصغر من أن يكون لديها وقت لخَلق العدالة، وكذلك في الفترات التي سُلِبَت فيها العدالة، فإنَّ الأشياء الجميلة... تُبرِزُ بشكلٍ ثابتٍ الخَيرَ**

الواضح في المساواة والتَّوازن».[١٣] وليس فقط المرئيَّة منها، بل غير القابلة للتَّجزئة: نفهم، ولو بشكل غامض، أن الحياة حيث يوجد أحدهم، ولكن دون الآخر، هي حياة غير متحقِّقة.

وعلاوةً على ذلك، يَهزم الجمال، ولو لفترة قصيرة، الهموم والانشغالات الأنانيَّة التي تحكم حياتنا غالباً. وسواءٌ امتلأنا رهبةً، أو محبَّة، نسينا أنفسنا - وهذا شرطٌ أساسيٌّ لفسح المجال للآخرين. بالنِّسبة لسيمون فايل، كان هذا عمل الانتباه: من أجل أن نرى حقًّا، ونَنفتح على الجمال والعدالة، يجب أن نُعَلِّق تفكيرنا، **«ونتركه مُنفَصِلاً، وفارغاً، وجاهزاً لأن تخترقه الأشياء»**.[١٤] لقد كانت تلك اللحظات بين أطلال تيبارة، التي امتدَّت على رمال شاطئ الجزائر العاصمة، وتسلُّق جبال منطقة القبائل؛ اللحظات التي كان فيها وحيداً وساد الصَّمت، لحظات كانت بالنِّسبة إلى كامو تبرِّر إخلاصه لقضيَّة العدالة مَرَّةً أخرى.

*****

ذكر كامو في مقالٍ مبكِّر بعنوان: «**بين نعم و لا**»، كتبه عندما لم يكن يمتلك أكثر قليلاً من شهادة جامعيَّة ودون عَمَل أو وظيفة تَلوح في الأفق، قال: «**عندما نُجَرَّد إلى نقطة معيَّنة، لا شيء يقودنا إلى أيِّ مكانٍ بعد ذلك، الأمل واليأس لا أساسَ لهما على حَدٍّ سواء، ويمكن تلخيص الحياة كلِّها في صورة**».[١٥]

وقد تكون الصُّورة بالأبيض والأسود بالنِّسبة لأولئك الذين وُلِدوا بلا ذكريات عن النِّصف الأوَّل من القرن العشرين. وهذا

هو الحال، بالتأكيد، مع كامو. لا شَكَّ أنَّ أشهر صورِ كامو هي بالأبيض والأسود. ياقة معطفٍ مقلوبة وسيجارة معلَّقة بين شفتيه أو أصابعه، أو جالساً خلف مكتب، أو مستنداً إلى الحائط، أو يقرأ صحيفة؛ أو مُحَدِّقاً باهتمام في صديقٍ أو عشيقة، خطوط وجهه إمَّا مُجَعَّدَة أو مُبتَسِمَة.

وبطريقة ما، تبدو هذه الصُّور بالأبيض والأسود مناسبة. وبالنِّسبة للمصوِّر روبرت فرانك، كانت هذه الألوان الوحيدة للتَّصوير الفوتوغرافي آنذاك. «**بالنِّسبة لي، إنَّها ترمز إلى بدائل الأمل واليأس اللذين يخضع لهما الجنس البشري إلى الأبد**». وربما وافق كامو على ذلك، مُذَكَّراً إيَّانا طوال الوقت أنّه بينما لا يوجد لدينا سببٌ للأمل، يجب أن لا نَيأس أيضاً. ولكنَّ الصُّورة التي كان يريدنا أن نأخذها، ربَّما، ليست الصُّورة بالأبيض والأسود التي التقطها كارتييه بريسون. بل كانت صورةً نادرة التُقِطَت لمجلَّة أسبوعيَّة فرنسيَّة، لكامو وصديقه المقرَّب ميشيل غاليمار قبل وقت قصيرٍ من وقوع حادث السَّيارة الذي أودى بحياتهما. في صورة غارقة بألوان البحر الأبيض المتوسِّط، يجلس الرجلان في شرفة مقهى على طاولة مغطَّاة بأطباق وزجاجات. يظهر غاليمار في منتصف جملته، وترتسم على وجهه ابتسامة حمراء خجولة، في حين كان كامو، واضعاً إحدى ذراعيه فوق كتف صديقه والأخرى تحت ذقنه، ينظر قليلاً إلى يمين الكاميرا، ووجهه المُشمِس مُشرقٌ بابتسامةٍ عريضة. عند النظر إلى الصُّورة، يخطر في ذهني مقطعٌ من مقال «أعراس في تيبازة»:

«كلُّ شيءٍ هنا يتركني بكراً، فأنا لا أتخلَّى عن شيءٍ من ذاتي، ولا أتحجَّب بأيِّ قناعٍ: يكفيني أن أتعلَّمَ بصبرٍ علم الحياة الصَّعب الذي يفوق كلَّ فنون الحياة». [١٦]

يعطينا قلم كامو، وليس الكاميرا، صورةً ثانية، لا تقلُّ زَهاءً في ألوانها. يحدث ذلك في رواية **الرجل الأول**، في فصلٍ يتذكَّر فيه كامو الألعاب التي لَعِبَها عندما كان طفلاً في الجزائر العاصمة. خلال الأيَّام العاصفة في المدرسة، جَمَعَ هو وأصدقاؤه أغصان النَّخيل، وهَرعوا إلى شرفة المدرسة المطلَّة على السهول الصحراويَّة، وواجهوا الريح وهم يمسكون الأغصان. «**كان الغصن يلتصق عليه فوراً**»، تذكَّر كامو متنهِّداً، «**إنَّها رائحة التراب والقشِّ**». ويشير إلى أنَّ الفائز في السباق «**كان أوَّل من يصل إلى نهاية الشرفة دون أن يَدَعَ الريح تنتزع الغصن من يديه، ثمَّ يقف منتصباً مُمسكاً بغصن النخيل على طول ذراعه... يكافح منتصراً قدرَ الإمكان ضدَّ قوَّة الريح الهائجة**». [١٧]

وبهذه الصُّورة سأتصوَّر دائماً كامو سعيداً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مصادر المقدمة

١ ـ Albert Camus, Notebooks ١٩٥١ ـ ١٩٥٩, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ٢٠٠٨, ٣١).

٢ ـ Albert Camus, Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ١٩٦٨, ٦٦.)

٣ ـ Ibid., ١٦٤ـ١٦٥.

٤ ـ Ibid., ١٦٨ـ١٦٩.

٥ ـ Le Figaro, December ٥, ٢٠٠٧.

٦ ـ كانت الصّحافة الفرنسيّة غارقة في تغطية مستجدّات هذه القضيّة، ابتداءً من أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٩ راجع كمثال:

"Le fils d'Albert Camus refuse le transfert de son père au Panthéon," Le Monde, November ٢١, ٢٠٠٩

٧ ـ شهد صيف عام ٢٠١٢ منافسة حامية أخرى حول تراث كامو. حيث انهارت خطط الاحتفال بالذّكرى المائوية الكبرى في مقاطعة إيكس أون بروفانس عندما انهارت مدينة إيكس ومعها كاثرين كامو بسبب طبيعة المَعروضات. انتقد عمدة المدينة، الذي يمثّل مجموعة كبيرة من «ذوي الأقدام السوداء» الذين استقرُّوا في إيكس بعد عام ١٩٦٢، القيّم الأصلي على المعرض، المؤرِّخ بنيامين ستورا، الذي ينتقد بشدَّة سياسة المجتمع الجزائري الفرنسي. كما أدّى ترشيح الفيلسوف ميشيل أونفراي لمنصب أمين الصّندوق إلى جَدَل

سياسي عندما رفضت الحكومة الاشتراكية، التي دَعَمَت ستورا، تقديم الدّعم له.

٨ – Alix de Saint- André, Papa est au Panthéon (Paris: Gallimard, ٢٠٠١.) ٩٢

٩ – Assia Djebar, Le Blanc de l'Algérie (Paris: Albin Michel, ١٩٩٥).

١٠ – Djemaï Abdelkader, "J'ai grandi au milieu des clochers," Le Monde, December ٢٠٠٩ ,١٧.

١١ – بالنّسبة لحياة كامو الخاصّة، فقد تجنَّبَ مُعجَبوه ومُحِبُّوه في الغالب مناقشة العديد من علاقاته العاطفية خارج إطار الزواج، وأشهرها قصّة علاقته مع الممثّلة ماريا كاساريس، التي لَعِبَت بلا شَكّ دوراً في تفاقم حالة الاكتئاب عند زوجة كامو، ومحاولاتها العديدة للانتحار. فعلى سبيل المثال، يتجاهل تقرير ميشيل أونفرا الأخير مسؤوليَّة فرانسين كامو عن اكتئابها المُتكَرِّر، وخَلُصَ إلى أنَّ اتّهامات عائلتها ضدَّ كامو جَعَلَت منه «كَبشَ فداء سَهلًا». انظر كتابه:

L'Ordre libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٢٠١٢), ٤٧٨.

كاتبة سيرة ذاتية حديثة أخرى لكامو، أليزابيث هاوز، تقدِّم صورة أكثر دقَّة وبصيرةً لكامو ولدور النّساء في حياته. انظر:

Elizabeth Hawes, Camus: A Romance (New York: Grove Press, ٢٠٠٩.) ٢١٣–٢٢٨

١٢ – Hawes, Camus: A Romance, ٢١٧.

١٣ – Tony Judt, The Burden of Responsibility (Chicago: University of Chicago Press, ١٩٩٨.) ٢٥

١٤ – Ibid., ١٢٢.

١٥ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ١٦٠–١٦١.

١٦ – The Myth of Sisyphus and Other Essays, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage ١٩٩١.) ٣

١٧ – The Oresteia, trans. Robert Fagles (New York: Penguin, ١٩٧٥.) ١٠٩

١٨ – Martha Nussbaum, The Fragility of Goodness (Cambridge:

Cambridge University Press, ٤٥ ,)١٩٨٦.
١٩ – Ibid., ١٥٠ –٤٩.
٢٠ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ١٦٩.

مصادر الفصل الأول

١ – Albert Camus, Essais, ed. Roger Quilliot (Paris: Gallimard, ٩٩ ,)١٩٦٥.
٢ – Oliver Todd, Albert Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ٢٨١ ,)١٩٩٦.
٣ – Albert Camus, The Myth of Sisyphus and Other Essays, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage, ٦ ,)١٩٩١.
٤ – Camus, Essais, ١٠٠.
٥ – Robert Solomon, Dark Feelings, Grim Thoughts (New York: Oxford University Press, ٣٧ ,)٢٠٠٦.
٦ – Thomas Nagel, The View from Nowhere (New York: Oxford University Press, ٢١٤ ,)١٩٨٦.
٧ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٢.
٨ – Sarah Bakewell, How to Live: Or, A Life of Montaigne (New York: Other Press, ٣٧ ,)٢٠١٠.
٩ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٢١.
١٠ – Ibid., ٣٩.
١١ – Ibid., ٤١.
١٢ – Ibid., ٨٠.
١٣ – Ibid., ٥٣.
١٤ – Albert Camus, Notebooks: ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody and Justin O'Brien (New York: Marlowe and Co., ٢٧ ,)١٩٩٨.
١٥ – Letter from Albert Camus to Jean Grenier, February ,٢ ١٩٣٩, in Albert Camus and Jean Grenier: Correspondence,

١٩٦٠ –١٩٣٢, trans. Jan F. Rigaud (Lincoln: University of Nebraska Press, ٢٠ ,)٢٠٠٣.

١٦ – Camus, Essais, ٢٢ –١٤١٧.

١٧ – Todd, Camus, ٢٥٢..

١٨ – Ibid., ٢١٤.

١٩ – Albert Camus, Le Soir républicain, November ١٩٣٩ ,٦, reprinted in Essais, ١٣٨٠.

٢٠ – Camus, Notebooks, ١٥٢ –١٥١.

٢١ – Camus, Le Soir républicain, November ١٩٣٩ ,٦, reprinted in Essais, ١٣٨٠ ,١٣٧٨.

٢٢ – Camus, Notebooks, ١٧٥ ,١٧٩.

٢٣ – Alan Riding, And the Show Went On (New York: Knopf, ٢٠١٠).

٢٤ – Alistaire Horne, The Fall of France (New York: Penguin, ١٩٧٧).

٢٥ – Hanna Diamond, Fleeing Hitler: France ١٩٤٠ (Oxford: Oxford University Press, ٢ ,(٢٠٠٧.

٢٦ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ٤ ,(١٩٩١.

٢٧ –

يرجع ذلك جزئيًا إلى الاستخدام الواسع للكتاب في مدارس الدّولة، حيث يتم بيع نحو ١٣٠ ألف نسخة من كتاب «الغريب».

" L'Etranger انظر كل عام في فرنسا. :"Le Choc des Titans," at Marianne www.marianne.net/Le-choc-des-Titans_a٢٢٥٠٧٠.html.

٢٨ – Albert Camus, The Stranger, trans. Matthew Ward (New York: Vintage, ٢٤ ,)١٩٨٩.

٢٩ – Ibid., ٣٥.

٣٠ – Ibid., ٥٩.

٣١ – Jean- Jacques Rousseau, "Discourse on the Origin and Foundations of In e qual ity Among Men," in The First and Second Discourses, trans. Roger Masters and Judith Masters (New York: St. Martin's Press, ١١٧ ,(١٩٦٤.

٣٢ – Camus, The Stranger, ٨٠ ,٩٧.

٣٣ – Todd, Camus, ٢٥٣.

٣٤ – Todd, Camus, ٢٥٦.

٣٥ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٣٠.

٣٦ – Albert Camus, The First Man, trans. David Hapgood (New York: Knopf, ٢٦٨ ,٩٦ –٩٥ ,(١٩٩٥.

٣٧ – Camus, The Myth of Sisyphus, v.

٣٨ – Ibid., ١٢.

٣٩ – Ibid., ١٤.

٤٠ – Camus, Notebooks, ١٨٢.

٤١ – Henry Bordeaux: Richard Vinen, The Unfree French (New Haven: Yale University Press, ٥٤ ,(٢٠٠٧.

٤٢ – Todd, Camus, ٢٦٠ –٢٥٩.

٤٣ – Camus, Notebooks, ١٨٣ –١٨٢.

٤٤ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١٣٨.

٤٥ – Robert Graves, The Greek Myths (Penguin: New York, ١٩٧٥), vol. ٢٢٠ –٢١٦ ,١.

٤٦ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١٣٠.

٤٧ – Ibid., ١١٩.

٤٨ – R.G. Bury translation and J. Garrett commentary of the text at http:// people .wku .edu /jan .garrett /٣٠٢ /critias .htm

٤٩ – Homer, The Iliad, trans. Robert Fitzgerald (New York: Anchor, ١٩٨٧), Bk. ٦, ll. ١٧٣ –١٦٨.

٥٠ – Camus, Notebooks, ١٨٦.

٥١ – "The Minotaur, Or the Stop in Oran," in The Myth of

Sisyphus and Other Essays, ١٦٥.

٥٢ – Todd, Camus, ٢٧١.

٥٣ – Herbert Lottman, Albert Camus (Corte Madera, CA: Gingko Press, ٢٥٤ ,)١٩٩٧.

٥٤ – Camus, Notebooks, ١٨٩.

٥٥ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١١٩.

٥٦ – Richard Taylor :"The Meaning of Life," in The Meaning of Life, ed. E. D. Klemke (New York: Oxford University Press, ١٥٠ –١٤١ ,(١٩٨١.

٥٧ – Ibid., ١٤٨.

٥٨ – Lottman, Camus, ٢٧٢.

٥٩ – Letter to Christiane Galindo, quoted in Todd, Camus, ٣٠٣; Camus, Notebooks, ٢٣.

٦٠ – Camus, Notebooks, ٢٤.

٦١ – Ibid., ٢٥.

٦٢ – Ibid.

٦٣ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٢٧.

٦٤ – Albert Camus, Oeuvres Complètes, ed., Jacqueline Levi– Valensi (Paris: Gallimard, ٢٠٠٨), vol. ١٢٥٩ ,١.

٦٥ – Todd, Camus, ٣٠٤.

٦٦ – Ibid., ٣٠٨.

٦٧ – Jean– Paul Sartre, "A Commentary on The Stranger," in Existentialism Is a Humanism, trans. Carol Macomber (New Haven: Yale University Press, ٧٩ –٧٨ ,(٢٠٠٧.

٦٨ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١٥.

٦٩ – Colin Wilson, Anti– Sartre (London: Borgos Press, ١٠ ,)١٩٨١.

٧٠ – Sartre, "A Commentary on The Stranger," ٩١ –٩٠.

٧١ – Camus, The Stranger, ١٠١.

٧٢ – Ibid., ١٢٢.

٧٣ – Stendhal, Scarlet and Black, trans. Margaret Shaw (New York: Penguin, ٥٠٢ ,(١٩٥٣.

٧٤ – Taylor, "The Meaning of Life," ٣٢.

٧٥ – A. J. Ayer, "Albert Camus," Horizon ١٥٩ :(١٩٤٦) ١٣.

٧٦ – Ibid., ١٦٨.

٧٧ – Ibid., ١٦٠.

٧٨ – A. J. Ayer, Part of My Life (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, ٢٨٤ ,(١٩٧٧.

٧٩ – Thomas Nagel, "The Absurd," Journal of Philosophy ٦٣, no.٧١٦ :(١٩٧١) ٢٠.

٨٠ – Nagel, "The Absurd," ٧١٨.

٨١ – Ibid.

٨٢ – Ibid., ٧٢٠.

٨٣ – Ibid., ٧٢٢.

٨٤ – Ibid., ٧٢٧.

٨٥ – Taylor, "The Meaning of Life," ١٠٢.

٨٦ – Jeffrey Gordon, "Nagel or Camus on the Absurd?" Philosophy and Phenomenological Research ٤٥, no.:(١٩٨٤) ١ ١٦.

٨٧ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٥٥.

٨٨ – Solomon, Dark Feelings, Grim Thoughts, ٤٥.

٨٩ – Iris Murdoch, The Sovereignity of Good (London: Routledge, ٦٥ ,)١٩٧٠.

٩٠ – Robert Alter, The Wisdom Books (New York: Vintage, ٢٠١١), passim.

٩١ – Jennifer Hecht, Doubt: A History (New York: Harper, ٧١ ,(٢٠٠٤.

٩٢ – Jack Miles, God: A Biography (New York: Vintage, ,(١٩٩٤

١١.

٩٣ – Patrick Gerard Henry, We Only Know Men (Washington, DC: Catholic University Press, ١١٣ ,(٢٠٠٧.

٩٤ – Camus, Notebooks, ٤٢.

٩٥ – Camus, The Myth of Sisyphus, vi.

٩٦ – Camus, Notebooks, ٢٤.

٩٧ – Philip Haillie, Lest Innocent Blood Be Shed (New York: Harper, ١٠٣ ,)١٩٩٤.

٩٨ – Camus, Notebooks, ٩٣.

مصادر الفصل الثاني

١ –The Confessions of Saint Augustine, trans. Rex Warner (New York: Penguin, ٢٠ ,(١٩٦٣.

٢ – Albert Camus, The First Man (New York: Knopf, ١٩٩٤), trans. David Hapgood, ٢٧.

٣ – Max Picard, The World of Silence, trans. Stanley Godman (Chicago: Henry Regnery, ١ ,(١٩٥٢.

٤ – Camus, The First Man, ٩٨.

٥ – Ibid., ٩٧.

٦ – Albert Camus, "Between Yes and No," in Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ٣٨ ,٣٢ ,(١٩٦٨.

٧ – Ibid., ٣٤ –٣٣.

٨ – "Preface to the Wrong and the Right Side," in Lyrical and Critical Essays, ١٦.

٩ – Camus, The First Man, ٣٠٠.

١٠ – Albert Camus, Oeuvres complètes, vol.١, ed. Jacqueline Lèvi- Valensi(Paris: Gallimard, ١٤٣٦ ,(٢٠٠٦.

١١ – Ibid., ١٠٩٨.

١٢ – Albert Camus, "Le Vent à Djémila," in Oeuvres complètes, ١:١١١.

١٣ – Ibid., ١١٢.

١٤ – Ibid.

١٥ – Stuart Sim, Manifesto for Silence (Edinburgh: Edinburgh University Press, ٢٠٠٧), ٣٩.

١٦ – Albert Camus, "Summer in Algiers," in Lyrical and Critical Essays, ٩٠.

١٧ – Cahiers Albert Camus ٣: Fragments d'un combat: ١٩٣٨–١٩٤٠, vol. ١, ed. Jacqueline Lévi-Valensi (Paris: Gallimard, ١٩٧٨), ٢٨٨.

١٨ – Camus, Fragments d'un combat, ١:٢٨٩.

١٩ – Albert Camus, Essais, ed. Roger Quilliot (Paris: Gallimard, ١٩٦٥), ٩١٠.

٢٠ – Ibid., ٩١٥.

٢١ – Camus, Fragments d'un combat, ١:٢٨٨.

٢٢ – Ibid., ٣١٤.

٢٣ – Ibid., ٣٣٤–٣٣٥.

٢٤ – Ibid., ٣٠٠.

٢٥ – Camus, The First Man, ١٨٦.

٢٦ – Ibid., ١٩٣–١٩٢.

٢٧ – Albert Camus, Notebooks ١٩٥١–١٩٥٩, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ٢٠٠٨), ٢٠.

٢٨ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ١٩٩٢), ٢٣٦.

٢٩ – John Foley, Albert Camus: From the Absurd to Revolt (Montreal: McGill-Queen's University Press, ٢٠٠٨), ١١٧.

٣٠ – Ibid.

٣١ – Camus, Notebooks: ١٩٥١–١٩٥٩, ٣٠/٥١.

٣٢ – Ibid., ٥٠.

٣٣ – Ibid., ٥٧ –٥٦.

٣٤ – Ibid. ٤٠.

٣٥ – Albert Camus, Exile and the Kingdom, trans. Carol Cosman (New York: Vintage, ٥٠ ,(٢٠٠٧.

٣٦ – Ibid., ٥٢.

٣٧ – Ibid., ٦٠.

٣٨ – Ibid.

٣٩ – Olivier Todd, Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ,(١٩٩٦ ٣٤٦/٣٠

٤٠ – Vercors, The Silence of the Sea, trans. Cyril Connolly (New York: Berg, ٧٤ ,(١٩٩١.

٤١ – Picard, World of Silence, ١٣.

٤٢ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:١٣٥٨.

٤٣ – Camus, Exile and the Kingdom, ٦٥.

٤٤ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:٣٧٢.

٤٥ – Ibid., ٤:٣٧٥.

٤٦ – Ibid., ٤:٣٧٦.

٤٧ – Todd, Camus, ٦٣٣.

٤٨ – Le Monde, ١٤ décembre ١٩٥٧, reprinted in Camus, Essais, ١٨٨٢ –١٨٨١.

٤٩ – Camus, Oeuvres Complètes ٦ –٤:١٤٠٥. I am guilty of having relied on this mistranslation in my previous book on Camus.

٥٠ – Albert Camus, "Letters to a German Friend," in Re sis tance, Rebellion and Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ٢١ ,(١٩٦٣.

٥١ – Camus, "Between Yes and No," ٣٨ –٣٧.

٥٢ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ١٧٠ –١٦٩.

٥٣ – Camus, Essais, ١٤٩٠.

٥٤ – Albert Camus, The Myth of Sisyphus, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage, ١٣٧ ,(١٩٩١.

٥٥ – Camus, The Rebel, ٦٦.

٥٦ – Michel Onfray, L'Ordre Libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٦٨ ,(٢٠١٢.

٥٧ – Camus, The Rebel, ٧٦.

٥٨ – Friedrich Nietz sche, The Gay Science, trans. Walter Kaufman (New York: Vintage, ٢٧٢ ,(١٩٧٤.

٥٩ – Camus, Notebooks ١١٦ ,١٩٥٩ –١٩٥١.

٦٠ – The photo is reproduced in Catherine Camus, ed., Albert Camus: Solitaire et solidaire (Paris: Lafon, ٣٠ ,(٢٠٠٩.

٦١ – Erich Heller, The Importance of Nietz sche (Chicago: University of Chicago Press, ١٨٤ ,(١٩٨٨.

٦٢ – Camus, Notebooks ١٧٦ ,١٩٥٩ –١٩٥١.

٦٣ – Ibid., ٢٤٣.

مصادر الفصل الثالث

١ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ٣٠٠ ,(١٩٩١.

٢ – Ronald Aronson, Camus and Sartre: The Story of a Friendship and the Quarrel that Ended It (Chicago: University of Chicago Press, ١٤٧ ,(٢٠٠٤.

٣ – Albert Camus, Notebooks: ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody and Justin O'Brien (New York: Marlowe and Co., ١٣ ,(١٩٩٨.

٤ – Camus, The Rebel, ٣٠٦. Camus fi rst presents this sentiment in his essay "Helen's Exile," published in ١٩٤٨.

٥ – Paul Archambault, Camus' Hellenic Sources (Chapel Hill:

University of North Carolina Press, ١١ ,(١٩٧٢.

٦ – Bernard Williams, Shame and Necessity (Berkeley: University of California Press, ١٩ ,(١٩٩٣.

٧ – Albert Camus, "Prometheus in the Underworld," in Lyrical and Critical Essays, ١٤١.

٨ –Herbert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ١٠١ ,(١٩٩٧.

٩ – Camus, Notebooks ٨٤ ,١٩٥١ –١٩٣٥.

١٠ – Ibid., ٨٥.

١١ – Albert Camus, "Nuptials at Tipasa," in Lyrical and Critical Essays, ٦٧.

١٢ – Ibid., ٦٨.

١٣ – "Camus, Audisio et la Méditerranée," in Albert Camus et la pensée du Midi, ed. Jean– François Mattéi (Nice: Editions Ovadia, ١٣٤ –١٢٣ ,(٢٠٠٨. Peter Dunwoodie, "From Noces to L'Etranger," in The Cambridge Companion to Camus, ed. Edward Hughes (Cambridge: Cambridge University Press, ١٦٤ –١٤٧ ,(٢٠٠٧.

١٤ – Albert Camus, "The New Mediterranean Culture," in Lyrical and Critical Essays, ١٩١.

١٥ – Conor Cruise O'Brien, Albert Camus of Eu rope and Africa (New York: Viking, ٩ ,(١٩٧٠.

١٦ – Neil Foxlee, "The New Mediterranean Culture": A Text and Its Contexts (Bern: Peter Lang, ٢٠١٠).

١٧ – Lottman, Camus, ٥٩.

١٨ – Albert Camus, Cahiers Albert Camus ٣: Fragments d'un

combat, ١٩٤٠ –١٩٣٨ v. ١, ed. Jacqueline Lévi– Valensi (Paris: Gallimard, ٢٧٩ –٢٧٨ ,(١٩٧٨.

١٩ – Ibid., ٢٨٩.

٢٠ – Ibid., ٢٨٨.

٢١ – Lottman, Camus, ٥٩.

٢٢ – Camus, "Prometheus in the Underworld," ١٣٩ –١٣٨.

٢٣ – Ibid., ١٣٩.

٢٤ – Ibid., ١٤٠.

٢٥ – Lottman, Camus, ٦٤٥.

٢٦ – Olivier Todd, Albert Camus: Une vie (Paris: Gallimard, ٥٢٥ ,(١٩٩٦.

٢٧ – Lottman, Camus, ٣٩٥.

٢٨ – Simone Weil, "The Iliad, or the Poem of Force," in Simone Weil: An Anthology, ed. Sian Miles (New York: Weidenfeld and Nicolson, ١٧١ ,(١٩٨٦.

٢٩ – Ibid., ١٧٥.

٣٠ – Ibid.

٣١ – Williams, Shame and Necessity, ١٥١.

٣٢ – Albert Camus, The Plague, trans., Stuart Gilbert (New York: Vintage, ١٢٧ ,(١٩٩١.

٣٣ – Albert Camus, Camus at Combat, ed. Jacqueline Lévi– Valensi (Prince ton: Prince ton University Press, ,٢٠٥ ,(٢٠٠٦ ٢٠٠.

٣٤ – Ibid.

٣٥ – Ibid.

٣٦ – Ibid., ٢١٦.

٣٧ – Ibid.

٣٨ – Albert Camus, "On the Future of Tragedy," in Lyrical and Critical Essays, ٣١٠.

٣٩ – Ibid.

٤٠ – Albert Camus, "L'Algèrie déchirée," in Essais, ed. Roger Quilliot (Paris: Gallimard, ٩٨٥ ,(١٩٦٥.

٤١ – Philippe Vanney, "Sur l'idée de trêve dans l'oeuvre politique d'Albert Camus," in Albert Camus: Les Extremes et l'équilibre, ed. David Walker (Amsterdam: Rodopi, ,(١٩٩٤ ١٢٨ –١١٥.

٤٢ – Albert Camus, "Appeal for a Civilian Truce," in Re sis tance, Rebellion, Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ١٣١ ,(١٩٦٣.

٤٣ – Aurelain Craiutu, A Virtue for Courageous Minds: Moderation in French Po liti cal Thought, ١٨٣٠ –١٧٤٨ (Prince ton: Prince ton University Press, ١٥ ,(٢٠١٢.

٤٤ – Ibid., ٢١.

٤٥ – Michel Onfray, L'Ordre Libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٢٠١٢).

٤٦ – Archambault, Camus' Hellenic Sources, ٤٤.

٤٧ – Martha Nussbaum, The Fragility of Goodness (Cambridge: Cambridge University Press, ٣٢ ,(١٩٨٦.

٤٨ – Ibid.

٤٩ – Ibid., ٥٠.

٥٠ – Aeschylus, Seven Against Thebes, trans. Anthony Hecht and Helen Bacon (Oxford: Oxford University Press, ,(١٩٧٣ ٦٧.

٥١ – David Carroll, Albert Camus the Algerian (New York: Columbia University Press, ١٣٨ –١٣٧ ,(٢٠٠٧.

٥٢ – Camus, The Rebel, ٢٧.

٥٣ – Nussbaum, The Fragility of Goodness, ٤٥.

١ – Albert Camus, The First Man, trans. David Hapgood (New York: Knopf, ١٩٩٤), ٦٤–٦٦.

٢ – Ibid., ٨٢.

٣ – Albert Camus, "Refl ections on the Guillotine," in Re sis tance, Rebellion and Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ١٩٦٣), ١٣٢.

٤ – André Comte- Sponville, Petit traité des grandes vertues (Paris: PUF, ١٩٩٥), ٢٨.

٥ – Ibid., ٣٠.

٦ – Albert Camus, Actuelles II, Ouevres complètes, vol. ٢ (Paris: Gallimard, ٢٠٠٨), ٤٠١.

٧ – Albert Camus, "Letters to a German Friend," in Re sis tance, Rebellion and Death, trans. O'Brien, ٧.

٨ – Ibid., ٢١.

٩ – Albert Camus, Camus at Combat, ed. Jacqueline Lévi- Valensi (Prince ton: Prince ton University Press, ٢٠٠٧), ٤.

١٠ – Ibid., ٦.

١١ – Comte- Sponville, Petit traité des grandes vertues, ٢٩.

١٢ – Camus, "Letters to a German Friend," ٢٤.

١٣ – Comte- Sponville, Petit traité des grandes vertues, ٢٩

١٤ – Camus, Ouevres complètes, ٢:٤٠٢.

١٥ – Albert Camus, Notebooks: ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody and Justin O'Brien (New York: Marlowe and Co., ١٩٩٨), ٢٠٢.

١٦ – Olivier Todd, Albert Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ١٩٩٦), ٥٠٧.

١٧ – Michele de Montaigne, The Complete Essays of Montaigne,

trans. Donald Frame (Palo Alto: Stanford University Press, ٦٢ –٦٠ ,(١٩٥٨.

١٨ – Ibid., ٣٢٣.

١٩ – See Sarah Bakewell, How to Live: Or, a Life of Montaigne (New York: Other Press, ٢٠٥ ,(٢٠١٠.

٢٠ – Montaigne, Essays, ٣١٦ –٣١٥.

٢١ – Henri Alleg, The Question, trans. John Calder (Lincoln: University of Nebraska Press, ٤٤ ,(٢٠٠٦.

٢٢ – Ibid., ٣٤.

٢٣ – Or nearly unique: General Jacques Massu also chose to undergo torture for the same reasons as Bigeard. Remarkably, in ٢٠٠١, in the wake of the revelation made in Le Monde by Louisette Ighilahriz, who was tortured by Massu's men, Massu not only apologized publicly, but also admitted that torture was never "indispensable."

٢٤ –Agnès Spiquel and Philippe Vanney, "Notice," in Ouevres complètes, ٤:١٤١٥.

٢٥ – Simone de Beauvoir, The Force of Circumstance, trans. Richard Howard (New York: Putnam, ٣٩٦ ,٣٩٢ –٣٩١ ,(١٩٦٥.

٢٦ –Ronald Aronson, Camus and Sartre: The Story of a Friendship and the Quarrel that Ended It (Chicago: University of Chicago Press, ٢١١ ,(٢٠٠٤.

٢٧ – Montaigne, Essays, ٣٢٤.

٢٨ – Ibid., ٣١٣.

٢٩ – Ibid., ٥١٨.

٣٠ – Ibid., ٦٠١ –٦٠٠.

٣١ – Camus, Ouevres complètes, ٤:٢٩٨.

٣٢ – Albert Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ٦٨ ,(٢٠٠٨.

٣٣ –Alleg, The Question, xvi.

٣٤ – Camus, Ouevres complètes, ٣:١٠٢٥.

٣٥ – Ibid.٤:٢٩٩.

٣٦ – Ibid., ٣٦٣.

٣٧ – Albert Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١ trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ١٤٤ ,(٢٠٠٨.

٣٨ – Camus, Notebooks ٥٨ ,١٩٥٩ –١٩٥١.

٣٩ – Camus, "Refl ections," ١٣٣.

٤٠ – Eve Morisi, ed., Albert Camus contre la peine de mort (Paris: Gallimard, ٢٠١١).

٤١ – Ibid., ٢٤٤.

٤٢ – Ibid., ٢٤٦.

٤٣ – Albert Camus and Jean Grenier: Correspondence –١٩٣٢ ١٩٦٠, trans. Jan Rigaud (Lincoln: University of Nebraska Press, ١١٢ ,(١٩٨١.

٤٤ – Elaine Scarry, The Body in Pain (Oxford: Oxford University Press, ٢٩ ,(١٩٨٥.

٤٥ –Ibid., ٥ –٤.

٤٦ – Camus, Notebooks ١٨٢ ,١٩٥١ –١٩٣٥.

٤٧ – Camus, Camus at Combat, ٢٥٩ –٢٥٨.

٤٨ –Ibid., ٢٦٠.

٤٩ – Camus, "Refl ections," ١٣٧.

٥٠ – Camus, Ouevres complètes, ٤:١٢٩.

٥١ – Ibid., ١٤١.

٥٢ – Ibid., ١٥٥.

٥٣ – Ibid., ١٣١.

٥٤ – Ibid., ١٣٥.

٥٥ – Albert Camus, Essais, ed. Rogert Quilliot (Paris: Gallimard, ١٤٦٩ ,(١٩٦٥.

٥٦ – Ibid.

٥٧ – Ibid., ١٤٧٠.

٥٨ – Camus, Camus at Combat, ٢١ –٢٠.

٥٩ – Camus, Essais, ١٤٦٩.

٦٠ – Camus, Camus at Combat, ١٦٥.

٦١ – Ibid., ١٦٩ –١٦٨.

٦٢ – Todd, Camus, ٣٧٤.

٦٣ – Morisi, Albert Camus contre la peine de mort, ١٩٦ –١٩٥.

٦٤ – Gisèle Halimi, Le Lait d'orager (Paris: Pocket, ,(٢٠٠١ ١٨١.

٦٥ – Morisi, Albert Camus contre la peine de mort, ١٩٨ –١٩٧.

٦٦ – Ibid., ٢٠٢ –٢٠١.

٦٧ – Ibid., ٢٠٤.

٦٨ – Albert Camus, Cahiers Albert Camus ٣: Fragments d'un combat, ١٩٤٠ –١٩٣٨, ed. Jacqueline Lévi- Valensi (Paris: Gallimard, ١٩٧٨), v.٣٦٨ ,٢.

٦٩ – Morisi, Albert Camus contre la peine de mort, ٢٠٥.

٧٠ – Halimi, Le Lait d'orager, ١٧٧.

٧١ –Herbert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ٦٥٣ –٦٥٢ ,(١٩٩٧.

٧٢ – Camus, The First Man, ٢٧.

٧٣ – Ibid., ٦١.

مصادر الفصل الخامس

١ – Albert Camus, The Myth of Sisyphus, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage, ٥٥ ,(١٩٩١.

٢ – Tahar Ben Jelloun, Par le feu (Paris: Gallimard, ٢٠١١).

٣ – Akram Belkaïd, "Mohamed Bouazizi parle encore aux Tunisiens," Slate Afrique, December ٢٠١١ ,١٨.

٤ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ١٠ ,(١٩٩١.

٥ – Ibid., ٤ –٣.

٦ – Ibid., ٣.

٧ – Albert Camus, Camus at Combat, ed. Jacqueline Lévi– Valensi (Prince ton: Prince ton University Press, ٢٥٩ ,(٢٠٠٧.

٨ – Ibid., ٢٣٧ –٢٣٦.

٩ –John Foley, Albert Camus (Montreal: McGill– Queen's Press, ٣٩ ,(٢٠٠٨.

١٠ – Maurice Merleau– Ponty, Humanism and Terror (Boston: Beacon Press, ١٥٣ ,(١٩٦٩.

١١ – Olivier Todd, Albert Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ٤٤٦ –٤٤٥ ,(١٩٩٦.

١٢ – Albert Camus, Essais, ed. Rogert Quilliot (Paris: Gallimard, ٣٥٦ –٣٥٥ ,(١٩٦٥.

١٣ –Robert Solomon, Dark Feelings, Grim Thoughts (Oxford: Oxford University Press, ١٨٩ ,(٢٠٠٦.

١٤ – Camus, The Rebel, ١٠.

١٥ – Hannah Arendt, Between Past and Future (New York: Penguin, ٧٨ ,(٢٠٠٦.

١٦ – Camus, The Rebel, ٢٠٧.

١٧ – Ibid., ٢٢٦.

١٨ – Camus, Camus at Combat, ٤٢.

١٩ – John Sweets, The Politics of Re sis tance in France, ١٩٤٤ –١٩٤٠ (DeKalb: Northern Illinois University Press, ٢١٨ ,(١٩٧٦.

٢٠ –http:// blogs .mediapart .fr /mot –cle /conseil –national –de –la –resistance /.

٢١ – Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ٣, ed. Raymond

Gay- Crosier (Paris: Gallimard, ١٠٩٩ ,(٢٠٠٨.

٢٢ – Camus, Camus at Combat, ٥٥.

٢٣ – Michel Onfray, L'Ordre Libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٣١٧ ,(٢٠١٢.

٢٤ – Camus, Essais, ٣٥٧.

٢٥ – Camus, Camus at Combat, ١٠٧.

٢٦ – Ibid., ٢٦٧.

٢٧ – Albert Camus, American Journals, trans. Hugh Levick (New York: Paragon House, ٥١ ,(١٩٨٧.

٢٨ – Ibid., ٤٢.

٢٩ – Ibid.

٣٠ – Ibid., ٤٩.

٣١ – Elizabeth Hawes, Camus, a Romance (New York: Grove Press, ١٠١ ,(٢٠٠٩.

٣٢ – Camus, American Journals, ٤٩.

٣٣ – Camus, The Rebel, ٢٠٦.

٣٤ – Ibid., ٢٠٥.

٣٥ – Tony Judt, The Burden of Responsibility (Chicago: University of Chicago Press, ١١٦ ,(١٩٩٨.

٣٦ – Ibid., ١٠٤.

٣٧ – Camus, Camus at Combat, ٢٦١ –٢٦٠.

٣٨ – Roberto Calasso, The Marriage of Cadmus and Harmony (New York: Knopf, ١٢٥ ,(١٩٩٣.

٣٩ – Herodotus, The History, trans. David Grene (Chicago: University of Chicago Press, ٤٧٢ ,(١٩٨٧.

٤٠ – Camus, The Rebel, ٢٧.

٤١ – Camus, Notebooks ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody (New York: Marlowe & Co, ١٩٣ ,(١٩٩٨.

٤٢ – Thucydides, History of the Peloponnesian War, trans.

Rex Warner (New York: Penguin, ٤٨ ,(١٩٨٨.

٤٣ – Victor Davis Hanson, A War Like No Other (New York: Random House, ٧٨ –٧٧ ,(٢٠٠٥.

٤٤ –Thucydides, History of the Peloponnesian War, ٤٠٢.

٤٥ – Ibid., ٤٠٧.

٤٦ – Albert Camus, Re sis tance, Rebellion and Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ٤ –٣ ,(١٩٦٣.

٤٧ – Catherine Camus, ed., Albert Camus: Solitaire et solidaire (Paris: Lafon, ١٢٥ –١٢٢ ,(٢٠٠٩.

٤٨ – The critic was the writer (and friend of Camus) Nicola Chiaromonte. See Hebert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ٥٠٢ ,(١٩٩٧.

٤٩ – "Camus and the Theatre," in The Cambridge Companion to Camus, ed. Edward Hughes (Cambridge: Cambridge University Press, ٧١ ,(٢٠٠٧.

٥٠ – Camus' preface to Caligula and Three Other Plays, trans. Stuart Gilbert (New York: Vintage, ١٩٥٨).

٥١ – Ibid., ٢٤٥.

٥٢ – Ibid., ٢٥٤.

٥٣ – Ibid., ٢٥٨ ,٢٥٦.

٥٤ – Foley, Albert Camus: From the Absurd to Revolt, ٢١٧.

٥٥ – "Albert Camus and Po liti cal Violence," in Albert Camus in the ٢١st Century, ed. Christine Margerrison, Mark Orme, and Lissa Lincoln (Amsterdam: Rodopi, ٢١٩ ,(٢٠٠٨.

٥٦ – Camus, The Rebel, ١٧٠.

٥٧ – Camus, Oeuvres completes, ٣:٣٧٥.

٥٨ – Albert Camus, Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ١٤٩ –١٤٨ ,(١٩٦٨.

٥٩ – Thucydides, The History of the Peloponnesian War, ١٤٧.

٦٠ – Camus, The Rebel, ١٠١.

٦١ – Ibid., ١٣.

٦٢ – Ibid., ١٦.

٦٣ – Ibid., ٢٢.

٦٤ – Ibid., ١٦.

٦٥ – Ibid., ٢٩٠ –٢٨٩.

٦٦ – Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ١٠٢ ,(٢٠٠٨.

٦٧ – Alastair Horne, A Savage War of Peace (New York: Penguin, ١٣٢ ,(١٩٨٥.

٦٨ – Gillo Pontecorvo's documentary The Battle of Algiers.

٦٩ – Camus, Camus at Combat, ٢٠٠.

٧٠ –Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ٤, ed. Raymond Gay- Crosier (Paris: Gallimard, ٣٠١ ,(٢٠٠٨.

٧١ – Ibid., ٢٩٩.

٦٧ – David Carroll, Albert Camus the Algerian: Colonialism, Terrorism, Justice (New York: Columbia University Press, ١٠٩ ,(٢٠٠٧. Carroll's sharp and astute book has helped shape my own understanding of Camus' attitude toward the FLN.

٧٣ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:٣٠٠.

مصادر الخاتمة

١ – Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ٤, ed. Raymond Gay- Crosier (Paris: Gallimard, ٦٦١ ,(٢٠٠٨.

٢ – Ronald Aronson, Camus and Sartre: The Story of a Friendship and the Quarrel that Ended It (Chicago: University of Chicago Press, ١٤٧ ,(٢٠٠٤.

٣ – Albert Camus, Notebooks, ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom

(Chicago: Ivan Dee, ٢٠٠٨), ٧٢.

٤ – Herbert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ١٩٩٧), ٦٠٦.

٥ – Albert Camus, Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ١٩٦٨), ١٦٧–١٦٨.

٦ – Ibid., ١٦٨–١٦٩.

٧ – The Orwell Reader, ed. Richard Rovere (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, ١٩٥٦), ٣٨٦.

٨ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:٦٠٣.

٩ – Camus, Notebooks, ١٩٥١–١٩٥٩, ٧٣.

١٠ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ٦٧.

١١ – Ibid., ١٦٥.

١٢ – Elaine Scarry, On Beauty and Being Just (Prince ton: Prince ton University Press, ١٩٩٩), ٩٤.

١٣ – Ibid., ٩٧.

١٤ – Simone Weil: An Anthology, ed. Sian Reynolds (New York: Atheneum, ١٩٨٦), ٦.

١٥ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ٣٧.

١٦ – Ibid., ٦٩. The photograph is reproduced in Catherine Camus, ed., Albert Camus: Solitaire et Solidaire (Paris: Lafon, ٢٠٠٩), ٢٠٢.

١٧ – Albert Camus, The First Man, trans. David Hapgood (New York: Knopf, ١٩٩٤), ٢٤٣.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

في العنوان الجميل والمكتوب بشكل مميز [حياةٌ تستحقُ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى] ، يوضح المؤرخ روبرت زارِتسكي سعي كامو طوال حياته في تسليط الضوء على محاولته البائسة لإيجاد الوحدة والمعنى، وإرثها الخالد، بأسلوب رائعٍ ومجملٍ".

ماريا بوبوفا - Brain Pickings

من المحدود للغاية التفكير في ألبير كامو على أنه فيلسوف عبثيٌّ. فبينما لم يتدرب كامو أبدًا على أن يكون فيلسوفًا، يوضح زارِتسكي بأن كامو كان إنسانًا ذا مبادئ عالية، ومدافعًا قويًّا عن العدالة، ولا يزال صداه يدوي في أرجاء الفكر.

مجلة - Christian Century

كتاب [حياةٌ تستحقُ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى] استكشاف رائع وموجز لأفكار كامو، وقدرته المستمرة على إثارة قلقنا وإلهامنا حتى يومنا هذا .

سارة باكويل - مؤلفة كتاب "كيف تعيش الحياة"

بعض الكتاب محظوظون بما يكفي لتذكرهم بعد 50 عامًا من وفاتهم، وقليل منهم محبوبون. ولكن ما هو نادر، هو بقاء كاتب مات منذ زمن طويلٍ مثيرًا للجدل. ألبير كامو هو أحد هذه النوادر، إذ لا يزال لديه القدرة على إشعال التوجهات السياسيَّة من خلال دمجه العميق لتاريخ القرن العشرين بعمق في كتاباته. سيجد القرّاء الجدد لكامو في كتاب زارِتسكي مصدرًا مطّلعًا ومثيرًا للإعجاب بحرارة .

آدم كيرش - موقع Daily Beast

ISBN 978-9922-628-86-8
9 789922 628868
Designed by: Maher Adnan

SUMER
Printing, Publishing&distribution

سطور
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
00964770049257 6 - 00964771100279 0
Email: darstoor@gmail.com